خيول الشمس (ملحمة الجزائر)

امرأة على اسم نجمة

جول روا

الجزء الثاني

ترجمة : ضياء حيدر

نبذة عن المؤلف:

ولد جول روا في الجزائر 1907 في واحدة من عائلات المستوطنين الفرنسيين، وتابع دروسه الثانوية في المدرسة الإكليريكية، قبل أن يدخل إلى السلك العسكري في جند المشاة ثم الطيران العسكري في فرنسا لينتقل بعدها إلى بريطانيا ويشارك في الجيش الفرنسي للتحرير. في العام 1946 يغادر الجيش الذي اعتبر حربه في شبه الجزيرة الهندوصينية مخزية، ليتحول بالكامل إلى العمل الأدبي. حاز العديد من الجوائز الأدبية. وأصدر إلى أعماله الروائية والقصصية التي وصلت إلى أكثر من ثلاثين عملاً، أعمالاً مسرحية وشعرية. سنين حياته العشرين الأخيرة أمضاها متفرغاً للكتابة في فيزاليه، شمال شرق فرنسا، وتوفي فيها 15 يونيو 2000.

من أعماله الروائية: "خيول الشمس"، 1968 - 1972، "صحراء ريتز"، 1978، "موسم زا"، غراسيه، 1982.

ومن أعماله القصصية: "سماء وأرض"، 1943، "الوادي السعيد"، 1948، "البحار"، 1954، "الخائنة"، 1955، "الحروب الصليبية الجميلة"، 1959، "حرب الجزائر"، 1960، "معركة ديان بيان فو"، 1963، "رحلة إلى الصين"، 1965، "موت ماو"، 1969، "رقص شرقي على وقع المدافع"، 1976، "بيروت، يحيا الموت"، 1984، "حب ما بعد الحرب"، 1995.

خيول الشمس «ملحمة الجزائر»

الجزء الثاني

امرأة على اسم نجمة

تأليف: جول روا

ترجمة: ضياء حيدر

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م

ملحمة الجزائر : (خيول الشمس). الجزء 2، امرأة على اسم نجمة
جول روا

PQ2635.O9654 R6912 2011
Roy, Jules, 1907-2000
[Femme au nom d'étoile]
ملحمة الجزائر . (خيول الشمس) الجزء 2، امرأة على اسم نجمة / جول روا ؛ ترجمة ضياء حيدر.-ط.1.- أبوظبي هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011
306 ص. ؛ 20x13 سم.
ترجمة كتاب Une Femme au nom d'étoile
تدمك 978-9948-01-855-1
1 1. القصص الفرنسية. أ. حيدر، ضياء ب.العنوان

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:
Jules Roy
Les chevaux du soleil



www.kalima.ae
ص.ب 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف 468 6314 2 971+ فاكس 462 6314 2 971+



www.adach.ae
ص.ب 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف 300 6215 2 971+ فاكس 059 6336 2 971+

امرأة على اسم نجمة

إهداء

إلى زوجتي تاتيانا التي شاركتني أمل كل يوم وخيبته، على امتداد السنوات العشر التي استغرقها هذا الكتاب.

وإلى كل من ألهمني.

إلى الشخصيات الكبيرة التي جرفتها رياح التاريخ، من البارون دوبريه إلى الجنرال دو بورمون حتى ديغول، وأيضاً إلى أبناء ذاكرتي ومخيلتي، من الجد الأول مارجول إلى كل رجال دو رواي، من الكولونيل غرييه إلى أستاذ روفيغو الذي هو أبي.

إلى كل النساء اللواتي لهن اسم نجمة وقلباً من ألماس، وكل اللواتي لا يهزمن، إلى ذاكرة أمي في ثورتها ثم في خضوعها، إلى دموع إليز.

إلى كل أهلي الذين دمرهم حبهم لأرض احتضنتهم، لمن اعتقدوا أنهم ماتوا عبثاً، كما لكل من سقطوا من أجل كرامتهم ومعتقداتهم، إلى أخي الذي أنهى حياته بالقرب من بيربينيان بهاجس أن تفوته اللحظة التي عليه أن يذهب فيها إلى عمله في محطة القطارات الجزائرية الرسمية.

إلى كل من حارب من أجل الحق، إلى أبناء البقّالين من القبائل وعمال المزارع الذين شاركوا في الثورة، إلى من ذبحوا وقتلوا وعذبوا، إلى كل من لم يجدوا أيّ عزاء بعد خسارتهم الجنة... وإلى من استعادوا كرامتهم بالألم والعنف.

أهدي عملي هذا.

جول روا

المحتويات

مقدمة المترجمة

غالباً ما يجري تناول البعد السياسي والاقتصادي أو حتى الثقافي للاستعمار، لكن قلما يجري تناول البعد الاجتماعي والآثار العميقة التي يحدثها الاستعمار – لا سيما ذلك الذي يستمر لأجيال مديدة كحال الاستعمار الفرنسي للجزائر – في حياة المجموعات والأفراد على حدّ سواء. وقد حقّت تسمية هذه الرواية بالملحمة، لا لامتداد أحداثها إلى زهاء مئة وثلاثين عاماً فحسب، بل بصورة أساسية لأنها تصحبنا في رحلة إلى تلك التحولات الاجتماعية التي ضربت جذورها عميقاً ليس في حياة المستَعمَرين ووعيهم فحسب، بل أيضاً في حياة المستعمِرين ووعيهم، أو كما يصف الكاتب نفسه ذلك:

«حملة العام 1830، ذلك الغزو الدموي الذي استمر مصهراً للاختبارات، صراع السلطة، التنافس السياسي، الطروحات الكولونيالية ونقيضاتها، الأوهام، ظهور الأفكار الجديدة، صراع الديانات، المسافة مع الوطن الأم، كل هذا يبدو لي حلقة هائلة. حرب 1870 مع ألمانيا، الحرب العالمية الثانية، الصراعات الكولونيالية في مكان آخر، صراع الأمم، مشاكل التوطين، الحنين، الممانعات العنيفة للاستيعاب المستحيل أو التساكن، الميول الانفصالية، العنصرية، الكوارث الطبيعية، كما تمجيد الأحلام الإمبراطورية، كل ذلك كان يزمجر كأنما في قفص للأسود. بالنسبة للعائلات التي كانت مركز اهتمامي الأول، والتي أتت من كل أوروبا وخاصة من البحر المتوسط، فقد تصادمت في طموحاتها وشهرتها، بارتباطها أو ابتعادها عن الآخرين، وشكلت العناصر التي تحركت من

خلالها عائلتي الخاصة ذات الأصول المتواضعة، ضمن شبكة مذهلة من العلاقات العاطفية والأحقاد والنكبات والانتصارات وكل ما يشكل حياة البشر لشعب كامل على امتداد الزمن. ثم يأتي المواليد الجدد، ويطرح الموت الذي يخطف شخصيات تعلقنا بها سؤال الوراثة. تغيب شخصية واحدة ويكون علينا إعادة توليدها بشكل آخر، في جيل آخر، لضمان استمرارية الحدث وتواصله مع الورثة في الدم وفي الروح. وعندما لا يكون هناك وريث مباشر، نخلق لاحقاً بعد عدة سنوات، براعم من غصن قريب».

هي رحلة مأساوية إذن نتعرف من خلالها على مصائر أجيال ممتدة، تكاد تكون حياتها صورة عن ذلك العنف الذي عصف بأرض الجزائر؛ ونقف وجهاً لوجه في الأثناء على الدعاوى الزائفة التي انطلق منها الاستعمار واستمرّ قائماً عليها، ولا سيما دعوى «تحرير الشعب الجزائري» من محتلّ آخر أو من حاكم جائر؛ كما نتعرف في ثنايا الرواية وتحولاتها وأحداثها على تلك الظاهرة التي يبدو أن لا مفرّ منها، وهي ولع المستعمرين أو المستوطنين بالأرض التي استوطنوها، حتى يستحيل ما بدأ كذبة أو خدعة إلى واقع سرعان ما يتشظى أمام واقع آخر، وولع آخر، هو ولع سكان الأرض الأصليين - مثلما اعتاد الفرنسيون أن يسمّوا الجزائريين - بأرضهم.

عندما بدأ جول روا كتابة «خيول الشمس» في العام 1966، لم يكن قد مضى على تحرير الجزائر سوى أربع سنوات، وهو ما دفعه كما يقول في مقدمة طبعة العام 1995 من الرواية إلى التردد، «لأنني لم أكن أملك الثقة بالنفس»، بيد أنه تجرّأ أخيراً على خوض المغامرة، لتأتي روايته هذه ليس

فقط من وحي زمنٍ معاش وإنما أيضاً من وحي تجربة عميقة للكاتب نفسه، الذي عاش التجربة الفرنسية في الجزائر بكل أوجهها، حتى تكاد تكون الرواية في أحد مستوياتها، سيرة ذاتية، بنيت على سيرة عائلتين، واحدة منهما هي عائلة الكاتب نفسه، على امتداد أكثر من قرنٍ من الزمن، منذ تاريخ الغزو في 1830 وحتى استقلال الجزائر في 1962، ولتغدو بذلك العمل الملحمي الأهم الذي تمكن من أن يغطي بالكامل مرحلة الاستعمار الفرنسي للجزائر، وذلك من خلال رصد أعقد تفاصيل الحياة اليومية وأبسطها على خلفية أحداث وشخصيات حقيقية، وغيرها متخيلة غير أنها مستقاة بدورها من شخصيات عرفها الكاتب وعايشها عن كثب.

والأهم أنه حتى التفاصيل اليومية متأتية من التجربة الشخصية للكاتب الذي هو نفسه «هكتور كونيغ» في الرواية، الذي ولد مثل «هكتور» في روفيغو (وهي التسمية الفرنسية لمدينة بوقرة خلال احتلال الجزائر) نتيجة علاقة غير شرعية بين أمه المتزوجة من شرطي، واسمها الحقيقي «ماتيلد» كما في الرواية، وأستاذ مدرسي هو أيضاً «ديماتون»، وهو والده الحقيقي. كما انه عاش في الحقيقة تجربة المدرسة الإكليريكية التي غادرها لينتقل إلى الجيش ويعيش تجربة الحرب الفرنسية في الجزيرة الهندوصينية في إطار سلاح الجو، وهي التي ولدت لديه تحولاً كبيراً، ليصبح واحداً من كبار المنتقدين لهذه الحرب وللحرب في الجزائر، ومن المؤيدين لحق الجزائريين في الدفاع عن أرضهم. وهذا ما أعطى هذه الملحمة التي كتبها على امتداد عشر سنوات القدرة على أن ترسم بموضوعية كاملة تجربة الاستعمار الفرنسي للجزائر.

بيد أن هذه الملحمة بنيت أيضاً على جهدٍ توثيقي هائل يمنح الرواية

ثقلها التاريخي الضروري الذي يجعلها تأريخ حياتي حقيقي للتجربة الفرنسية في الجزائر. والجدير ذكره أن الرواية وضعت في البداية في ستة أجزاء منفصلة صدرت بالتوالي منذ العام 1968 وحتى العام 1972، ثم قام الكاتب بتلخيصها لتقدم عملاً تلفزيونياً عرضه التلفزيون الفرنسي في 1980 في اثنتي عشرة حلقة. ليعود ويجمع في 1995 الأجزاء الستة في مجلد واحد أسماه ملحمة الجزائر.

لم تكن ترجمة هذه الرواية بالعمل البسيط، ومثل الكاتب نفسه عندما بدأ بكتابة ملحمته، فإنني لم أكن واثقة من مقدرتي على خوض غمار مثل هذه المغامرة، خاصة وأن ترجمة مثل هذا العمل لابدّ من أن تقودنا إلى التاريخ بتشابكاته وتعقيداته، وأيضاً إلى الجغرافيا الجزائرية المعقدة، حيث يصعب في كثير من الأحيان العثور على اسم قرية أو شارع أو الوقوف على كافة تفاصيل واقعة تاريخية معينة، قد تمرّ في السرد بصورة ثانوية، غير أنها قد تكون عائقاً أمام الإحاطة بأحداث أكبر وأهم تأتي لاحقاً. هذا ناهيك عن التحدي الذي فرضه أسلوب الكاتب نفسه. ذلك الأسلوب المتسم بالتنقل بين عدة مستويات سردية، تبدأ وصفية مجردة أحياناً لتغوص الشخصية فجأة في رحلة من التداعيات المنفصلة عن السرد الواقعي للأحداث أو لمحادثة ما... غير أن هذا الأسلوب على تعقيده هو ما يمنح ذلك العمق الحقيقي للرواية، وكأنها النسخة المخبأة لها أو للواقع الذي تسرده، وهو وإن كبد المترجم، والقارئ بطبيعة الحال، بعض العناء، إلا أنه يمنحه شعوراً بـ «الأمانة التاريخية».

ضياء حيدر

الجزء الأول

معبد الذهب

الأرض الموعودة تقع دائماً في الجانب الآخر من الصحراء
هافلوك ألّيس[1]

الفصل الأول

في هذا الفصل يلتقي القارئ من جديد الجندي السابق بويشو، في ليلة مقمرة من شهر يوليو، وهو يفكر بزيارة الجنرال دو رواي له.

1

في هذه الليلة، لم ينم الشيخ جيداً.

ظلّ يتقلّب في سريره حتى انسلّ في النهاية من تحت اللحاف متحاشياً إيقاظ زوجته التي تنام هامدةً إلى جانبه حتى يبدو أنها لا تتنفس. حشر قميصه تحت بنطاله وحمل بندقيته على جاري عادته وخرج. القمر المكتمل، إنما مع شيء من النقصان يجعله مبعوجاً قليلاً، ينير المنزل والسهل

---

(1) Henry Havelock Ellis (1859 –1939) هو طبيب وعالم نفس بريطاني، واحد من مؤسسي علم الجنس الذي كرس له حياته، وقد جمعته صداقة وطيدة بسيغموند فرويد. وهو صاحب المجموعة الضخمة من ثمانية أجزاء «دراسات في علم النفس الجنسي». وجملته هذه مستقاة من كتابه «رقصة الحياة».

المنبسط وأسيجة القصب والمزارع التي تتوالى حتى الكتلة السوداء التي تتشكّل منها قرية بوفاريك[1] حيث تلمع في البعيد بعض الأسطح القرميد. وبعد ذلك الجبل الذي نخاله يبدأ مباشرة هنا لشدة ما يبدو قريباً بسفوحه وبقعه الثعلبية، وكلابٌ تنبح صاخبة في الدوار[2]. عواء بنات آوى يملأ المكان ويخترق السماء. بيد أنهم اعتادوا صوتها وأصبحت تلك أغنية الأرض الغالية المتوقدة ما إن تظهر النجمة الأولى في السماء؛ نوع من التنفس المتوحش الذي يغدو مرعباً أكثر إن انقطع فجأةً.

ذهب في البداية إلى البئر. كانت ناعورة الجرّ قد خرجت عن حافة البئر فعدّلها. بعد شجرة الحور السامقة وعلى مرمى حجرٍ منها حجرا رحى يلمعان بالقرب من المحصول الذي يتكدس تحت طبقة من العشب المقطّع الجاف، إنه الديس[3] الذي يحمي المحصول من المطر. تقدم بهدوء كاتماً أيّ صوت مخافة أن يُباغت أحدهم أو أن يباغته أحد. والحارس الذي يتقاضى راتباً لقاء عمله هذا، يغط في النوم بين كومة القش بعيداً عن نور القمر. ناداه الشيخ مرة بعد مرة وحتى إنه ربّت يده في النهاية.

«محمد!».

أفاق مجفلاً.

«أنت نائم؟»، قال له الشيخ الذي امتلك ناصية اللغة العربية رغم أن بعضهم يحسبها عصيةً.

---

(1) بوفاريك وهي بلدة جزائرية يوحد بها سهل متيحة وتشتهر بإنتاج الكثير من الفواكه خاصة البرتقال.

(2) الدوار وهي محلة في مناطق شمالي إفريقيا تتضمن عددا من الخيام أو البيوت وزرائب للماشية.

(3) Diss وهو نوع من العشب من عائلة النجيليات (أي النباتات وحيدات الفلقة وتشمل النباتات الحبية والعلفية) التي تنبت في الجزائر.

«لماذا خرجت يا شيخ (بالعربية) أأنت قلق من ذلك الخيّال؟»، قال له محمد.

لقد فهم الحارس الفطن كعادته. وعلى الرغم من أن ذقنه القصيرة المشذّبة بالمقص وشاربه يأكلان من وجنتيه إلا أن وجهه يبدو نضراً وعيناه تشعّان مكراً لا يفكر بإخفائه طالما أن الليل يخفيه. غير أنه ناداه: «يا شيخ» قاصداً بذلك «يا رجل!». فهذه الكلمة، تخرج من فمه تحديداً، ليس بداعي التوقير ولا التهذيب كما الحال مثلاً مع رؤوساء القبائل أو حتى ببساطة مع أحد شيوخ العائلات الموقرين فيها. فهنا تعني شيئاً من قبيل «يا صديقي»، مع لمسة من العطف الممزوج بنفاد الصبر.

«النذل، كان ساجداً لصلاة الظهر (بالعربية) التي تحين عندما يكون الظل هو الأقصر، وعندما سمع الحصان ترك صلاته»، قال الشيخ في سرّه وهو يدير ظهره له.

لطالما كذب بويشو، وما زال، بشأن سنه، منذ أراد أن يبدو أكثر شباباً في ناظري زوجته ماري ألدبرام. ليس في اليوم الأول في الغابة المزينة بالأرجوان والذهب احتفاء بالعيد الكبير لحبهما، ولكن بعدها، وقت العودة إليها لكي ليقول لها إنه ما زال هناك مستقبل لعلاقتهما. لماذا عليه أن يبدو أقل كهولة، ما دامت المرأة تحب الشعر الأشيب والتجاعيد التي تدلّ على التجربة؟

عاد أدراجه، توقف للحظة عند شجرة الحور ولاعب نفسه بإخفاء القمر الكبير المشعّ خلف جذع الشجرة وغصونها التي ترتفع كشجرة سروٍ سامقة نحو السماء. شجرة حورٍ من إيطاليا. فهو يفضل أن يدفن هنا أكثر من أن يدفن في المقبرة الجديدة في قرية بوفاريك إلى جانب المستوطنين

الذين لم يقم معهم سوى القليل من الأواصر، فقط ما يكفي لإرساء جيرة جيدةٍ وتضامن عرقي ومصالح مشتركة. وبعد ذلك كلّ واحد منهم يعيش شؤونه الخاصة، بين جدران منزله. واليوم يشعر أنه مسكون بصور الموت الذي لن يصل إليه عن طريق حادث ما، مثلما يحصل مع الآخرين، بل بفعل القدر الذي يخشى أن يداهمه فجأة.

يعترف أحياناً بتعبه، وعلى الرغم من احتفاظه بنحافته وبصلابة جذعه، فإن عضلات بطنه تتمدّد مجبرة إياه على إرخاء حزامه، وقد بدأ قفصه الصدري يتقوّس فوق لحمه المترهل، ناهيك عن أنه فقد على دفعات خمسة أضراس دون أن يسبق ذلك أي آلام، وكأنها حجارة تداعت عن جدار. منذ ذلك الحين، بات يعاني في المضغ ولكنه بقي قادراً على العض بأنيابه. من هنا أتى تعجّله في المضي قدماً، بما أنه قرر لمرةٍ في حياته، وإن متأخراً كعهده دوماً، أن يمضي سعياً وراء الثروة في الجزائر لأن الحياة في مونتسيغور باتت مستحيلة. كان عجولاً في فعل الأشياء بقدر ما في قطع الصلة مع الماضي. في خضم تأملاته هذه تذكّر الخيّال، والرسالة التي حملها له أمس الاثنين، يوم السوق، عند الظهر في الوقت الذي تصيح فيه الديكة إيذاناً بصلاة الضهر[1].

على مقربة من الناعورة انحنى فوق البركة ليرى في صفحة الماء التي انعكس فيها شعاع القمر رأسه الأشعث وشاربيه المتفاخرين. تذكر أنهم غداً سيسرجون البغل لريّ أشجار البرتقال والحديقة. حمل البندقية بيسراه وعاد إلى المنزل شاعراً ببعض التعب. صادف الجرو الأسود الذي ورثه مع

---

(1) هكذا في الأصل، dhor، رغم تناقض ذلك مع صياح الديكة في هذا الوقت أو فكرة أن صياحها يؤشر لصلاة الظهر.

شجرة الحور والذي اعتادوا إطلاقه ليلاً. وقف الجرو لبرهة أمامه وأسند قائمتيه الأماميتين عليه وأخذ يهزّ ذيله. من أين يأتي هذا العفريت؟ حسناً، اتركني... كفى!

في باحة المزرعة، ألقى نظرة عجلى على الإصطبل فلفحته رائحة الروث والقش الدافئة. تابع طريقه وفتح باب المطبخ لكنه تراجع بسرعة. خيل له أنه رأى مصراعي غرفة الفتاة مشقوقين، قليلاً فحسب. من الخارج وبواسطة المقابض فتحهما ليرى مارغريت، ابنته الكبرى، جالسة عند حافة النافذة بوجه كقناع شمعي جنائزي، فارتعش وتراجع. ماذا تفعل جالسةً كامرأة ميتة مسدلة الجفنين؟

جميعهم يفكرون بالخيّال. وهو أولهم، ثم محمد والآن مارغريت، كلٌّ على طريقته. ما هذا الحدث! عندما ظهر ببرنسه الأحمر في عز الظهيرة وقت انتهاء الغداء، خرجوا جميعاً، الأم وبناتها الثلاث والصبي الوحيد في العائلة منذ أن بدأ الشابان الضالان بيار وفرنسوا بالعمل لدى إسباني في «سوما»، فقد غدوا مستقلين، وأكبر سناً من أن يطيعا والدهما. محمد هو الآخر جرى مهرولاً من حديقته مع كل عائلته التي تبعته مختبئة خلف جذوع أشجار الدردار. كان الشيخ يمضغ بارتياب لقمته الأخيرة فيما عينه على طرف الورقة المطوية التي أخرجها العريف من جعبة حزام السيف وحملها بيده اليمنى، بكل ثقةٍ مثل حلوى سيقدّمها لكلب، أو ككأس قربان مقدس أو ربما كطرف هرواة.

«ربما حسبته معاوناً أو رقيباً أو... أف... عريفاً، إنه ليس بالمهم، مجرد باش شاويش. اذهبي للنوم يا حلوتي».

أعاد إقفال النافذة التي تحمي من العرب محوّلة المنازل إلى شبه سجون،

ثم أصاخ السمع واطمأن إلى سلامتها بسماعه صرير فراشها. عاد إلى المطبخ، أسند البندقية على عقبها ثم عاود الانسلال في السرير إلى جانب زوجته.

استدارت نحوه. عادةً هي التي تناديه في الليل إذ تحلم بأنها ما زالت في مونتسيغور، وبأنه يقرع نافذتها. «كل شيء إلا أن تستفيق الآن أو أنه...» فتأخذ ساعده بين يديها لتطمئن. إنه هنا فما عاد لديها ما ترجوه أو تخشاه. في نومها، تطلق العنان لعواطفها بحركات رقيقة تكاد تكون طفولية. خلال النهار، تكفي النظرات. مع التجاعيد وآثار الوقت، تحبه كما في السابق. هو يستعيدها أجمل في الظلمة. يتخيلها في صحوه تتقدم نحوه في الغابة وضفائرها منسدلة على ظهرها.

عندما ظهر الخيّال في الباحة أمس، قال لنفسه: «المزيد من الإزعاج». رسالة محكمة الإغلاق أظهر العريف ختمها الشمعي. نهض الشيخ بحركة حيادية وبنبرة غير مبالية:

– هل تعلم ما في داخلها؟ قل لي على الأقل من أرسلك؟

– آه! إنه... الجنرال دو رواي بالطبع.

بقي للحظة فاغر الفم مشدوهاً، ثم وبخفة ما كان لأحد أن يتخيلها، قفز إلى جانب زوجته التي كانت تنتظر بجانب الباب والتي اختفت بعدها في المطبخ وعادت بزجاجة وقدحين. مدّ قدحاً للعريف ثم سكب له النبيذ الأحمر.

تبدل مزاجه بسرعة البرق وأشرق وجهه. لو لم يبد العريف متعجلاً كثيراً لاستضافوه ولأعدت له ماري ألدبرام البيض بالسمن، ولكنه كان قد أسرج حصانه، وبعد أن شرب بتمهل الكأس الأخيرة قبل الرحيل،

شدّ الرسن وغير اتجاهه ثم ألقى التحية ورحل يعدو تحت السماء البيضاء وبرنسه الأحمر يرفرف خلفه. عندما اختفى خلف أشجار القصب، بقي صوت الحوافر يتردد ثم صدح زيزان الحصاد.

في كل مرة كان يسأل فيها عن مكان الجنرال دو رواي كانوا يجيبونه بأنهم لا يعرفون. أمن الممكن حفظ جميع أسماء القادة العسكريين في الجزائر! ثم في يوم من الأيام أكد له أحدهم: «إنه في مدينة الجزائر»، ولكن الجزائر بعيدة. وعندما يسألون إن كان هو نفسه الذي قاد الحملة على الجزائر مع السيد دو بورمون: «آه! إنه هو، إنه صديقي...». ويسخرون منه. لقد مر زهاء ربع قرنٍ على ذلك، شهدت خلالها البلاد انقلاباً وثورتين، وبات هناك إمبراطور جديد بعد الجمهورية، واندلعت حرب مع الروس وأخرى توشك على الوقوع في المكسيك، فمن يمكنه أن يعرف عن أي جنرال نتحدث؟ فقد أمسوا كثراً. بيد أن هذا الشيخ كان مثابراً ولم يكفّ عن السؤال. وذات يوم علم في سوق بوفاريك بأن هناك رجلاً من آل رواي هو المسؤول عن التجنيد في كل الأقليم. «ماذا إذن، مارجول، ماذا يعني ذلك؟»، قالت له ماري ألدبرام.

لولا الفتاة لايتيتا ما كان لأحد أن يعرف قراءة الرسالة فلا أحد في العائلة تقريباً يعرف القراءة والكتابة. وقد أسدتهم الجزائر خدمة على الأقل، في إرسال فتاة إلى المدرسة. ولولاها، لكان عليه أن يبحث في المزارع عمن يمكنه فك حروف الرسالة. قرأت لايتيتا الرسالة بصعوبة، فالعنوان: «السيد بويشو، المالك، مزرعة سيدي عياد، بوفاريك».

«هل جاءت بويشو مع إي اليونانية؟».

كان هناك إي واحدة. فعلى الرغم من جهلهم كانوا يعرفون بعض

الجمل. فهذه الـ إي اليونانية كانت هي الدمغة الخاصة بعائلته، وهناك بويشو من دون إي يونانية: اسم عام لا قيمة له. ثم فتح المظروف.

وفتح الورقة المتغضنة.

«أنا أعرف أيضاً ورقته...».

أعلى الورقة إلى جهة اليمين، سطران: «الجنرال دو رواي، مدير الشعب في الجزائر»، وبعد ذلك لم تعد لايتيتا قادرة على فك الكلمات المخطوطة. «عزيزي بويشو...» تنحى جانباً الشيخ بنفاد صبر. فالكتابة لامعةً مزخرفة بخطوط أرستقراطية مع أحرف «s» المكتوبة كما الـ f كضربة سيفٍ. لقد أرهقت لايتيتا، حرفاً وراء حرف. وأمها كانت تعيد تسميع الأحرف من بعدها لكي تربطها ببعضها بعض. وعندما عاد الشيخ، أعادتا قراءة الجمل له: «إن كنتَ كما أظن نظراً لعمرك...»

– حسناً وماذا بعد؟

– اسمع... الجندي الذي خدمني بإخلاص خلال حملة السيد دو بورمون...

– الذي خدمني بإخلاص، ردّد الشيخ. إنه إسلوبه. وبعد ذلك.

قالت لايتيتا: «هل ستستمر بمقاطعتي هكذا...»، ثم تابعت قراءة الرسالة: «سأكون سعيداً بلقائك مجدداً ويسرني أن أزورك صباح غدٍ في منزلك. فإن كان هناك من سوء فهم ما، فأتمنى أن تتكرم بمسامحتي. في هذه الحالة سيسرني أيضاً أن أصافح مواطناً شجاعاً من بوفاريك، ولك مني السلام».

وقد ذيلت الرسالة بتوقيع ن. دو رواي.

للوهلة الأولى امتلأ فخراً، ثم قرر أن يستقبل الجنرال بحسب

الأصول.

«أي أصول؟» سألته ماري ألدبرام.

مهما فعلوا، فلن يكون بمقام رجل بهذه الأهمية. تعليق الرايات، تدبيج الخطب؟ لن يستعين في النهاية بالجيران وبمسلحي المستوطنات حوله؟

تذكر كيف كان النقيب دو رواي يشرب في مطرته. فهل يمكن أن يقدموا للجنرال النبيذ أو اليخنة التي تقدم لعريف؟ وأساساً، هل هناك أدوات مائدة تليق به؟ ثم إن الجنرال لا يتحرك وحده. ماذا لديهم لاستقبال خمسة أو ستة ضباط؟ أضاع مارجول المقدرة على التفكير. سيلبسون أفضل الثياب ويكنسون الفناء وسيقترحون عليه الأفسنتين[1] وسوف يرفض ويصافحهم ثم يتبختر كل هذا العالم الجميل.

«بالنسبة إلى الخنزير، فهذا ليس موسمه وسيلزمنا وقت لتحضيره. سنذبح دجاجتين تطبخينهما وتحمرينهما»، قال الشيخ.

تذكر مارجول مطعم هنيكِن، فليس من الممكن استقباله هنا في المطبخ. علق بمساعدة محمد قماشاً بجذوع شجرة دردارٍ على هيئة خيمةٍ وذهب على الدراجة إلى مزرعة برتلو[2] التي يمكن رؤية أشجار النخيل فيها على بعد كيلومتر من جهة الشرق بالقرب من طريق الجزائر، من أجل استعارة كؤوسٍ وفناجين. وأخذ معه الرسالة متباهياً بها «خذوا، اقرأوا هذه...».

والآن بات هناك مائدة ممدودة على المنصبة الخشبية مع مفرش زاهٍ بعشب القنا[3] بألوانها النارية وأربعة كراس وعدد من المقاعد. ومنذ

(1) Absinthe وهو شراب مسكر يستخدم من نبتة الافسنتين، وهي عشبة طبية معمّرة.

(2) Berthelot وهي قرية استحدثت في العام 1910 في محافظة وهران.

(3) نوع من العشب الاستوائي.

الصباح، وقف الشيخ متأهباً بعد أن اغتسل جيداً ولبس الكتان الرمادي، ووضع ياقةً وانتعل حذاءً أسود وقبعةً لينة من اللباد طرية الحواف وراح ينتظر.

2

يُفترض أن الساعة كانت قد بلغت الحادية عشرة قبل الظهر عندما ملأت مدخل بوفاريك غيمة غبارٍ كثيفة لدرجة أن الهواء حملها وجعلها تحجب الضوء عن البساتين. عند هذه المسافة، أي ما يقارب الفرسخ، وعلى الرغم من أن المكان يقع في منحدر بسيط فإن القرية – مع أن بوفاريك أصبحت مدينة – تبدو على ارتفاعٍ بسيط قياساً بالمزارع في المنطقة الشمالية. «لا يعقل أن يكون هذا الجنرال في نهاية المطاف؟»، قال بويشو لنفسه بقلق. فهم يتوقعون أن يصل برفقة رقيبين أو ثلاثة، ضابطين أو ثلاثة. إذ لن يصحب معه كتيبة كاملة كفيلة بتحطيم الأرض وما عليها تحت حوافر جيادها؟ ارتفعت غيمة الغبار فوق طريق الجزائر وما هي إلا خمس أو ست دقائق حتى ظهرت البرانس الحمر تلمع، وهي تعدو مسرعة، تحت الشمس. لم تكن كتيبة واحدة بل وحدة عسكرية بأكملها. مجموعتان في المقدمة وأخريان في الخلف تتوسطهما الراية. بعد مزرعة روسّي، انعطف الموكب فجأةً يساراً فأزاح الهواء عنهما غيمة الغبار ليظهر الخيّالة في ثلاثة صفوفٍ كملائكة حمر يتلألأون بين أسلحتهم البهية.

هرول الشيخ إلى بيته بحذائه المنظف بعناية.

«وصلوا، وصلوا»، لعلع صوته.

دفع بالفتيات والصبي أنطوان إلى المطبخ بالقرب من أمهم وأرسل محمد

لكي يرتدي قميصاً وبنطالاً نظيفين. فالعربي لم يبذل أي جهد، لا بل يبدو أنه ارتدى الأقذر بين عباءاته. وقف الشيخ أمام الباحة المحاطة بأشجار الدلب التي ستصل إليها سرية الخيالة. توقف الوفد على بعد مئة متر وانتظم في صفوف وتقدم خمسة من الخيّالة. وفي الطليعة فارس الأمس ثم حامل الراية يليه المرافق والجنرال بقبعته الطويلة المزخرفة فوق فرسٍ كميتة يتبعه نقيب، في حين دنا الشيخ، مأخوذاً فجأة بذكرى الماضي، ورفع يده إلى صدغه ملقياً التحية العسكرية.

«يا إلهي، هذا ليس هو»، قال متمتماً.

اقترب الجنرال وشد اللجام ليتوقف ويمدّ يده. كيف يمكن لهذا الرجل بوجهه الحاد الملامح ووجنتيه المجوفتين وشفتيه الغليظتين وشعره الأشيب الذي يكاد يغطي رقبته ألا يكون هو؟

«لم تتغير. أما أنا فيبدو أنني تغيرت».

ترجّل بهدوء عن صهوة الحصان. أما الشيخ فتسمّر في مكانه مصدوماً، ثم خلع قبعته. صوته المشحون بوقارٍ جديد، ما زال هو، كذلك العينان، أو بالأحرى رقّة النظرات، لأنه كان قد نسي لون عينيه؛ بيد أنهما بالتأكيد عينا النقيب دو رواي.

«عمّ تبحث؟ عن شارة القائد العام؟ بلى، هذا أنا. كنا قديماً نرخي سوالفنا المفتولة، اليوم تبدل كل ذلك. المعايير يا عزيزي والموضة. فشارب غليظ مثل شاربك ما عاد يليق بي بأيّ شكل من الأشكال. ولكن هل تحسب قلبي قد تغيّر؟ ما زال على حاله. أليس هؤلاء زوجتك وأطفالك؟ عرفني بهم»، قال له.

رفع الجنرال قبعته، تقدم وصافح ماري ألدبرام والفتيات وداعب عنق

الفتى أنطوان ثم استدار.

«أيها الملازم أول غربيه»، قال مخاطباً مساعده الميداني، «أمعن النظر أيها السيد، انزع عن كاهله ربع قرنٍ من الزمن وضع على رأسه قبعة عسكرية وأضرم قليلاً الجمر الذي يشع تحت حاجبيه وأشعل فيه بعض الوقاحة وستكون أمام الجندي بويشو، أمام حصن الإمبراطور... لا أجرؤ على قول المزيد».

تحت الخيمة حيث فرض الجنرال رغبته بالجلوس، جلس بويشو الأب يختال متلذذاً بالنصر. أما ماري ألدبرام، بشعرها الملموم إلى الأعلى ووجهها الذي سفعته الشمس، فجلست باستقامة تامة مخفية مرفقيها، على رأس الطاولة بين فتياتها. كان ثمة ما يستحق الاحتفال أيضاً، فقد اكتملت يوم أمس ثلاثون سنة على دخول الجزائر، أمسى خلالها النقيب دو رواي جنرالاً، ولف تاج من أوراق الغار قبعته العسكرية التي وضعهاعلى كرسي إلى جانبه، واعتلت النجوم كتفيه وهو جالس يشاطر العائلة طعام الغداء في حين تأهبت وحدة من القناصة لتأمين الحراسة أمام المزرعة. لم يتذكر الشيخ هذه الجبهة العريضة التي تكشفت بعد أن رفع الجنرال شعره الكث إلى الوراء. هل كان للنقيب هذا الشعر الكث أم أنه طال بفعل الترقيات التي حصل عليها؟ أهذا بفعل الأفسنتين، أم النبيذ الوردي أم الحرارة؟ شعر الشيخ أنه يعيش حلماً استحال معه له كل شيء ضبابياً: إلى يسار الجنرال جلست مارغريت، وإلى يمنيه ماري، فتاته المفضلة التي تحمل اسم أمها، ماري الرقيقة الطيبة والحنونة بوجهها الجميل المندهش والتي ستحتفل بعيدها السادس عشر في سبتمبر، وإلى يساره جلست لايتيتا النحيفة النشيطة، من تشبه هذه؟ في الجهة الأخرى بينها وبين ماري، كان الفتى

أنطوان الذي كاد يأكل النقيب بعينيه، وقد جلس مشدوداً مثل سيفه ممسكاً بالشوكة والسكين بأطراف أصابعه وشاداً خاصرته بإبزيمي حزامه دون أن ينبس ببنت شفة. لقي طبق الدجاج الاستحسان، والآن سيتذوقون فطيرة المشمش. وضع الجنرال كأسه ومسح شفتيه.

«ها! عزيزي، عليكم أن تأتوا إلى الجزائر[1]، زوجتي تقيم حفلاً راقصاً مرة في الشهر وستفرح الفتيات دون شك بالرقص مع ضباطي الملازمين. وبانتظار أن تقدم لنا السيدة بويشو القهوة، أرني أرضك».

ابتعدا وسط صخب زيز الحصاد الذي يملأ السهل. الحر شديد بيد أن الشيخ لا يعبأ به. وبعد أن أفاق من ثمالته، أسف لأن أحداً من مونتسيغور لم يره وسط أرضه المحتلة هذه يمشي جنباً إلى جنب جنرال يعامله كالصديق. «السيد بويشو، ملاك...» يوماً ما سيعود إلى هناك مع ماري ألدبرام، لا للعيش في الجبال حيث قصف الرعود، بل ليؤكد لأولئك الناس أنهم مغفّلون لبقائهم في كومة الزبل تلك. سيتكبد كلفة الرحلة فقط ليرى الأطفال الذين أنجبهم من امرأته الأولى والذين لم يقبلوا اللحاق به مدفوعين بالغيرة من أخباره. جميعهم اكتسبوا سحنات عائلة باباريل، باباريل، يا إلهي كم كانت بليدة الذهن وعنيدة! لقد كان محظوظاً، بحق. فنظراً لعمره، وكونه شارك في الحملة، وهذا من الأمور التي قد تعود بالفائدة أحياناً، فقد عُرضت عليه وراثة مستوطن قتلته الحمى بعد أن ذبح العرب عائلته. كان بناء المنزل المسقوف بأكمله بالقرميد، قد أوشك على الانتهاء مع حظيرة للحيوانات التي ما عادت صالحةً للعمل: ثلاثة جياد وبغلان، وحظيرة وبيوت ملحقة بنيت خلفها كالحصن على شكل مربع.

(1) ويقصد هنا الجزائر العاصمة.

كانت الحظيرة فارغةً ولم يشأ بويشو أن يشتري أبقاراً فوضع هنا القش والشعير والقمح بعد جرشه بانتظار تصديره وأيضاً التبغ بغية تجفيفه.

أراه الشيخ المحاريث والجرافات لفافات الحصاد والبئر وشجر الحور والحديقة. وبعيد البستان، تبدأ الأرض المحصودة وتحجب حزم الحصاد بوفاريك والجبال. ما الذي يتعيّن قوله؟ إن لديهم ثمانية هكتارات من القمح وآخر من التبغ وثلاثة من أعشاب الرعي وإنه يجني خمسة عشر قنطاراً من القمح؟ هذا لن يهم الجنرال.

ما عاد الشيخ يحسّ بحذائه العالي الذي يسحق قدميه. تقدم بخطى قوية واثقة ودار حول الحزم ليكتشف السهل والأجمات الخضر حيث تتوارى القرية، وفي مكانٍ أبعد سفوح جبال الأطلس الذي يسد الأفق، والتي ترتفع شمالاً إلى كبد السماء حتى تبدو كأنها تدخّن تحت الغيوم المعلّقة بقممها. وفجأة اكتشف أنه رجلٌ أعزل. عزا السبب في البداية إلى قميصه وياقته وقبعته، ثم تنبه إلى أن يديه فارغتان. في العادة يحمل حزامه الجلدي المليء بالخرطوش اللمّاع بيد أنه ترك بندقيته في المطبخ عندما جاء ليعلمهم بوصول الجنرال: فأمام هذا الحشد من الخيّالة المسلحين حتى أسنانهم، سيبدو هزلياً ببندقيته الرديئة تلك.

أخفى يديه في جيوبه، وخلفه وقفت فرقة للمراقبة وترجّل بعض الجنود عن جيادهم لتأمين الحماية للجنرال.

«هل تذكر ذات يوم...».

استدار الشيخ فطرفت عيناه في الشمس.

... «عندما اقترحت عليك أن تستقر هنا وأذكر جيداً أنك رفضت. لقد كانت بالنسبة إلي أشبه.»...

بحث عن الكلمة. يا لهذه اللكنة! كأنه ولد وسط الحصى. فالراء تخرج كأنها تنفجر.

«... أشبه بالنار».

نظر إلى الجنرال، ورأى شفتيه أخيراً وقد انكشفتا على رقة وجهه ونعومته، ذلك الوجه الذي لا يشبه إلاّ قليلاً وجه عسكري.

«لقد أحسنت فعلاَ، فنحن أكثر سعادةً هنا ولكن انتبه...» أضاف الجنرال وهو ينعطف شمالاً، «إنهم خاضعون لنا ولكننا لن نغيرهم البتة».

تجاوب الشيخ مع كلامه هذا بإيماءة غامضة.

– قل لي، أليس لزوجتك كتبنا نحن الاثنان؟

– بلى لها، قال بويشو.

– إذن، لم يتغير شيء، يمكنني أن أرى ذلك. ما زلت تحبها. أنتما محظوظان.

في المنزل، كانت القهوة بانتظارهما.

أين هو إذن نقيبي العزيز؟ سأل الجنرال.

«مارغريت!»، نادت الأم.

شرب الجنرال فنجانه برشفات صغيرة. مارغريت؟ آه! إنها هي صاحبة العينين الواسعتين، في لحظات تبدوان سوداوين تتوهّج فيهما النجوم، وفي لحظات أخرى تبدوان أشبه بجوهرة متقزحة بلون الصدف. عادت مسدلة رموشها مرجرجة قليلاً ردفيها خلف القامة الطويلة النحيلة لمعاون الجنرال. وضع الجنرال فنجانه وأخرج ساعته. ثم أومأ لرجاله فأحضروا الجياد. رفع مجدداً قبعته وانحنى أمام النسوة ونظر إلى مارغريت. يا إلهي،

لها أيضاً فمٌ قاتلٌ وأنفٌ... إن كانت مثل الأم عليها أن تلتهم الحياة التهاماً وليس للأب بويشو أن يبدي أيّ امتعاض. نعم لأنف الفتاة الكبرى الفتحتان القاتلتان نفسيهما. صافح الجنرال الشيخ.

«ألن أراهم ثانية؟»، تساءل في سره. بمبادرة مرحة دعوت الفتيات إلى حفل الجنرال. سيحلمن وسيحبطن. إنني ألعب بخفة دور الإقطاعي. إنه لشجاع هذا الشيخ. ولم نسميه شيخاً؟ دائماً هذا الميل لئلا نرى أنفسنا في مرآة الآخرين. يبدو لي أن جسمه قد ازداد ضموراً. فلو قضيت سبع أو ثماني سنين أخدم في الجيش كعنصرٍ عادي ثم قضيت بقية حياتي كحطابٍ فهل كانت ستكون لي هيئته؟».

تقدم في الطريق، فمشى الشيخ بمحاذاة حصانه بخطى واسعة. لجم الحصان واستدار ورفع يده مودّعاً، ثم انطلق يخبو.

الفصل الثاني

يتعرّف القارئ في هذا الفصل على زوجة الجنرال دو رواي الجميلة سابين دو سان–أوليف.

1

سكن الهواء وغطّى الغبار للحظة قافلة الخيالة. مشى الشيخ حتى أشجار القصب متأملاً سرب البرانس الحمر المرفرفة وهو يختفي في السهل. شعر بأنه وحيد قذفته زوبعة على ضفةٍ قاحلة، وفجأة سال الدمع على وجنتيه. ما هذا؟ الشيخوخة؟ لقد غدا واحداً من أولئك الفانين الذين يتلذّذون بنبش ذكرياتهم بأعين دامعة: الأولاد.. الأهل.. تلك السماء المفقودة، الشباب الهارب، نعم، أيها السيد لو كنت تعرف... أي غباءٍ هذا! لا نكفّ عن الشكوى! في تلك الأيام كنا نعاني الحرمان ولم يكن بأيدينا إلا السأم. تمخّط بقوةٍ وعاد إلى المزرعة، دخل إلى غرفته وخلع زوج حذائه وبدّل ثيابه وانتعل صندلاً وحمل بندقيته بصمت. كانت المائدة قد نظفت. اتجه إلى الفناء.

«يا محمد».

خرج البستاني من الإصطبل.

«اربط بغلاً بالناعورة. نريد أن نسقي».

لم يكن يعرف سبب حزنه في نهاية هذا اليوم المظفّر. آل باري[1]،

(1) Paris هي هنا اسم عائلة فرنسية وليس المقصود العاصمة باريس.

هؤلاء أبناء فرانش – كومته[1] الذين يربطه بهم حقل «بئر مراد رايس»[2]، ابتسموا عندما حكى لهم عن الجنرال وكأنه مصدر نفوذ خاص، وأعلمهم أنه لا يتحدّر مثلهم من دون ماض بفعل مصيدةٍ من الحكومة التي قدمت المنح لاستصلاح الأراضي الجزائرية والتخلص من المجرمين والجمهوريين. زاغت عينا الأب باري وشيئاً فشيئاً زاغت عينا الابن. كان أولئك البائسون محقّون في أن النقيب هيغون دفعهم باتجاه أفريقيا، عبيد السلطة أولئك، المنافقون الملتهمون للعرب.

«فلنترك آل باري وشأنهم... فلننتظر رؤيتهم وهم يدفنون أنفسهم في سيدي موسى...»، أدار ظهره للشمس الآخذة في الغياب ويمّم عيناه شطر الشرق. يفترض أن يكون الجنرال دو رواي الآن قد بات على مشارف الجزائر العاصمة مع فرقته من ذوي البرانس الحمر. «لا بأس، لقد جاء. وهذا يعني الكثير. أتخيّل أن العرب جميعهم ينظرون إلينا شذراً. والآن سيترددون قبل أن يحرقوا حزم حصادنا». كان محمد، الذي طاوله الإعياء، وحرصاً منه على عدم توسيخ شرواله النظيف، يضرب معوله بأناة لتحويل المياه إلى القناة. خطوط من العرق تنساب على رقبته الحليقة. اقترب منه الشيخ.

«ستهب رياح حارة، ربما هذا المساء»، قال بالعربية.

«يدري الله» (بالعربية).

دائماً الله. أكان السيد دو رواي محقاً؟ أكان يجدر بنا أن نصلي معهم؟

---

(1) Franche - comté منطقة في شرق فرنسا.

(2) بئر مراد رايس: مدينة جزائرية تابعة لولاية الجزائر وقد حملت هذا الاسم نسبة للقائد البحري الجزائري مراد ريس، وحرف الاسم ليصبح رايس.

«هذا الجنرال، أضاف محمد، أهو من يحرق الجبل؟».

وقف مترقباً الجواب. فارقت وجهه السحنة الممازحة التي ارتسمت عليه الليلة الماضية ولاح خبث ما في نظراته.

«أقلع عن هذه الأفكار. فالجنرال في الجزائر، والجبل لا يقع في نطاق نفوذه».

فجأة تذكر الشيخ الضابط المعاون. من هذا الرجل الفيل الذي لم ينطق بكلمة؟ حتى إننا لم نسمع له صوتاً. لم يعجب شكل رأسه الشيخ. «له فم فأرٍ هزيل. لقد أكل ثلاثة صحون من الدجاج وشرب بشراهة...».

طرد الشيخ هذه الفكرة، واتجه إلى الآبار. الناعورة تدور والسقّاطة التي تمنع المحور من العودة بالاتجاه المعاكس تولّد في كل مرةٍ تحتك فيها بواحد من أسنان الدولاب، دوياً أشبه بدويّ مطرقة تهوي على سندان. يرتفع الماء بالأباريق ويملأ الحوض الذي تسبح فيه الضفادع.

في أعلى سفح «دويرة»[1]، أرخى الجنرال دو رواي اللجام وترك حصانه يرعى في أجمة من العشب اليابس أسفل أشجار المصطكة الممتدة على جانبي الطريق. أتكون زيارته لمرافقه القديم هي السبب في هذا الاضطراب الذي يعصف بكيانه؟ في أول معاينة لمنطقة بوفاريك، اطلع على قوائم المستوطنين واكتشف اسم بويشو المميز جداً الذي لم يكن ممكناً نسيانه. قيل له إنه رجل مسنّ بيد أن أحداً لم يعرف إن كان قد شارك في الحملة. بعد خمسة عشر يوماً وبدافع الحشرية قرّر مراسلته، في استسلام لقوة الذكريات، أكثر مما في استجابة لوازع الصداقة. لم يندم على شيء، ولكنّ حزناً ما يسكنه. لم يبق من الأشهر الثلاثة للحملة، حتى لدى من

---

(1) مدينة جزائرية في ولاية الجزائر.

عاشها، إلا بعض الصور الضبابية. ماذا كان يتوقع؟ أن يرى الرايات الملكية ترفرف فوق الكتائب التي سيطرت على سطاوالي؟ فهو لم يجد سوى رجلٍ أشعث الشعر شائبه، متجعّد الوجه، بعيداً كل البعد عن مشاعر الأمس، على الرغم من أنه حاول في البداية قمع غروره إلا أن الأمر انتهى بقول السخافات فقط.

أدار رأسه قليلاً، إذ اقترب منه الضابط المعاون.

– «ما رأيك بالأب بويشو؟».

– بدا النقيب متردداً.

– «إنه رجل شجاع»، قال بصوته القوي.

– أكثر من ذلك. لقد بدوت لي مهتماً على الأغلب بالفتاة الكبرى. لها اسم جميل.

– مارغريت، على ما أظن.

– باللاتينية مارغريتا وتعني اللؤلؤة. آمل أن تكون قد تصرّفت معها بكياسة؟

لم يطرح السؤال إلا تبرئة لذمته ولم يسمع الجواب. كان معاونه هذا شهيراً بأنه يحب استمالة الفتيات، آه! يا إلهي، إنه زير نساء... فقد كان من الصعب جداً على الجنرال أن يستسلم بسرعة أمام الإغراءات، ولكن لا ريب في أنه كان يولي الكثير من الإهتمام لأمور الحب. وكان دائماً نصيبه الإحباط ربما لأنه متطلب جداً. في نهاية المطاف...

أرخى اللجام ومضى متمهلاً، عند حدود السهل، والفرقة تتبعه على بعض المسافة. «حسناً» حدّثته نفسه، «هؤلاء هن النسوة، لم نكن يوماً أكثر دلالاً في الحياة العسكرية. كل هؤلاء الأسياد المارشالات من آل رواي

سيستقبلوننا ببرودة عندما سنقدم أنفسنا إليهم لاحقاً...». ففي عمر تعدى الخمسين لم يصبح سوى جنرال بنجمتين، وفي نهاية الأمر يرى أن طموحه في بلوغ أعلى المستويات لم يكن متكافئاً مع جهوده. لم يسبق أن تأخر أيّ من آل رواي في الترفع عن المناصب مثله. فقد انتظر عشر سنوات حتى حصل على رتبة نقيب وست سنوات ليصبح قائد كتيبة. وبعد ثورة 48، كان تعباً عاجزاً على الخضوع لنظام جديد، عوضاً عن استيائه من الطريقة العنيفة التي تعامل بها الجيش مع الشعب، فالتمس الحصول على إجازة. وفجأة، دبت فيه القوة. فقد اندفع بحماسة للزواج وكأنه في سباق. ماذا حصل ولماذا انتزع من الدير فتاة سان–أوليف التي كانت تريد أن تصبح راهبة؟ ربما بسبب إحباطه من مهنته، أو ربما لأن الدم بدأ يغلي فجأة في عروقه. في 1850، وفي عمر الثالثة والأربعين، عاد إلى الجيش وطلب إرساله إلى الجزائر. هنا، جرى القطار سريعاً: فبعد ثماني سنوات، وعلى الرغم من أنه لم يحقق تميزاً ما فقد أصبح عميداً، وهي الرتبة التي يحملها اليوم مارشالات الحرب في 1830. فعندما لا يصل الشخص، في عمر معينٍ إلى المراكز المفترضة في الجيش، يتم استيعابه لياقةً من قبل فرقة عسكرية ما من أجل حمايته من العناصر المتوحشة الخارجة من الجيش الذين لا يوفرون سبيلاً للوصول.

2

كانت دارة الجنرال تدير ظهرها للبحر وتطل على الحدائق المحمية من الشمس اللاهبة في فترات بعد الظهر. كانت مدام دو رواي تقرأ الرسائل، نهضت لملاقاته مادة يدها له لكي يقبلها.

«لقد أعددت لك كوباً من الليموناضة. أظن أنك ميت من العطش».

تبدو السيدة دو رواي[1] إمبراطورة، بعادتها تلك بإبقاء جبهتها مرفوعة وشعرها ملموماً بعصابة بدلاً من تركه مسدلاً، إلى درجة أنه حتى زوجها الذي تبدو أطول منه بقليل، يتحاشى الاقتراب منها كثيراً عندما يمشيان سوياً بين الناس، مع أن رقة وكآبة نظرتها وطبعها المحافظ تلطف الانطباع الذي قد يتشكّل عنها للوهلة الأولى. فهي التي ارتبطت بواحد من آل رواي ووصلت إلى مستوى تحسد عليه، تبدو نادمة على خضوعها لإغراءات العصر وتركها دير الراهبات حيث لم تكن سوى سجينة، وحتى أقل من راهبة مبتدئة. هي التي كان يُنتظر منها أن تكون على مستوى زوجها تبدو مسكونة بالندم لتفضيلها الدنيا على الزهد للرب. وقد صدّق الجميع سابقاً عمق مشاعرها الروحية. ولم يكن أحد يتوقع أن تسبب لها مناسبة عادية مثل قضاء العطلة مع أهلها هذا الانقلاب في حياتها. إذ كانت كافيةً زيارة واحدة من قائد الكتيبة خلال عطلته، حتى تقع – هي التي تخشى الرجال عادةً – في غرامه، لاسيما أنه قد بدت عليه علائم الإيمان. اتكون قد وقعت تحت سطوة اسم دو رواي؟ ولكن الآنسة سان – أوليف عرفت كيف تواجه الموقف.

تمّ الزواج دون الكثير من الضجة، وبعد شهرٍ واحد: أصيبت الآنسة سان– أوليف بالجزع وهي تحرق ثيابها الدينية من أن تعاقب على تفضيلها الدنيا على الرب ولتبنيها هموماً أرضية بدل الأبدية. بيد أن فكرة زواجها من أحد المقاتلين لنصرة المسيحية في الجزائر تجعل نكوصها عن الدين أقل

(1) يؤنّث الكاتب لفظ «الجنرال» في تسمية السيدة دو رواي، ليصبح «الجنرالة» لكننا آثرنا استعمال اسمها بدلاً من ذلك.

فداحةٍ، وهذا ما جعلها، وعلى الرغم من تفضيله الشخصي الظهور في حفل الزفاف بثوبه المدني، متوهماً بأنه اختار بذلك التجرد والحكمة، فقد فرضت عليه البقاء في زيه العسكرية.

ولصدمته الكبيرة، مرت الأشهر الأولى دون أن تفسح له تجربة عروسه الدينية الناقصة أن يتذوق الفرح، بعد أن انهال على رأسه كل الجنون الذي يتطلبه النداء الرباني. وكان قد خسر بعضاً من كبريائه، لأنه كان يحسب بعد تخطيه الأربعين، أنه وبسبب قصر قامته وصعوبة تواصله مع النساء، يستحيل أن يكون محبوباً لشخصه. بيد أنه بعد التحولات التي سببتها له امرأة كانت لتكون لولاه واحدة من راهبات دير القديسة كلير، اكتشف في الزواج جاذبية لم يكن يتوقعها. وها هو بعد اثني عشر عاماً، ما زال يرغب في العودة إلى المنزل. بالطبع السيدة دو رواي لا تساعده في مهنته فهي لا تخضع إلاَ مجبرةً لأعراف تنظيم حفل أو المشاركة به لمرةٍ واحدة في الشهر، خاصة في ظل صرامة العيش في الجزائر حيث تندر فرص الترفيه عن النفس. غير أن هذه العيشة المحافظة تتوافق مع الشفقة التي يشعر بها الجنرال تجاه من يقلقهم الانتقال من الحياة الدينية إلى تلك الدنيوية. وببساطة، وبدلاً من ثوب الرهبنة، كان لدى السيدة دو رواي بعض الميل لعلوم الحب وفنونه.

«ربما تفضل أن ترتاح قليلاً في غرفتك؟».

رشفت السيدة دو رواي قليلاً ثم مسحت شفتيها بالمنديل.

– ليس قبل أن يعود الفتى غريبه مع بريده.

– ولدك غريبه... قالت السيدة دو رواي باشمئزاز.

ضحك في سرّه. فزوجته تجهل بالتأكيد سمعة الضابط المعاون: «مدفعَ

سريع الانطلاق» حسب العبارة الدارجة. إذ كان الجنرال مفتوناً بتلك الشهية الدائمة لمزيدٍ ممّا يمكن أن تقدمه النساء دوماً.. بحث عن العبارة. «زيادة الخير خير»[1]، قال في سره بسخريةٍ. وتابع يقول:

في بوفاريك، تناولنا أخيراً الغداء مع مرافقي القديم خلال الحملة، ذلك العسكري بويشو الذي حدثتك عنه مرة أو اثنتين. لقد استقر في مزرعةٍ تبدو مزدهرةً وباتت له عائلة. بناته، وخاصة أكبرهن، يتمتعن بالجمال! لقد أخبرتهن بأنك ستدعينهن إلى واحدة من حفلاتك الراقصة.

– أنت مجنون. فأولئك الأطفال لا يعرفون بعد أهواء المدينة. اتركهم في قراهم. إلا إذا أخذت على عاتقك تربيتهم.

– لا، لا. كنت فقط أريد أن أقدم معروفاً لمن بفضله...

– ... ما زلت حياً، أعرف. فتيات في حفل راقص... كم يبلغن من العمر؟

– أكبرهنّ في السابعة أو الثامنة عشرة ربما.

كان الجنرال حريصاً على إبقاء نفسه بعيداً عن النساء. فهي ما زالت ترتاب من المغامرة التي نسبت للنقيب دو رواي مع الراقصة الإسبانية أو الإيطالية، في الأيام الأولى للاحتلال. وكانت تغار تحديداً من أولئك النسوة أكثر من سواهن: فهن يتركن أثرهن بشكل أكبر في ذاكرة الرجال من اللواتي يمررن سريعاً وينسين بسرعة أيضاً. ذلك أن عدم الحصول عليهن يجعلهن وهماً لا يمكن تبديده. وهكذا تحوّلت الراقصة إلى شبه أسطورة. وربما ينسى الناس الاحتلال، بمن فيهم أولئك الذين لا يعلمون عنه شيئاً، لأنهم لم يكونوا قد ولدوا بعد، بيد أنهم يعرفون قصة الراقصةً التي ظهرت

(1) بالأصل في الفرنسية «De plus terre a terre»

شبه عارية أمام الجيش برمته.

«ثم..»، قالت بكلمات متسارعة كأنها توجّه صفعة، «لا أرغب في رؤيتك راكعاً أمام جيناتي ثانية».

انفجر الجنرال بالضحك وبدأ يمشي في الغرفة: «ما زلت تفكرين بها؟ فلو كانت ما زالت حيةً ستكون عجوزاً مليئة بالتجاعيد، من يعلم؟ ربما ستكون امرأة وقور أقعدها الروماتيزم. وربما تكون تزوجت من كاتب بالعدل...».

تردّد الجنرال.

«لا تتوعدي بشيء، هذا كل ما قصدته».

كان النقيب ينتظر في مكتب الجنرال، قابضاً على قبعته تحت إبطه، وألقى التحية العسكرية ثانية بخبط القدمين. ابتسم الجنرال ابتسامة اليائس. فقد طلب من النقيب أن يوقف تعبيرات الإحترام هذه التي يكررها من دون نهاية على امتداد اليوم والتي تتعبه. صباحاً ومساءً، أمام الغرباء وفي غيابهم. فهو مثابر على هذه الوقفة وتقديم هذه التحية في كل مرة يقابل فيها الجنرال. «ها هو رجل لا يتهاون تجاه الأعراف التي تفرضها الرتب»، كلم الجنرال نفسه. غريبٌ حقاً: إنه لا يعرف أننا في الجيش بحاجة أحياناً لبعض السلوكيات المدنية. أنا لست بحرياً. ولست بحاجة إلى أن يطلقوا على شرفي ضربات المدفع في كل مرة أصعد فيها إلى السفينة، ألا يغدو ذلك حينئذ تملقاً؟...».

«البريد على مكتبك، سيدي الجنرال».

جلس السيد دو رواي أمام كدسة الأوراق المرتبة بعناية والمرسلة من قبل رئيس الأركان. لا شيء مهماً: تبديل وحدات، تقرير عن سير

الأشغال، اقتراحات أوسمة، عقوبات على حالات السكر. سطّر القائد العام تحت معلومة بالخطّ الأحمر: عبد القادر الذي استقر في دمشق، قام بحماية مسيحيين في أثناء الاضطرابات في سوريا ولبنان. وأيضاً تعليق قصير من إحدى الصحف يعتبر أن ما حصل يؤكد تأثير فرنسا الليبرالية على الأمير السابق. مع تهنئة النفس على هذا الاعتراف بالجميل للكرم الذي أحيط به.

– أرأيت؟ قال الجنرال وهو يضرب الصحيفة بالطاولة، إن هذا الرجل لقدّيس.

– اعذرني، سيدي الجنرال، لم أفهم من تقصد.

– أقصد عبد القادر[1]، بالطبع. نعم بالطبع. غريمٌ طالما حيرنا...

– عندما يتشرف المرء بمقاتلة الدوق دومال[2]، الجنرال لامور

(1) عبد القادر الجزائري أو الأمير عبد القادر (6 سبتمبر 1808 – 26 مايو 1883)، مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة. عالم دين، شاعر، فيلسوف، سياسي ومحارب في آن واحد. قاوم الاحتلال الفرنسي طويلاً، وأسره الفرنسيون في العام 1847 وارسلوه إلى فرنسا، حيث عاني من التضييق في السجون الفرنسية حتى العام 1950. ثم استدعاه نابليون الثالث بعد توليه الحكم، وأكرم نزله، وأقام له المآدب الفاخرة ليقابل وزراء فرنسا ووجهائها. تناول الأمير كافة الشؤون السياسية والعسكرية والعلمية، مما أثار إعجاب الجميع بذكائه وخبرته، ودُعي الأمير لكي يتخذ من فرنسا وطنًا ثانيًا له، ولكنه رفض، ورحل إلى الشرق براتب من الحكومة الفرنسية. توقف في إسطنبول حيث السلطان عبد المجيد، والتقى فيها سفراء الدول الأجنبية، ثم استقر به المقام في دمشق منذ عام 1856 م وفيها أخذ مكانة بين الوجهاء والعلماء، ومارس التدريس في المسجد الأموي كما قام بالتدريس قبل ذلك في المدرسة الأشرفية. وفي عام 1860 تتحرك شرارة الفتنة بين المسلمين والمسيحيين في منطقة الشام، ويكون للأمير دور فعال في حماية أكثر من 15 ألف مسيحياً، إذ استضافهم في منزله.

(2) duc d'Aumale وهو رجل سياسة وعسكر فرنسي (1822–1897) اشتهر بشغفه بجمع اللوحات الفنية. وهو الرجل الذي وصف بأمير الدم، أرسل إلى الجزائر في العام 1840 وشارك في معركة عفرون، ثم عاد إلى فرنسا لدواع صحية، ثم مرة ثانية الى =

سيار[1] والمارشال بوغو، يتلقى أفضل الدروس في الرهافة.

أطلق السيد دو رواي تنهيدةً سريعةً ونظر إلى النقيب «هل يسخر مني يا ترى، من غير قصد؟»، تساءل في سره. ولكي يخفي قصر قامته قياساً بمعاونه، كان الجنرال يفضّل، عندما لا يكون على صهوة جواده، أن يجلس على حافة طاولة أو على المقعد. فبالإضافة إلى طوله الجلي يضع المعاون الشاب أحياناً كتفيات منفوخة يفصلها خياطه. وعندما يرتدي معاونه، هذا الرجل المفعم بالحيوية، هذه الكتفيات يصبح من العسير عليه اجتياز الأبواب. وفوق قبة قميصه المفتوحة التي تعلوها ربطة عنقه الداكنة، يبرز وجه غريبه الطويل المتّقد الوقور فإذا أضيف إلى ذلك كله شاربه الأرستقراطي الأسود كجناح غرابٍ أو كأنه خنجر بين أسنانه، فإنه يبدو مرعباً، خاصة مع تلك العنفقة[2] التي يطيلها منذ عام، والتي اتهمه الجنرال بأنه صبغها. أما جبهته، وعلى الرغم من ضيقها فهي مرفوعة تكشف عن الأفكار التي تجول في رأسه. كم يبلغ طوله؟ متر وخمسة وثمانين سنتيمتراً أو تسعين؟ يناديه الجنرال «غريبه الصغير» وأحياناً «صغيري»، كما يناديه الجنرال، ليؤكد بذلك أنه لا يلقي بالاً بمسألة القامة، وأيضاً من قبيل التخفّف مع ضابط يصغره سناً بكثير. كما أنه ما زال نقيباً رغم بلوغه الثلاثين، ولا ينسى الجنرال تذكيره كم يمكن أن نعاني للوصول إلى

= الجزائر وخاض حرباً ضد عبد القادر وسيطر على سمالا وبعدها على بسكره.

(1) Christophe Louis Léon Juchault de Lamoricière أيضاً ممن حاربوا عبد القادر الجزائري، ويعرف عنه ما قاله «...في اليوم التالي انحدرت إلى حميدة، كنت أحرق كل شيء في طريقي. لقد دمرت هذه القرية الجميلة.. أكداس من الجثث لاصقة الجثة مع الأخرى مات أصحابها مجمدين بالليل.. إنه شعب بني مناصر، إنهم هم الذين أحرقت قراهم وسقتهم أمامي في 28 فبراير 1843».

(2) العنفقة هي خصلة شعر تحت الشفة السفلى.

الرتب التافهة. الشعر، هذا ما لا يحبه السيد دو رواي في معاونه، ويداه الضخمتان الثقيلتان اللتان تبدوان وكأنهما خلقتا لحمل مطرقة أو محراث بدلاً من السيف. كيف يتدبر هذا العفريت أموره مع النساء؟ فهن لا يرين منه سوى صدره المنتفخ والحزام الجلدي الذي يظهره ممشوق القامة، من حيث يهبط ذيل سترته العسكرية ليصل حتى الركبتين؟

– أنت تضحكني. ربما الدوق دومال أو لوموريسيير... أما اعتبار المارشال بوغو قديساً؟ أنت تقول ذلك ربما لأننا كدنا نقيم له تمثالاً خلال حياته؟ هل نسيت الوحشية التي أظهرها بوغو خلال حرب 48 والدم الفرنسي الذي أراقه. إنها السياسة، أليس كذلك؟ والأمر سيان، سواء أكنا في الجزائر أم في باريس، هناك طرق لا تنتهي لصناعة الحرب.

– إذن فلننقل المارشال سان – أرنو.

نظر الجنرال إلى معاونه بسخرية.

– إنه آخر من خطر في بالي، في الحقيقة. المارشال سان– أرنو هو أيضاً توفي، وكذلك رجلك بوغو بالكوليرا. فللقدر نهايات كهذه. أتعرف ما معنى قديس؟ هل قرأت «المجد والخضوع في الحياة العسكرية»[1] للسيد دو فينيي؟

– لا سيدي الجنرال.

– يجدر بك أن تقرأه، فالكتاب صدر منذ عشرين عاماً. أتذكر التاريخ لأني تأثرت كثيراً في ذلك الوقت بالانقسامات في الجيش. وبما أننا نعيش الظروف نفسها تقريباً، فلا يمكنني أن أجزم لك بأنك لن

---

(1) Servitude et grandeur militaires، الصادر عام 1835.

تعيش ما يشبهها يوماً ما. لهذا السبب أحترم ما فعله عبد القادر. هذا الرجل لطالما تصرف بنبل. التقيته في باريس في دار الأوبرا. إنه رجل ملكيّ، يا عزيزي، بمظهره ووقاره ومحتدّه. عربيّ حقيقي. نموذج مختلف عن ذلك المسكين الداي حسين، ذلك البورجوازي التركي الصغير الذي لا يفكر إلا بملايينه. لو كان هناك رجل مثل عبد القادر على عرش الجزائر في 1830، فإنني أتساءل ما كانت لتؤول إليه الأمور... أرهقتك بمواعظي يا عزيزي. أحررك الآن. إلى الغد».

ما إن يرخي الليل سدوله، حتى ترغب السيدة دو رواي في إضاءة المنزل موزّعة المصابيح أو الشمعدانات على كل الغرف والردهات والأدراج وحتى في الغرف الأكثر خصوصية. مصروف مرتفع من الزيت والشمع. تظاهر السيد دو رواي بسعادته بهذا النور لكنه لم يخطئ في معرفة المشاعر التي تحدو بزوجته لفعل ذلك. فالعتمة مخيفة في هذه البلاد. خلال صعوده إلى غرفته التقى خادمات يوزعن الأنوار حيث بدأ المشرف على المائدة بإعدادها في قاعة الطعام التي يتناول فيها وزوجته العشاء عندما يكونان وحدهما. على الشرشف كانت تلمع أواني المائدة الفضية والكؤوس والشمعدانات الكريستال.

– أتعرفين أن الملازم أول غرييه يعتبر سان– أرنو رجلاً مميزاً؟

– أليس هذا رأي الجميع في الجيش؟

– على أية حال إنه يشبهه جسدياً، وعلى الرغم من مع أنه لا يملك هيئة ذلك الذئب الكبير بأنيابه الطويلة، فهو يقلده بعنقفته وشاربه.

– أنت الوحيد الذي يمارس الحلاقة.

- له مثل طوله ونحاته، إضافة إلى ذلك الشيء المريب الذي لا أعرفه كنهه في نظراته.
- إنه عسكري حقيقي، على عكسك. أخلاقياتك تخنقك. فأنت تفتقر إلى الحماسة في نظر مرؤوسيك، أما في نظر المعارضين فأنت تشارك البرابرة أنشطتهم.
- حسنا، حبيبتي، فلنعد إلى روارغ [1] ولنقم من وقت لآخر برحلة إلى فونتينبلو.
- أتشعر بالسأم؟

في قرارة نفسها، تعرف أنها هي أيضاً سئمة. ذلك أن زواجها لم يثمر عن طفل. وكانت أكثر معاناة من الجنرال جراء ذلك، إذ رأت في ذلك عقاباً إلهياً؛ بيد أن شغفها المفاجئ بضابط في عطلته الصيفية تحول تدريجياً إلى حنانٍ، ذلك البحر الذي يتحول إلى بحيرة راكدة بالكاد يحركها الهواء. فهي تعشق في الجنرال ما يجعله رجلاً خاصاً مستقلا له دائماً نزواته.

حاول أن يتشبث بخيط أفكاره دون أن يقلقه الحزن الذي اكتسى الآن وجه زوجته.

«عند عودتي من الحملة، ما زلت أذكر العبارة التي قالها لي أحد رجال ثورة يوليو المهمين وأثرت بي، قال لي: أنا آسف لأجلك لذهابك إلى هناك»، وعندما سألته أتعتبرها جريمةً، أجابني: لا ليست جريمة وإنما محنة، لقد كان الفتى غرييه محقاً بافتتانه بسان- أرنو. الكريه هذا هو الذي سيفرق بيننا».

اقترب من أحد المصابيحِ وأنزل الفتيل الذي يتسبب بتصاعد الدخان

(1) Rouergue منطقة في شمال فرنسا، شهيرة بجبالها الصخرية ووديانها العميقة.

واقترب من النافذة تحدوه رغبة بأن يقفز منها إلى الهضاب المتوارية التي تعلوها النجوم البرّاقة. غير أن شبكة البعوض المثبتة وراء النافذة تمنعه من ذلك، والليل لم يكن سوى هوة مظلمة. عند عودته وجد سابين تبتسم.

«هل كنت لأتزوجك لو كنت تشبه أولئك الناس؟ اخلع حذاءك وتعال إلى العشاء».

في غرفته، تذكر السيد دو رواي كيف ازدراه صديقه تالايران الذي كان يشك في قدرته على إغراء الآنسة جيناتي لأنه لم تكن له سوى كتافية واحدة. «وعائلتك أيها السيد؟» قال له وكأنه يجلده. في هذه اللحظة غمره حنان تجاه زوجته التي كانت تعتقد مثل كثيرين آخرين بأن الراقصة كانت عشيقته. وضابطه المعاون، ذلك الهيشر[1] يعتقد ذلك أيضاً. «هذا الرجل، سأؤدبه من أجلك»، قال في سرّه، «سأعلمه كيف يتخذ من السيد لوروي سان– أرنو مثالاً له. وبادئ ذي بدئ، سأشتمه من أجلك. ذلك القذر...». لقد كانت السيدة دو رواي محقة، لماذا الخضوع له؟ لم يكن يستحق إعادته إلى منصبه في الجيش بفعل أي تسوية. لو عين ذلك الانتهازي سان – أرنو وزيراً للحرب، ما كان أي من آل رواي ليخضع له تحت أيّ ظرف كان. إن ماركيز هوتبول هو الذي استقبله في العام 1850 بذراعين مفتوحتين. سان – أرنو! يا للإزعاج.

عندما عاد بالبنطال ذات الشريط والحذاء العالي الملمع، كان الفرح يضيء وجهه.

«ماذا تغديت لدى جنديك السابق هذا... ماذا قلت لي اسمه؟»، بادرته السيدة دو رواي.

(1) الهيشر: الشخص الطويل القامة الضعيف والرخو.

الفصل الثالث

في هذا الفصل يشهد القارئ حفل عشاء للضباط بدرجة ملازم أول في قيادة الأركان، ويتعرف على كل منهم، ويتابع رحلة يقوم بها ضباطٌ ثملون.

1

«سيدي الرئيس، سادتي. هذه هي قائمة العشاء ليوم السابع من يوليو 1860، في عاصمة أفريقيا: حساء الكرنب، لفيفة لحم عجلٍ بالزيت، سلطة، فطيرة، فواكه وقهوة. فالعيد الذي سيحتفل به غداً هو عيد القديسة فيرجيني. شهية طيبة سيدي الرئيس. شهية طيبة سادتي».

الطبيب الشاب المساعد الذي نصب نفسه عريفاً لحفل العشاء هذا، عاود الجلوس بفعل الضوضاء، هو بالطبع من اخترع قصة القديسة فيرجيني هذه.

«عندما نفكر...»، قال الملازم أول غريبه بصوتٍ رنان غطى على بقية الأصوات وقد اصطبغ فجأة بنبرة ممازحة اختلطت بلكنته التي يكشف بقوة عنها، «عندما نفكر في كل ما تجهله سان فيرجيني ويسعدنا أن نعلمها إياه، أليس كذلك أيها السادة؟ برقةٍ، وحنان، وبطيبةٍ كبيرة. بصحتكم!».

الكؤوس التي يتعجلون في ملئها ترتفع الواحدة تلو الأخرى وتتصادم، أما الملازم أول غريبه فيقرع كأسه بالسكين.

«أخفضوا أصواتكم قليلاً، رجاء».

لم يكونوا كثراً على مائدة ضباط سلاح المدفعية، سبعة بينهم الطبيب المساعد. جميعهم تقريباً من الشعبة نفسها: روجيه برأسه الذي يشبه الطماطم، بيكار من المكتب الثاني[1] بشعره الشديد الشقرة الذي يجعله شبه أمهق والذي يعاني من ضربة شمسٍ أبدية، الضابطان المساعدان للشعبة، سباهي[2] بالأحمر والذهبي وملازم من الزواف[3] بشارته المزخرفة الممتدة حتى منتصف ساعده، ضابط التموين دينيف الذي لا يتوقف عن الخنفرة ويلعب دور الساخر، وغريبه الضابط المعاون للجنرال دو رواي الذي يترأس الطاولة. ويمكن من الآن تخيلهم مستقبلاً وقد علت أكتافهم النجوم والزخارف المذهبة، فظّين أو مكرّشين، فخورين بأنفسهم، يخافون على رتبهم وأسلحتهم، متصلبين مثل دنيف، شكّاكين مثل روجيه أو حليمين مثل بيكار. يرشحون عرقاً داخل ألحفتهم الجوخ غارقين بالعرق يميلون لحلق شعورهم قصيرة كالخيالة أو مثل الزواف. أما قائدهم فلا يمكن التكهن بمستقبله. سلطوي بلا رحمة، له نظرة معدنية واسعة أحياناً، بتلك السمة المحتضنة. أنحف بكثير من أن يكون هذا

(1) المكتب الثاني يقصد به جهاز المعلومات في الجيش الفرنسي، والذي كانت وظيفته خلال الحرب العالمية الثانية الاستعلام عن العدو، في حين تخصص الأول بأوضاع الجيش الفرنسي والحلفاء.

(2) السباهيون هم الخيالة الجزائريون الذين عملوا مع الفرنسيين.

(3) يطلق أسم «الزواف «أو «الزواويون» على القوات التي تُجنّد محلياً للقتال مع العدو ضد مواطنيها. وتعود التسمية إلى قبيلة «زواوا» البربرية الجزائرية التي كانت تمد القوات العثمانية بالجنود. وعندما احتلت القوات الفرنسية الجزائر أسس المارشال دو بورمون عام 1830 تشكيلات عسكرية من أفراد هذه القبيلة. وقد حاربت هذه التشكيلات مع القوات الفرنسية داخل الجزائر وخارجها في معظم الحروب التي خاضتها فرنسا. ويذكر أن «زواف لويزيانا» هي قوات جنوبية حاربت مع الشمال في الحرب الأهلية الأمريكية. والزواف البابوية هي قوات أيطالية حاربت تحت إمرة فرنسية ضد أيطاليا.

الشخص ثم إنه شاخ أساساً بشاربيه المشمّعين وبتلك العنفقة والتي أسموه بسببها بالإمبراطور لأن نابوليون الثالث كانت له واحدة مثلها. زواف حقيقي هو أيضاً، عين ليقود أولئك الرجال الرهيبين الذي يعود اسمهم الى القبيلة المحاربة الشهيرة في جبال شرق الجزائر.

في قاعة الطعام، علقوا في إطار ورقة انتزعت من قصة كتبها إيطالي أسر هنا في العام 1805 والتي يقرأها رئيس الطهاة عندما يأتيه الزوار: «الجزائر هي مدينة عظيمة فوق أرض بائسة: مستعبدون في سجون الأدغال الشاقة يجلدهم حشد من الجنود دون أي إحساس بوخز الضمير، مدينة بأكملها في خدمة أسيادٍ جشعين ولعوبين. صرخات الكراهية تلاحق الغرباء أينما حلّوا. ولا يمكنك تفادي الحجارة والقذارات والضرب بالهرواة. قطعان من الكلاب الجائعة تتبع السائح مكشرةً عن أنيابها. هنا نأكل الكعك العفن، خثارة الحليب الممزوج بشعر الماعز وروثه، وحساء الشعير. في كل لحظة، عليك أن تنتظر الأسوأ. ليس هناك ما هو جيد سوى الأفيون وماء الورد...» ثم يضيف رئيس الطباخين: «ولا ننسى النساء. شهية طيبة، سادتي».

كان للحساء الساخن الذي تسبح فيه قطع الخبز رائحة الكرنب ودهن الخنزير والأوز المقدّد. انحنى غرييه ليستنشق رائحة الثوم التي تنبعث منه.

«يا لهم من رجال، انظروا»، قال نافخاً بقامته الهائلة، «عندنا في غاسكون نرفع الأنخاب طوال الوقت».

فقهقه الجميع.

«وأين كنت ظهراً، سيدي النقيب؟».

كان ذلك دينيف بعينيه الحمراوين اللتين تبدوان مفعمتين دوماً بالخوف والسخط. فهو يرفع الكلفة مع غريبه ولكن أمام الشباب يستخدم صيغة الاحترام اللازمة تجاه رئيسه. يترفعان سوياً بفارق بسيط في المسافة، هو وغريبه، وعندما لا يكون غريبه هنا، هو من يرأس بدلاً منه. فيوزع المدائح واللوم ويفرض نظاماً حديدياً. مع هذا، فهو مراوغ وتلميذ نشيط قابل لكل المهمات، شخص انتقامي لن يتحقق انتصاره إلا عندما يصبح غريبه نقيباً، ولذلك لا أوهام. فغريبه سيصبح نقيباً قبله، حصر همه بالوصول إلى لقب رئيس طاولة الملازمين الأولين وتأكيد سلطته بخطابات مؤثرة.

– حسناً، قال غريبه، أنتم تعلمون أن رئيسي ذهب لاكتشاف بوفاريك.

كنا إذن هناك حيث أكلنا كثيراً، يا إلهي».

– ما كان ذلك؟

– كنا مدعوين لدى مستوطنين بواسل. وماذا إذن؟

كاد أن يقول إنه كان طبقاً من الدجاج المقلي ثم تراجع:

«بطاطا مقلية، وكاييت[1] بالخضار».

توقف الضباط عن شرب الحساء وأطلقوا صفرة استهجان قصيرة.

«كم أكلت؟».

تظاهر الرئيس بالخجل:

«تعرفون شهيتي على الطعام. لقد أمسكت نفسي. واكتفيت بواحدة، سمينة شهية طرية ورائحتها زكية».

أصاخ دينيف السمع. هل أن الرئيس جاد أم أنه أطلق العنان مرة أخرى لخياله عن غزوة غرامية جديدة؟

---

(1) Caillettes: وجبة فرنسية تتكون بشكل أساسي من لحم الخنزير.

«لم أكن أعرف..»، قال دينيف مبعداً بصحنه نصف الملآن، «أن بوفاريك شهيرة بالكاييت، فحسب معلومات السيد هوراس فرني تشتهر بوجوه أهلها الشاحبة، والسيجار...».

قهقه الضباط مرة أخرى. ما يسمونه سيجار بوفاريك يستدعي الصورة الأكثر بشاعةً لبتر الأعضاء التي كان يمارسها العرب قديماً في مذابحهم بحق المدنيين. واليوم يضحكون لأنه تمّ الانتقام منهم بمائة ضعف. فلم يتركوا عربياً قبض عليه بتهمة ارتكاب جريمةٍ قتل من دون أن يعلقوا سيجار بوفاريك بين أسنانه.

– ما الذي أبهج سيدك الجنرال هناك؟

– إنها قصة طويلة. مرافقه القديم خلال معركة سطاوالي في العام 1830. لا أعرف التاريخ بدقة.

– التاسع عشر من يونيو، قال بيكار، بعينه نصف المغمضة. عملية ناجحة فتحت لنا الطريق إلى الجزائر.

أزالوا أحياء أولئك الذين خاضوا تلك المعركة؟

– الدليل، قال الرئيس، هو الجنرال الذي كان نقيباً في القيادة العامة للمارشال بورمو وكان حينها في العشرين.

– «أين هي ثلوج الأيام الخالية؟[1]»، قال روجيه.

ابتسم غرييه...

تلك الفتاة التي جلس قبالتها، في نهاية المائدة، وإلى يمينها والدتها التي كانت تنهض باستمرار لخدمة النقيب غرييه، شعر بأنها تنظر إليه. كم تبلغ

(1) أين هي ثلوج الماضي؟ بالفرنسية «Mais où sont les neiges d'antan!» وهي ترجمة للازمة في أغنية فرنسية بعنوان «الأسطورة الشعرية لنساء أيام زمان» للكاتب فرنسوا فيلون.

من العمر؟ سبعة عشر عاماً؟ على أي حال لن تكون أكبر سناً من ذلك. لم تكن تنقصها الجرأة. فتاة ريفية، هذا صحيح! ويحدث أن ترى ضابطاً يضع قضيباً ذهبياً واحداً، أما بالنسبة للكتافيات، فالسؤال نفسه: «لماذا ليس لديك سوى واحدة بشرابة؟». شعر الملازم أول بالإطراء، فالفتيات لم يلقين على قبعة الجنرال الثقيلة المزخرفة سوى نظرة ساهية، ذلك أنه هو من سحرهن. «أشاركت في الحرب؟» سألته الكبرى مارغريت. ليس الحملة، بالتأكيد؟ أنت تعرفين منذ متى حدثت الحملة؟ أما بالنسبة للباقي فنعم، حارب في الجزائر وفي جزيرة القرم[1]، وحتى حديثاً جداً في إيطاليا، وقد طلب منه الانسحاب منها، فالضابط لا يتوقف. هو في الحقيقة لم يفعل شيئاً: ففي اللحظة التي تشتعل فيها حرب لا يكون قطّ حيث ينبغي أن يكون. وقد باتت حرب القرم أساساً من الماضي؛ مرّ ما يكفي من الزمن على تلك الضربة التي تلقاها الجيش على يد الروس، وذلك الاستعراض بالرايات والكتائب وإطلاق أغنية جديدة.

تلك النظرة تذوق الملازم الأول طعمها كأنها خمرة، جالساً بتماسك على كرسيه، خافضاً أنفه نحو المائدة، مسترقاً النظر من وقت لآخر إلى وجه الفتاة، تاركاً نفسه يحترق بها. هذا ما يميزها عن فتيات بئر مراد رايس المتعجرفات، تلك العينان العميقتان المشعتان، تلك الشمس

(1) La Crimee شبه جزيرة القرم تقع جنوب أوكرانيا، ويحيط بها البحر الأسود من الجنوب والغرب. وحرب القرم هي حرب نشبت بين روسيا والدولة العثمانية في 28 مارس 1853، واستمرت حتى 1856. ودخلت بريطانيا وفرنسا الحرب إلى جانب الدولة العثمانية في 1854 التي كان قد أصابها الضعف، ثم لحقتها مملكة سردينيا التي أصبحت فيما بعد (1861) مملكة إيطاليا. وكان أسبابها الأطماع الإقليمية لروسيا على حساب الدولة العثمانية وخاصة في شبه جزيرة القرم التي كانت مسرح المعارك والمواجهات، وقد انتهت حرب القرم في 30 مارس 1856 بتوقيع اتفاقية باريس وهزيمة الروس هزيمة فادحة.

الساطعة فيهما، وذلك الوجه المضطرم شغفاً، وفتحتا الأنف المثيرتان. أما الشيخ المبهور، فلم يكن يرى سوى الجنرال، نجمه، وينعم النظر فيه، في حين لا تفكر الأم إلا بالخدمة. أما الفتاتين الأخريين والصبي فكانوا أصغر سناً من أن يرتابوا. لم يكن هناك سوى الخادم العربي بنظراته الغامضة، وقد حشر نفسه بالقرب من الضابط، واقفاً أحياناً خلفه لكي يراقب بصورة أفضل.

ردّ الملازم أول بغمزة وابتسامة غير بريئتين طبعاً. يمكننا أن نتهمه بكل شيء سوى البراءة. وحدّثته نفسه: «ولَمَ لا؟» وشعر بالنار تلتهمه. هل يمكن أن يدعو الجنرال الفتيات إلى حفلاته الراقصة؟ حسناً، فإن لزم الأمر، يمكنه أن يأتي لاصطحابهن في عربة تجرّها الخيول.

في النهاية، نهض الجميع. قال الجنرال للأب الشيخ: «أرني أرضك». ذهب الاثنان، ولم يتبعهما المعاون. أهي الفطنة؟ هل خشي ألا يلتفت الجنرال لمناداته، ولكن لا. محاولاً إدعاء عدم الاهتمام، انتظر انتهاءهما من الجولة، متخيلاً مدى سخرية الجنرال من العربات والمحاريث والحزم، ثم عندما رآهما يبتعدان باتجاه الآبار قرر فجأة «أرني الإصطبل، فأنا أحب الخيول». ترددت الفتاة أمام هذا الهجوم! تستطيع، من أجل تفاديه، أن تدعو أختيها وأخاها لمرافقتهما، وسيكون ذلك تماماً عكس ما أراد، على الأقل ظاهرياً. وبما أنهم من تلقاء أنفسهم توجهوا نحو الباحة فقد أوقفتهم: «ابقوا هنا، ساعدوا في التنظيف...».

تبعها بخطواته الثقيلة بعد أن قالت بنفسها ذلك «تعال...». هناك، بعد نظرة سريعة على المكان، ذهب إلى الخلف، حيث البغال. أخذ وجهها بين يديه دون أي كلمة، قبل فمها بشغف، ورفع تنورتها لكي لا يعطيها

الوقت لتشهق. كانت بلا ملابس تحتية، كانت جاهزةً. نعم، فعلاها فوق التبن، بين روائح الحيوانات والروث. كانت إعصاراً رائعاً. إعصار حمل معه كل شيء دفعةً واحدة، عاصفة برد ورعد وبرق، وبعدئذ ساد صمت مفاجئ وسقط هو من سماء واسعة مرصعة بالنجوم. صهل فرسٌ وهزت البغال سلاسلها وأغارت على معالفها. الملازم أول أيضاً سمع الخنازير تقبع بعيداً في الزرائب. أخذ هيئة جدية وفجأة قام بحركة لا يمكن تفسيرها. ركع على ركبتيه لمساعدة الفتاة على النهوض، وعندما وقفت أخذ يتحسس فخذيها وردفيها وطبع قبلة على صدرها. في تلك اللحظة، اكتشف الطعم الحلو للخروب الذي يقدم للحيوانات كتحلية ورأى سلة مصنوعة من الصفصاف مليئة بقرون الخروب الشقراء.

بعدها عاد الاثنان لتناول القهوة، هو بهيئته الجدية، وهي بوجه كامل البراءة، ثم ودع الجنرال مستضيفيه وامتطى المعاون حصانه خلف سيده، ممسكاً اللجام بيسراه، راخياً قدميه.

حدث كل شيء بسرعة.

«أتحلم، أيها الرئيس؟»، سأله دينيف، «إنني أكلمك».

قدمت لفائف لحم العجل المستقدمة من باريس، بالطبع، لأن العجول هنا تشبه الماعز، وقد أكل منها غريبه من دون أن يعي ذلك. بهذه السخونة الحساء واللفائف! هذه المرة للحلم رائحة التبن والخروب.

– يبدو أنك متعب يا عزيزي، قال له روجيه.

– أنا؟، لا إطلاقاً.

– ما هذا إذن؟ حزن؟

ضحك الرئيس. جلبة في الرواق تدل على أن النقباء بدأوا يخرجون.

إنهم ذاهبون لشرب عرق الخوخ في شرفة مقهى أبولون، في الأسفل، وتدخين السجائر، وبعدها يأوون للنوم. لا إله إلا الله. سمع النقيب غريبه صوت الآذان ينبعث من مساجد البحرية ويطفو فوق روائح ساحة ماهون[1] متسللاً إلى الفندق من نوافذه المفتوحة، مغطياً على جلبة الأطباق والأحاديث. أخرج بيكار ساعته المعلقة بسلسلة، فتحها ثم أعادها إلى جيبه. تكاد تبلغ العاشرة، وكلما اقترب الليل اقتربت معه ساعة الصلاة.

إنها الصلاة الخامسة والأطول التي تلي العشاء. بعدئذ يمكن للمؤمنين أن يشعروا بسلام الليل ثم النوم وهم يدعون رب العرب لطرد الخونة من هذه الأرض. في حال استسلم المرء لمياهها الدافئة، فسوف تمزق مساءات الجزائر روحه. يجب التشاغل عنها بالأغاني غير الدينية أو بإضاءة الكثير من الأنوار، لطرد الرب.

«أيها الطباخ»، قال الرئيس، «أحضر لنا الزجاجات، على حسابي».

فتح الطبيب المعاون بنفسه زجاجات نبيذ الكاهور الأحمر الداكن. رفعوا الأنخاب وطرطق دينيف بلسانه. بستان غامو، الواقع في برايساك[2] والذي أنشأه جوفرو الأب والابن ينتج كرمة فاخرةً، تعتّق في براميل من خشب السنديان كما فيه أثر من طعم العليق الذي خفف النقل في البواخر

(1) Patrice de Mac Mahon (1893 – 1808) رئيس فرنسا بين عامي 1873 و1879. كان يفضل إعادة الملكية الفرنسية، ولكنه أخفق في تحقيق ذلك. ولد ماري إدمي باتريس موريس دي ماكماهون في سولي بشمالي فرنسا، وهو من أصل أيرلندي. اشتهر خلال حرب القرم (1853 – 1856) بإعلانه عند استيلائه على مَلَكوف رداوبت «إني هنا وهنا أستقر». نُصِّب بعد ذلك مارشالاً لفرنسا، وفي عام 1859م أصبح دوقًا في ماجنتا. في 1864 عين حاكماً عسكرياً عاماً على الجزائر، وكانت أفشل مراحل حياته، وانتهت باستقالته. هُزم وأُلقي القبض عليه خلال الحرب بين بروسيا وفرنسا (1870 – 1871).

(2) Prayssac وهي كوميون (أصغر وحدة تقسيم إدارية في فرنسا) في مقاطعة لو (Lot) ومنطقة ميدي بيرينيه في فرنسا.

من قوته. فهو يسمى «خمر الرئيس» لأن الرئيس لا يقدم سواه. لكي يتأمل لونه الياقوتي رفعه إلى ضوء الثريا.

«لم يعد لدينا سوى إنهاء السهرة، قال دينيف. فقد تأخرنا كثيراً. أقترح عليكم المرابط».

2

أشارت ساعة الحائط في المسجد المضاء من الداخل، إلى العاشرة والعشر دقائق. الفتيان كانوا يكدسون طاولات مقهى أبولون فوق بعضها بعض. وكانت الساحة متلألئة يشرف عليها دوق أورليان فوق حصانه بقبعته ثنائية الكوز، تتذبذب خلفه أضواء الباخرة في المرسى.

ارتمى الرئيس على المقعد الخلفي في العربة التي يجرّها حصان واحد، وصعد دينيف وجلس إلى يساره، أما الطبيب المساعد فجلس أمامهما فهبطت العربة. ضرب الحوذي بسوطه جنب الحصان الذي أخذ يعدو بصعوبة.

بدت المدينة ميتةً. بين قناطر شارع باب عزون، كانت حوافر الفرس تقرقع على البلاط كالمفرقعات. وصلوا أمام مسرح أمبريال عند تقاطع نابوليون حيث البحّارة الثملون يجرون أنفسهم جراً. ولتفادي الأشغال عند الطريق الساحلي الذي يجري شقه بمحاذاة الشاطئ، أخذوا طريق ساحة بوجو. لم يكن يغطي على الروائح الكريهة المنبعثة من المخازن العسكرية والمسلخ سوى صف المطاعم والحانات المقفلة التي تنبعث منها رائحة الخمور، وفوق المنظر الكئيب ارتفع القمر الأصفر الهائل سابحاً بين النجوم. مضت العربة مترجرجة فوق الحفر وتوقفت أمام باب إيزلي

حيث ألقى الحارس ضابط الصف التحية فتفرّس فيه دينيف ليتأكد من هويته. ثم تابعوا السير هذه المرة في منطقة ريفية بالكامل بين الحقول الغامضة. بعد تحصينات المركز الرئيسي، تمتد طريق القسنطينة[1] غير المنارة عبر محطة الآغا وتجمعات مبانيها ذات الشرفات التي ما زالت في طور البناء، والتي تحيط بجانبي الطريق حتى مركز تموين الخيل وساحة التدريب العسكري.

أخذ الحصان الذي اشتري من مخلفات الجيش عند حملة تجديده، يعدو بصورة آلية، تستحثه ضربات سوط السائق العربي التي يعاجله بها كلما كبا، ليعاود الخبو متهالكاً بأذنين مائلتين. إنه حصان عربة موتى حقيقي لا يقوى على السير سوى بعربة فارغةٍ عند العودة من المدافن. كان ضوء الفانوس يشعّ على عموده الفقري الناتئ.

لم يكن قصر الآغا حيث يسكن السيد دو رواي بعيداً عندما انعطفت العربة يميناً وتسلقت طريقاً شديدة الانحدار متوقفة أمام المنزل الجزائري الذي يسمونه المربط نسبة لقبته[2]. قرع الطبيب المعاون الباب بقوة، ومن خلال الثقب أمكن رؤية وجه، ثم فتح الباب.

«تفضلوا أيها السادة».

مصباح يكشف نوره صحن الدار والنافورة. وخلف ستارةٍ، في الصالون الكبير المضاء، نهضت النسوة. لم يكن يرتدين سوى فساتين

(1) القسنطينة هي مدينة الجسور وعاصمة الشرق الجزائري.

(2) المربَط والمرابط. المُرابط هو اسم يطلق على الشخص الزاهد في الدنيا أي المتصوف وهو أيضا ولي صالح. والمربط هو الإسم الذي يطلق على القبة التي يسكنها. وتسمى المَرابط أيضاً نسبة إلى المرابطة أي ملازمة المكان وهي تسميه تستعمل في البلدان الإسلامية بشمال إفريقيا.

طويلة شفافة تظهر من تحتها صدورهن المترهلة.

أخذ غريبه مكانه على أريكة من خشب السدر ومد يديه فوق مسنديها. جاءت بعض النسوة يتدلعن قربه من الجهتين. استطلع الفتيات بنظرة ساخرة مزدرية: أديلايد امرأة هزيلة داكنة اللون؛ ليون بوجهها العريض وشعرها الأصهب الكثيف الذي يتدلى على كتفيها والتي تسمّى باللبوة، السيدة بوتيفار بوجهها ذي الملامح البورجوازية والتي تسمى بالغولة لأنها فقدت كل أسنانها، وأخريات تركن لعب الورق ودنون. لقد نسي أسماءهن. أولغا التي تجذبه بعض الشيء والتي تؤكد أن أباها كان كولونيلاً أعدمته حكومة الثورة في 48. مارست معه المتعة مرات عدة لأنها كانت ذات شخصية خاصة، وعلى الرغم من حزنها وقامتها المشوهة بعض الشيء فقد كانت تتمتع ببعض التكاوين الجميلة. هذا المساء لا تبدو على عجلة من أمرها.

تقدمت ببطء وبكثير من الكبرياء وقد ارتسمت ابتسامة على شفتيها، والتف شعرها الداكن في دوائر حول رأسها، وقد ألقت شالاً قطنياً زهرياً على كتفيها. كانت الوحيدة التي ترتدي فستاناً ضيقاً طويلاً مقصّباً بالفضة، مفتوحاً على الجانبين وعند الصدر، وقد التصق بجسدها من رقبتها حتى قدمها. بدت ملكية على نحو ما.

– لا عذراوات؟ سأل دينيف.

– بلى، قالت مدام هينورين، كيف نسيت؟ لقد وصلن للتو عبر نهر الغانج. هناك ريح شمالية عنيفة في خليج الأسد[1] فكان العبور شاقاً.

(1) خليج الأسد: جزء من البحر الأبيض المتوسط، الذي يحاذي الشواطئ الفرنسية.

من أجل العذراوات، خاض هؤلاء الرواد الجدد لهذا الماخور حربهم في أفريقيا.

«سأكتفي بأن أقول لك إنهما حبتان من اللؤلؤ، لقد بعث لي بهما وكيلي في الباليه رويال: وصلتا للتو بعد مأساة عائلية. لا يمكنني أن أعدك بشيء، فلو وجدتهما قد نامتا فلن أوقظهما».

كلمة لؤلؤة هزّت كيان غريبه. فخلال حديثه عن مارغريت قال الجنرال دو روي: «أتمنى أن تكون قد عاملتها برقة»، أو شيئاً من هذا القبيل. مارغريت باللاتينية[1]... الرقيقة، كانت كلمة السر للملازم أول. هذه الفكرة أزعجته للحظة عندما تذكر تلك الوردة الرطبة التي شمّ ضوعها بين التبن في بداية الأصيل، لأنها كانت وردةً بحقّ، متفتحةً نضرةً مخملية ممتلئة، فوّاحة بثدييها المتبرعمين كبراعم وردة.

«أنت محظوظ»، همست مدام هونورين حين عادت حاملة قنينة من نبيذ الشيري. «ستنزلان، تحتاجان إلى بعض الوقت لارتداء ملابسهما».

انحنت صاحبة الماخور على دينيف المتكئ على وسادة صغيرة وهمست له في أذنه:

- هل تحب البدويات؟ لقد اكتشفت للتو ثلاث في البرواقية[2]، يتمتعن بالجمال... وعدوني بهن لهذا الأسبوع. فتيات من عائلة كبيرة.

- مسنّات؟

لفظ كلمته بقرف واضح.

قالت: «اقتربا أيتها الفتاتان، هؤلاء الرجال يتحرقون للتعرف

(1) اسم مارغريت يعني زهرة اللؤلؤ وهو نوع من الأقحوان، ومن هنا الإشارة إلى الرقة.

(2) Berrouaghia ويقصد بها ناحية البرواقية الواقعة في ولاية المدية، على بعد 110 كلم من العاصمة الجزائرية، وتشتهر بأرضها الزراعية.

إليكما».

أدار الضباط رؤوسهم. لؤلؤتان، وصف فضفاض لهما، فقد انطوت ملامح الفتيات الجديدات على شيء ما يذكر بالمعتقلات.هل جاءتا حقاً من البلاد مثلما تؤكد مدام هونورين؟ كلتاهما شقراوان، وقد صبغت إحداهما شعرها المنسدل حتى ظهرها، ولبست قميصاً مكشوف الصدر وتنورة قصيرة، كما هي الموضة حالياً في باريس مع أحمر شفاه مبتذل. بدوتا مرتعبتان، أو بالأحرى مشدوهتان لوجودهما في الجزائر.

«أقدمهما لكم: أغاتي الأصغر، وكلاريس. اشربا مع هؤلاء الرجال آنستيّ، لكل مقامٍ...».

ابتسم الرئيس فاسم كلاريس يرده إلى الجنرال دو رواي. يقولون إنه اختطف زوجته من دير الراهبات. فهي تشبه تمثال مينرف[1] ويتخيلها هو فينوس[2]. أدرك ذلك من خلال بريق نظراتها وذلك الحزن الذي لم يسببه لديها فقط ما يسمى بؤس هذا العصر، بل لثخن رقبتها وبالضبط بسبب النمش على هذه الرقبة، وخطوط الوركين. آه! لو تشرف السيدة دو رواي على المرابط! عند هذه الفكرة الشيطانية، نهض. لا شيء يجمعها بمدام هونورين، وعلى نحو أقلّ أيضاً بالنزيلة الجديدة، بطيئة بعض الشيء وطيبة، ريفية من دون شك، وربما كانت من سان – فلور.

(1) Minerve إلهة الحكمة عند الرومان. وحي جاء لجوبيتير بأن أحد ابنائه سيخلعه عن العرش، وجوبيتير وبسبب قلقه التهم زوجته ميتيس وأولاده. فشعر بألم كبيرفي رأسه، وبأنه يقتلع، فجاء فولكان وفلق له دماغه كي يريحه من هذا الألم، فولدت حينئذ مينرف من جمجمة جوبيتر متسلحة مطلقة صرخة الحرب.

(2) Venus إلهة الحب والجمال عند الرومان.

يشعر بالرهبة من السيدة دو رواي إذ يستشعر بنبذها له. هل أخبرها السيد دو رواي عن صيته؟ ففي العادة، النساء الأكثر تميزاً وحزماً في تحفظهن يرغبن في معرفة سبب مقاومة رجل ما لهن. وهن يخفين ولو حاولن ادعاء اللا مبالاة، نوعاً من التواطؤ الخفي بحشرية تحرقهنّ للمعرفة، وإذن، يا إلهي عندما تتاح الفرصة... فأوساط الضباط تتجه إلى مزيد من التعفف، كما أن مفاجآت الحرب ستستمر. الاحتلال تمّ بالسحنات. فقاتل العرب العائد من الحملة بلون برونزي ومغطىً بالغبار يجد مكافأته في المجتمع. لا يسأل كم أذناً اقتلع وخبأ في حقيبته، لأن الحضارة تدافع عن نفسها بفمها وأظافرها، وعند الحاجة بالسيف أيضاً، بالسيف كما يقولون هنا.

هل تتحفظ السيدة دو رواي عن إظهار حرارتها لزوجها؟ يعتقد المعاون أنها تخفي شيئاً ما لا يعرف ماهيته تماماً: النظرة الفارغة الباردة، ذلك النوع من الخضوع والانتظار. «الترمّل كان ليناسبها تماماً» قال مكلماً نفسه «ثم إنها لن تكون أي أرملة وإنما أرملة ضابطٍ قتل في حرب القرم ولم تستعد جثته...». بالنسبة إلى الجنرال، آه! لا مجال للدعابة معه، على الرغم من أنه يكره الرجال المملين والمتكلفين. لا يعبر إطلاقاً عن أي عواطف عندما نجول على الفرق في البلاد. ليس هذا طبعه. ولا حتى مع المجاملات التي تؤكد التشبث به: الرسائل المتكررة، الهدايا، وأحياناً المهرجانات والضيافات من قبل الزعماء، والتي تُكرّم خلالها زوجات الجنرالات. ويمكن الاعتقاد أن السيدة دو رواي لا ترافقه إلا من باب اللباقة، فهي لا تظهر إلا في حفلها الراقص في السبت الأخير من كل شهر: تتحول كل غرف الطابق الأرضي في قصر الآغا إلى قاعة رقص وتحتلّ فرقة

موسيقية أحد الأروقة وتقام حفلة رقصٍ احتفالية لا يشرب الجنرال خلالها الخمرة البتة، ولا يقدّم خلالها سوى الليموناضة وعصير البرتقال المحليّ. مرة واحدة قدّمت الشمبانيا عند استضافة الوزير.

لا تبدو الحياة مع السيدة دو رواي مسلية. السيدة العزيزة سابين مكدرة دوماً! لَمَ لا نحاول أن نمنح وجنتيها بعض اللون، ونوقد شعلتها بدمٍ أكثر شباباً. فهل يستطيع الجنرال أن يتخيلها، على بعد مئتي متر من منزله، راهبة تصل فجراً لتمتع قواته؟ فهو من المفترض أنه انتعل خفيه ومدّد قدميه المتعبتين على كنبة لتقرأ له سابين مذكرات سان – سيمون أو ذلك الكتاب للسيد دو فينيي، إلا إذا كان قد نام. آه! لو جاءت السيدة دو رواي لتزور من وقت لآخر مدام هونورين، فأيّ حدث عظيم سيكون!.

انفجر ضاحكاً وغمز مدام هونورين، وضع كأسه على المنضدة وأشار بحركة من ذقنه تجاه كلاريس.

«بالطبع»، قالت مدام هونورين. «سأقدم لك غرفة الأمير. هيا يا فتاتي»، قالت بصوت خفيض، دافعةً إياها على الدرج. «تحركي. بعض النشاط! وكأنك لا تفهمين ما يحصل. في البداية، غرفة الأمير ورئيس النقباء...».

ثمة أسطورة – من اخترعها؟ – تفيد بأن عبد القادر، عند وصوله إلى الجزائر، تخفّى مدة خمسة عشر عاماً في هذه الغرفة. ومدام هينورين تحفظ هذا الشرف للشخصيات المهمة. تفتح النوافذ الصغيرة في «غرفة الأمير» المطلة على البحر، والتي طليت جدرانها بالكلس وزخرفت بأواني الخزف الزرق وغطت أرضيتها سجادة من الصوف الفاخر. لم يكن هناك سرير، ولا حتى تلك الأقفاص المصنوعة من الحديد الرفيع المزخرف بورود

ومرايا كما في البيوت العربية الثرية، بل فراش بسيط عريض تعلوه ملاءات جزائرية: ديكور مناسب لجواري الحريم.

وأنت، حضرة اللواء؟

آه، ما هو اسمك آنستي؟ أغاتي، كما أظن. أتمنى ألا تقلق: لن أستنفد طاقتها. قد نتبادل الحديث لبعض الوقت. على الأقل لحين...».

والتفت نحو دينيف.

«لا، قال دينيف بعينيه الحمراوين، أنا من يريد أن يمتع أولغا».

في العادة، في الأمكنة الأخرى، لا يطلب الرئيس المرأة نفسها ثانية البتة. ولكن أيّ نساء هنا! فمعظم الأحيان... وإلا عليه معاشرة زوجة كولونيل ما، حاملاً إليها أخباراً من زوجها في الحملة العسكرية، بيد أنها لمخاطرة عليه تحاشيها! هذه المرة، لم يتمكن من استحضار ذكرى مارغريت في الرائحة النافذة للإصطبل. لديه شعور بالكبت: إنها مقبلات في حين تزكم رائحة الطبق الرئيسي أنفه. سيذهب لإحضارها إلى حفلة المقبلة السيدة دو رواي بعد ثلاثة أسابيع، وبذريعة اصطحابها في جولة على المناطق الجميلة في الجزائر، سيصطحبها الى غرفة الحريم، كما يسمّي غرفته الملكية، وهكذا... هذه الفكرة هدّأت خواطره.

«لماذا تنادينني دون توقف برتبتي؟ ليست هذه سوى كنيتي العسكرية».

تخاطبه بصيغة الجمع[1] مما يؤكد أنها ما زالت جديدة في المهنة.

«انسي الأمر، لا عليك، هذا يذكرني بأشياء».

(1) يستعمل الفرنسيون ضمير الجمع في المخاطبة (vous) بشكل عام لتأكيد الاحترام أو المسافة... وفي حال استعمال ضمير المثنى (tu) فهذا يعني رفع الكلفة إما بداعي الحميمية أو بسبب عمر الآخر الأصغر من عمر المتلقي وأحياناً يكون ذلك بقصد التحقير.

يجب أن نأتي دوماً في حضور السيدة دو رواي على ذكر الرب وأن نثبت لها أننا مؤمنون لا نشبه تلك الزمر المقززة من صغار العسكريين الخارجين من الخدمة ولا شيء على شفاههم سوى الشتيمة. الدين والسموّ. نعم، ولكن هذا النفور الدائم في نظرتها؟ «إنها حماقة، قال لنفسه، مع هؤلاء النسوة لا نكفّ عن التنقل من مفاجأة إلى أخرى. لو تهديني السماء بعض الأمسيات معها؛ أسبوع يكون فيه الجنرال مدعواً لمقابلة الوزير في باريس ويتردد في اصطحابي معه. كم يلزمني من الوقت لكي أكسر تمنع رئيسة الدير هذه؟ تتظاهر بالاستغراب وتلعب لعبة الفرس الجموح التي ترفض أن تتقدم عندما تُستحثّ. ومن ثم عندما آخذها عنوة، ستطلق عقيرتها بالصراخ...». تخيلها فوق سجاجيد غرفة الأمير مضرجة الوجنتين، منتهكةً، وهي توبّخه: «ألا تكنّ أي احترام لرئيسك المباشر؟ تستبيحون كل شيء...» ثم تغطيه بالقبل وتناديه «هوصاري الصغير[1]»، هو الذي لم يكن حتى مقاتلاً أفريقياً. حذاؤه الذي لا يخلعه إلا عند النوم، لم يطلب من راهبة السانت– فلور أن تريحه منه. ففي نهاية المطاف، ألم يكن النوم بالحذاء في سرير الأمير حلم كل ضابط منذ وقت طويل؟ هل فعل ذلك دوق أومال؟ إنه شخص مميز حقاً. إقطاعي حقيقي بنظر الجنرال دو رواي.

بالنسبة إليه، كان خيالاً في تخيلاته، فقد ضجر من سلاح المشاة، وأدرك أنه لا يجب أن يعود قبل أن يحق له بحصان بوصفه نقيباً. أولاً الكتافيات المزدوجة، وبسرعة يرمي الرماد في عيون مرؤوسيه. حينئذ، وكمثله الأعلى سانت– أرنو، سيتزوج من بارونة أو كونتيسة تزيده أبهة.

(1) Hussard وتقال بالعربية أيضاً هوصار: جندي الخيّالة.

– الكولونيل دو غرييه! ليس بهذا الأمر السيء. مارشال دو فرانس، لَمَ لا؟

– «وأنت؟»، سألته.

– ماذا أنا؟

– اسمك الصغير؟

تردد. آه. ما أهمية ذلك هنا؟ له اسم من الصعب حمله ولكنه يرن بشكل جميل مع اسم عائلته: هكتور غرييه. إنه اسم يليق بالحرب أكثر مما بالعشق. بالطبع، اسم هكتور وحده، في النطاق الخاص الحميم، يرن بشكل غريب، وكأنه بوق. «عزيزي هكتور...[1]». إنه من الصعب قوله. بدا أن الفتاة تفكر بشيء ما، فهكتور يوحي باسم قائد لا يمكن لأحد تحديه وهذا ما أشعرها بالفخر. «تعال»، قالت له.

للحظة شعر بالرغبة في أن يمضي الليلة هنا، تقريباً تحت نوافذ مدام دو رواي، ثم تخلى عن الفكرة. فالحماسة تكلف كثيراً. ذلك أن كتافيات الضابط المعاون، وبقدر ما هي جذابة، تكلف الكثير من السهر والتعب. سيكافأون إلا إذا...

نهض وارتدى معطفه الثقيل وقبعته ونزل. لم يكن هناك أحد في الصالون المضاء. مدام هونورين مستغرقة في التفكير واضعة يدها على ذقنها أمام كأسها الفارغة.

«أيقظي الرجال، يجب أن نذهب».

راح يذرع الغرفة محفزاً الرجال على التحرك، ثم التقط، بطرف إصبعيه، وكأنه يفعل ذلك بالملقط، وشاح أولغا الذي كان ينزلق على الطاولة ورماه

(1) «Oh mon Hector» أي «أوه يا رجلي هكتور».

أرضاً. فقد أضاف إلى كرهه للجنرال دو رواي، ثمالة انتصار غامض. ظهر دينيف والطبيب المعاون تقريباً في آن معاً.

خرجوا، وكان القمر يهبط وراء تلة بوزريعة المعتمة وأعالي الجزائر تعكس أضواء المنارات.

هزّ دينيف الحوذي النائم في المقعد الخلفي للعربة، في حين كان الحصان يجتر التبن من جرابه.

«لا تبدو في صحة جيدة، أيها الرئيس»، قال له الطبيب المساعد.

بلى، ولكن لو...

جلس الملازم أول هيكتور خلف مقعد الحوذي، أخرج سيجاراً من جيبه ووضعه في فمه من دون أن يشعله.

«إلى المدينة، بسرعة».

الفصل الرابع

بويشو وألدبرام عندما كانا يعيشان في الجبال حالمين بالجزائر.
واكتشاف في إصطبل بويشو يفضح السر.

1

كان النهار قد طلع، عندما أفاقت ألدبرام في الوقت نفسه مع زوجها، أشعلت النار في المطبخ وأعدّت القهوة. الأولاد ما زالوا نياماً. خرج الشيخ. كان نصف السماء على الأقلّ مضاء، مصحوباً بتلك العذوبة التي لا يمكن أن تكون إلا عند الفجر في هذه البلاد. الأفق يصطبغ بالحمرة خلف الجبال المعمورة بالقبائل. لحظات تتلاشى معها كل المخاوف، حيث لا يعود المرء مضطراً إلى إصاخة السمع لمصراع نافذة أو صرخة أو ظل أكثر أو أقل سماكةً.

تلك الليالي المقمرة تهيّج البشر والحيوانات. إنها ليالي الصخب. في العلية، تجري الفئران مسرعةً، جارة حمولاتها، مصوصئة، مخشخشة، ويخال المرء لبرهة أنها تريد أن تثقب السقيفة وتهبط إلى الغرف. أما بنات آوى فتعول مسعورة مجنونة، في عدوها من السهل إلى الهضاب ومرةّ أخرى إلى السهل، متذبذبةً كغناء زيز الحصاد في عز القيظ. والكلاب واحداً واحداً، من جميع المزارع والدوارات والأحياء الفقيرة ترد على بنات آوى بعواء طويل يمزّق الليل. فتلتصق ماري ألدبرام بزوجها وتدفن رأسها بين ذراعيه.

هذه الليلة على وجه الخصوص، أفاقت على عصف الريح الشرقية

الحارة في مصاريع النوافذ. وللحظة ما عادت تسمع ضوضاء بنات آوى وكانت وجنتاها دافئتين وكأنهما يستمدّان حرارتهما من ذلك اللهيب الآتي من السهل. كم الساعة الآن؟ بالحكم من الضوء في الخارج يمكن القول إن القمر طلع منذ قليل فقط. التصقت ماري ألدبرام بزوجها وهمست «يا إلهي، يا إلهي...» ماذا يعني هذا؟ في هذا أيضاً هي تشبه العرب، الذين لا يتكلمون حقاً إلا ليلاً. يقولون ان النهار لم يصنع للكلام. مارجول يحب النار وقد بنى موقده في المطبخ، ليس حوض فحمٍ بسيط وإنما موقد حقيقي يشعل فيه الحطب في الشتاء.

حمل الأولاد اسم بويشو، أما هي فقد احتفظت باسم عائلتها ألدبرام على الرغم من أن الجميع يناديها مدام بويشو. ذلك أن عائلة ألدبرام تفتخر باسمها وتتمسك نسوتها بعد الزواج بأسماء عوائلهن لأطول وقت ممكن. وبعد وفاتها سيكتب على شاهدة قبرها: «ماري ألدبرام، زوجة بويشو»، لا «ماري بويشو، المولودة ألدبرام». كانت الفتيات الثلاث يحملن خواص ألدبرام أما الصبيّان فبالعكس، يحملون سمات بويشو: فرنسوا وبيار اللذان ساعدا والديهما في السنين الثلاث الأولى ثم رحلا لأنه تشاجر معهما، ولكن خاصة أنطوان الأخير، الذي له العينان نفسهما والمشية أيضاً والطريقة عينها في وضع اليدين على الوركين والبقاء ساعات صامتاً ثم الانطلاق في الكلام والضحك، في حين كانت فتيات ألدبرام كتومات. ولكن هل تعرف هؤلاء الفتيات العشق نفسه مثل أمهن، تلك العاصفة التي ولدت من لفحة ريح خريفية وتحولت زوبعة على امتداد الحياة؟

ثلاثون عاماً من الحياة مع مارجول ولم يخب أملها. حركاته النزقة

وموجات الصمت التي يغرق فيها ونوبات غضبه. في كل مرة يعود فيها من الحقل وتسمع صوته أو خطواته أو تصلها رائحة خبزه أو عسله أو دخانه، تشعر بحمّى حب تكاد للحظة تخنقها. بالنسبة إليها لن يشيخ يوماً، فنظرته ما زالت تذكر بعينيّ صياد ولو لم تعد تحمل الكره ممزوجاً بالحب، بل شيئاً من المراوغة المقرونة بالرقة فحسب، وعندما يضطجعان ليلاً جنباً إلى جنب، ترفع قميصها لتشعر بجسده يلامس جسدها دافئاً في الشتاء وبارداً في الصيف. أجل، بعد ثلاثين عاماً! وعندما تسمع بنات آوى تطوق المزرعة وتعوي وبعد أن تتجاوز لحظة الخوف الأولى، تتذكر بنت آوى التي أخبرها عنها مارجول والتي فكر حتى بتسميتها ماري لأنها كانت أنثى، وتتساءل إن لم تكن كل ذريته هي التي تعود لتناديه، هو مارجول، من دون أن تعرف كيف تعبر عن رغبتها الخجولة بملاطفة رجل من جديد. فهو ينام غالباً في وضعية احتواء مستكينة إذ يضع يداً حول رأس زوجته على الطريقة الإلهية باحتواء الكرة الأرضية. لقد كانت هي أرض مارجول، ومثل الأرض تركته يفلحها ويحصدها ومنحته ثمارها.

تراقب على وجهه علامات السنين: على الجبهة خطان متجعدان أفقياً وآخر عامودياً، وكأنه ندبة صغيرة على عينه اليمنى، هذا هو مارجول، العائد من الجزائر، الذي بدأت كتيبة من التجاعيد الصغيرة ترتسم على وجنتيه وشفته العليا وذقنه ورقبته لتزداد عمقاً يوماً بعد يوم. لا يبدو أن مارجول قد لاحظها، لأن عينيه الواسعتين المظللتين بالرموش الكثيفة، تغطيان كل شيء.

2

مع بزوغ النهار، يستعيد كلّ شيء حجمه الحقيقي. تغرّد الماء في الغلّاية والقهوة تُعدّ بهدوء. يعود مارجول ويسند بندقيته على الموقد، يدخل الكلب ويرخي خطمه للحظة على ركبتي ماري ألدبرام ثم يخرج موقعاً كل ما يمر في طريقه وصولاً إلى الباب.

يجلس مارجول منحنياً إلى الطاولة أمام زبديته. للحظات يبدو أن زيارة الجنرال قد أربكته، وفي أحيان أخرى يبدو أنها أنعشته. تتأمله زوجته بفضول: الرجال يستسلمون بسهولة للفرح والإحباط. فبالنسبة إليها، هي التي لم تنتظر شيئاً من تلك الزيارة العابرة، لم ترَ فيها سوى سراب آخر يضاف إلى موقدة الأحلام ويتبخر. فمارجول عاد إلى أفريقيا بفكرة لقاء جنرال في قمة نفوذه. كانت تعوزه الذرائع، لأنه في حقيقة الأمر كان راغباً في مغادرة مونتسيغور والماضي والمقابر والصخور. كان بحاجة إلى السيد دو رواي أو أيّ ذريعة أخرى... وبالنسبة إليها، لم ترَ البحر من قبل فتخيلت الجزائر بحسب وصف مارجول لها: أرض مزهوة وشواطئ محاطة بالحدائق ومربعات بيض متسلسلة متراصّة وكثبان رملية وروائح طبخ وزهور غريبة، ولكن على وجه الخصوص مياه زرقاء شفافة دافئة وقوارب محملة بالسمك. وهناك، على بعد أمتار من الشاطئ مزرعة فيها حقول من القمح وأشجار تين تحت الشمس. وتلك الحشرات الطفيلية، العرب، ألم يرَ مارجول أحداً منهم؟ أكان ما يزال لدى عودته من الجزائر ساذجاً كما لحظة خروجه من تولون؟ هل نسي أنهم يموتون من الحمى والإسهال؟ وكان يردد أنهم في غضون ربع قرن أحرزوا تقدماً بمساعدة البواخر والطرقات المعبّدة، وبأنه تم احتلال السهل وصولاً إلى الصحراء.

هنا الهضاب تخفي البحر الذي يقع على بعد عشرة فراسخٍ. لا تمكن رؤيته إلا بعين الخيال، إذ يقال: «خلف السهل، هناك البحر». يحمل الهواء أحياناً نفحة رطوبة مالحة تحمل عبق أوراق شجر البرتقال، أو في حال هبّ من الجنوب حيث تنبت نباتات شوكية تعيش فيها طيور وثعالب بلون الرمال، فسيحمل معه جفاف الصخور البيض الحارة.

قدمت له ماري ألدبرام القهوة وبدأ يرتشفها وهو ينفخ عليها. تلك الريح الشرقية التي هبّت ليلاً ستضطره على الأرجح مرة إلى سرج بغلٍ في الناعورة ثانية لريّ الأشجار المثمرة، مسكبة البطاطا الحلوة وأكعاب الكرمة بوريقاتها الزرق الكبريتة. فالأرض في الصيف تمسي جافة متشققة يصعب على سكة المحراث اختراقها. وللبدء بالفلاحة، يجب انتظار العواصف والشتوات الأولى التي يصعب التكهن بمواقيتها، غير أنها لا تأتي قبل الخريف على أية حال.

وضع زبديته ومسح شفتيه بقفا سبباته، تفرّست عيناه الصفراوان اللتان ما زالتا تمتلكان المقدرة على التأثير بزوجته، ثم مدّ يده إلى جيبه ورمى على الطاولة قطعة نقد فضية بقيمة الفرنك وثلاث قطع بنس برونزية.

– ما هذا؟

– وجدها محمد مساء أمس في الإصطبل. يبدو أنه فكر طوال الليل قبل أن يخبرني.

نظرت ماري ألدبرام إلى زوجها وقد شحب وجهه. جاءت وجلست قبالته.

– هل ذهبتَ مع الجنرال إلى الإصطبل؟

– لقد بقينا عند الباب.

أدارت القطعة النقدية بين أصابعها، نظرت إليها عن كثب ثم أعادتها.

«الملازم أول الذي يشبه الإمبراطور».

وبدوره تفحصها الشيخ ماسحاً سطحها. إنها الصورة الجانبية الصحيحة، هذان الشاربان مع لحية التيس. وفي القفا، نقش نسر بجناحين نصف مطويين بين صولجين متقاطعين.

– أين وجد ذلك، في الإصطبل؟

– في الخلف بالقرب من البغال إلى جانب سلة الخروب. ليس الجنرال هو من ذهب إلى هناك، حتى ولو ليتبول... لأني كنت معه حينذاك، كنا قريبين من البغال، وقال لي «اعذرني للحظة» وابتعد. إنه إذن الرجل الفيلماني[1]، وإذا كان قد ذهب إلى الإصطبل فهذا يعني أنه ذهب مع الفتاة. الهيئة التي كانت عليها، أتذكرها الآن: خافضةَ عينيها منطوية على نفسها صامتة، يكاد هذا المنزل...».

لم يتجرأ على قول الكلمة.

«بمَ تفكر؟»، سألته ماري ألدبرام.

ضحك ساخراً، هل خاف قول ذلك، هو؟ اهتز جسده بضحكة سريعة متوحشة. فخلال دقيقتين ربما، كان ذاك الرجل بزوج حذائه وبنطال الخيالة والسترة يشبهه في صباه عندما حشر في الحفرة المرأة التي يرغب فيها؟ ماذا إذن؟ مارغريت لديها من تتشبه به. غابة حمراء مذهّبة بالخريف أكثر إغراءً من روث الإصطبل وهو، عندما عاد من الجزائر، مشتعلاً بالكامل، آه! ها أنت...

(1) الفيلماني أي الرجل الضخم الجثة.

3

كشّت ماري ألدبرام بانزعاج الذباب الذي كان قد التصق بالخبز والسكر وعلى الزبديات والوجوه. كان عليها إقفال الأباجورات وستارة الباب، وطردها ملوحة بالفوطة.

قالت: «وماذا الآن؟».

نهض واعتمر قبعته الكتان ونادى الكلب وذهب ليقف قبالة الشمس. سريعاً نمت أشجار الدلب. وفي غضون سنتين أو ثلاث ستضحي أشجاراً حقيقية تحول طريق المزرعة إلى جادة مشجرة.

التحق بمحمد الذي كان يدير المياه في الأخاديد التي يشقّها أو يردمها بالمعول بدلاً من المجرفة.

وكأنه يشعر بالفخر لمرور السيد دو رواي أكثر من سيده نفسه إذ لم يتوقف عن الكلام عن الجنرال، الدجينينار كما يسميه. بالنسبة للاسم، كان يريد أن يعرف كيف يمكن مناداة الجنرال، كان ذلك صعباً عليه: فمن الصعب لفظ رُواي بالعربية، إنه بحقّ اسم فرنسي. وعلى أية حال، عندما سأل محمد بويشو الأب عن اسم الجنرال، إنما لأنه أراد سماع طريقة لفظه، لأن العرب يعرفون أسماء عائلات كل الرجال في القيادة هنا، العقداء والنقباء والكثير من الضباط في بوفاريك، ويريدون بذلك فقط تعريبها ومعرفة معانيها. وبالنسبة للجنرال فقد أسموه الدجينينار دو روي، ويقولون أيضاً إنه يشبه الديك بسبب قصر قامته وانتفاخ صدره والطريقة التي يمشي فيها رافعاً رأسه مع القبعة الحمراء بورقة السنديان المذهبة[1] التي تشبه عرف الديك، وبسبب نظرته التي تنطوي على شيء من السخرية.

---

(1) هي شارة عسكرية يختص بها الجنرالات.

هم لا يجهلون أن الجنرال شارك في الحملة. فهل هذا يعني أن الأب بويشو تعرف إليه هناك؟ نعم هناك، وهل هذا يعني أنه هو أيضاً شارك في الحملة؟ نعم، يا محمد... انقطع نفسه من الدهشة. لقد نزل في سيدي فرج واحتلّ الجزائر؟ نعم.

سرعان ما ندم بويشو على اعترافه هذا. فلا يجوز استحضار مثل هذه الذكريات أمام العرب. ثم لو لم يكن محمد هو من وجد القطع النقدية في الإصطبل... إذ أن العرب يملكون الخيال الأخصب في العالم. معهم، تصبح الأشياء الأكثر بساطة معقدة، إذ يهيمون في عالم المفاتن... تلك القطعة النقدية لم تسقط من السماء، لقد أحسن محمد التخمين. خلال بضع ساعات ستدور القصة دورتها في السهل والمشتى[1].

كانت تلك طريقتهم في الدفاع عن أنفسهم. بالنظرات، بالكلمات. فلفضحهم يجب جعلهم يمشون فوق الأرض، لأنهم كانوا الأرض والشجر والبيوت والطرقات وأسيجة القصب أو بعض أجمات الشجر التي بقيت. ومع التركيز يمكن تبين كل هذه الأكوام الرمادية وأكياس الفاصولياء أو هذه الحجارة المؤنسنة التي يسهل الخلط بينها وبين الأرض، الأحياء الفقيرة والأحجار الحقيقية، ولكن في الليل لو لم تحجبهم العتمة لأمكنت رؤيتهم ساجدين باتجاه القبلة في مكة؟ حينئذ تغدو الأرض برمتها مسجداً. تختفي النسوة عن الأنظار. وحتى الأشجار يبدو أنها تشارك في الصلاة.

العرب لا يقولون أبداً البتة، غير أنهم يتصرفون كأنهم لم يقبلوا شيئاً.

---

(1) Mechta هي التسمية التي استعملها الكاتب والمطابقة للفظ العربي، والمشتى وهي التسمية المعتمدة في تونس والجزائر للقرى الصغيرة المؤلفة من البيوت والأكواخ الفقيرة.

في لعض الأحايين يختفون ويتنزهون داخل خطوط حدودهم الجديدة، ثم رويداً رويداً يتخطونها ويعودون ومعهم نعاجهم ليسيطروا على كل شيء. ذات يوم، فوجئ بويشو بقطيع يرعى في تبغه. أيضاً في القش بعد انتهاء الحصاد... يكفي عقد اتفاق: أترك حيواناتك تعلف في أرضي، وأحصل في مقابل ذلك على غنمةٍ من غنماتك. ولكن التبغ أو القمح يكون في عز موسمه وخاصة أن النعاج تلتهم أطرى البراعم وتقضي على الزرع في قضمة واحدة من دون أن ترفع رأسها عن التراب... إذا كان العرب يعتقدون أن الأرض ما زالت ملكهم، فما هو القانون المنظم؟ محمد مكلف بطرد القطعان من أراضي سيده ويتقاضى أجراً من أجل ذلك كما له الحق في العيش في المزرعة في كوخه وامتلاك حديقة وريها بمياه الآبار وزراعتها مع الزبل. فكل ما يحلّ بسيده، من خير أو شرّ، يحلّ به هو الآخر، وبمعنى ما فإن زيارة الجنرال يوم أمس أشعرته هو أيضاً بالفخر.

– قطعة النقد تلك التي وجدتها في الإصطبل كان قد أضاعها الصغير خلال اللعب. وقد بحثت عنها وزوجتي مساء أمس في كافة أرجاء المنزل. إذ كنت قد تركت النقود فوق خزانة الطعام وأخذها الأولاد ليلعبوا بها. أفهمت؟

– الأولاد، ردّد محمد. يلتقطون كل شي مثل العقعق ويذهبون به، وهكذا».

في بوفاريك، بات ممكناً الحديث عن المال الذي أمسى أخيراً متوافراً. وعندما تحتاج ماري ألدبرام إلى بعض منه تدخل إلى الغرفة وتقفل الباب على نفسها، وتفتح الخزانة حيث خبّئت كمية كبيرة من القطع الذهبية، ما بقي من المنح الحكومية والتي لم ينفق سوى القليل منها، والكافية لشراء

المزيد من الجياد أو الأبقار إذا دعت الحاجة، وأبقار، أو حتى الأراضي، إذا سنحت الفرصة، أي عندما يرفض العرب دفع الضرائب[1] على الرغم من أنه بات لديهم بفضل الفرنسيّ طرقات للذهاب أينما أرادوا ودكاكين في القرى ومستشفيات وحتى تلغراف إذا احتاجوا إلى إرسال الأخبار أو استقبالها، أما السهل فهو آخذ في التضاؤل. هناك ثمن لكل ذلك.

غير أنه الآن أدرك لماذا يشعر المرء بهذا الضيق عندما يفقد شيئاً مهماً كما حدث له بالأمس عندما ترك متعمداً بندقيته في المطبخ مسنودة إلى المدفئة حتى لا يبدو مضحكاً أمام الجنرال. أما هذه المرة فنسيها. ففي العادة يحملها على كتفه ومن وقتٍ لآخر يرفعها بتلك الحركة التي ما زالت ترافقه منذ أيام الاستعراضات في الجيش. في الصباح، يطرد بها أسراب السمان من بين القش والتي تهرب هادرةً كالجرافات أو كقرد يقفز هارباً من بين نباتات التبغ سريعاً كالطير. عادة حمل البندقية بدأت في تلك الفترة التي كانت تستوجب الحماية من العرب، والتي غدت العلامة التي تميز المستوطنين. لا يملك العرب البنادق إلا إذا كانوا يمثلون سلطة المستوطنين أو الجيش، عندما يخدمون كجنود في الجيش الفرنسي[2] أو في المخازن[3] التي يديرها ضباط إداريون عرب يعرفون أنهم وظّفوا لا ليكونوا أخيلة رجال فحسب بل ليكونوا رجالاً من نسل الأقوياء.

(1) فرض الفرنسيون خلال الاحتلال على العرب دفع الضرائب وإن تمنعوا صودرت أراضيهم.

(2) Saphis وهم الجزائريون الذين جندهم الجيش الفرنسي ابتداء من العام 1834.

(3) المخزن، ويقصد بها الإدارات المغربية في عهد الحماية الفرنسية والمأخوذة من كلمة مخزن..

«إذن هل تكلمتِ مع ابنتك؟».

ترددت في الإجابة. فهو مسنّ جداً وقد نسي أن مارغريت لم تنكر الأمر. «الملازم أول حسناً... قالت بدعةٍ وبنوعٍ من السعادة: مثلك أنت مع مارجول...». إلى أين سيؤدي بها ذلك؟ «أنت أمي، وقد أودى بك الأمر إلى هنا، أنا لا أعرف بعد...». ثم لماذا عليها أن تراعي مشاعر مارجول؟ هل اهتم لمشاعرها عندما عاد من الجزائر معتقداً بأنه يمكنه أن يشتريها بقارورة عطرٍ سرقها من سطاوالي؟

– إنها أمور نسائية، قالت، لا يمكنك أن تفهمها أبداً.

– سترين.

– أمسك ببندقيته وأخذ يلوح بها.

– «اتركها»، أمرته. «لم يهدّدني أبي عندما أحببتك. أنا لا أقول إنها لم تخطئ، فنحن لن نملك الحق يوماً بإهانتك. عندما تكون في الغابة أو في أي مكان آخر، لا نعرف عمّ تبحث... فإننا نكون دائماً...»

تذكرت الكلمة التي قالتها لابنتها عندما كانت تعترف لها.

«نكون دائماً كأننا في كنيسة».

انتزعت منه البندقية بهدوء وأسندتها إلى هيكل المدخنة.

«لا يمكن حل أمور كهذه على طريقة العرب. ثم أنه مع العرب... مارغريت» نادتها.

ظهرت مارغريت منتصبة القامة متوهجة دون أي دمعة في العينين. مثل أمها تماماً، عندما تحدّت العالم وهي في العشرين من عمرها.

الفصل الخامس

عائلة باري تستقبل رجال الشرطة. المحرمات على العرب.
أورتنس تترك المزرعة خلال استراحة الظهر وترحل عبر الحقول.

1

مرحباً أيها الرجال، قال السيد باري، وهو يتجه نحو رجال الشرطة الذين وصلوا للتو وبدأوا يسرجون جيادهم في الظل تحت شجر الدردار. «يسعدنا لقاؤكم، ما الجديد؟».

– لا شيء، قال الرقيب، مقرفصاً كأنه يقوم بتمارين استرخاء. فمنذ الفجر، كما تعلم...

– ادخلوا إذن... صه سيزار!

الكلب بفروه الرملي وبطنه التي تكاد تكون عديمة اللون، يعوي بقوة، وظلّ على هذه الحال حتى وصل إلى باب وجاره ثم حوزق وسكت.

تنحى السيد باري جانباً ليفسح المجال لرجال الشرطة كي يصعدوا السلم بدرجاته الثماني المؤدية إلى قاعة الطعام، التي جعلت على هذا العلو، كما المطبخ والغرف الأخرى، تفادياً لمخاطر الطوفان. خلع الرقيب قبعته، ليبرز أكثر وجهه الضخم الذي يدل على صحة جيدة، وحاجباه المرفوعان اللذان يعلوان نظرة شرسة وأنفاً عريضاً، ثم حشر حزام بندقيته في خرجه ووضعه إلى جانبه وجلس إلى يمين الشرطي إزار. على المائدة الطويلة المصنوعة من الخشب الداكن، وضعت مدام باري أقداحاً وقنينة

نبيذ وإبريق فخار ثم مدت يدها مصافحةً رجال الشرطة. بالكاد نهضوا الواحد تلو الآخر.

«تشعرون بالحر»، قال، «فأنتم ترتدون ملابس سميكة كأننا في الشتاء، ناهيكم عن القبعة ذات الكوزين..

هذه أيضاً، قال الرقيب. إنها من الكرتون المقوىّ، ومنذ أن جعلوا لها ثقوب تهوئة باتت أخف. تلزمنا قبعة عسكرية ولكن علينا الانتظار عشر سنين، في ظلّ رتابة إجراءاتنا».

سكب السيد باري النبيذ وواحداً تلو الآخر، راح رجال الشرطة يكسرونه بالماء، الرقيب بالكاد، أما الشرطي إزار فلم يضف شيئاً ثم رفعوا الأنخاب. النبيذ الصرف هنا، يمكن أن يقتل.

قال الرقيب وهو يمسح شفتيه: «ثم أستغرب أن تكون الأحداث محدودة إلى هذا الحد في بلاد كهذه».

– هدوء؟

– الأحداث مجتمعة لا تتجاوز ما تشهده مقاطعة فرنسية واحدة، وحتى أقل من ذلك. تقريباً من دون أي حادثة اغتصاب، في حين أنه في فرقتي الأخيرة، في بوس[1]، كان ذلك يحصل دون توقف. فنحن نقوم بدورياتنا هنا لمجرد إثبات وجودنا.

«هذه العادة بإخفاء الحقيقة دائماً أو التحجّج بضرورات العمل»، كلّم السيد دو باري نفسه، فواضح جداً ما الذي يدفع بالسحلية[2] بالمجيء إلى هنا».

(1) Beauce هي منطقة فرنسية زراعية شديدة الخصوبة.

(2) السحلية يقصد بها هنا تهكماً الشرطي إزار (Ezard) وذلك بتحريف لكلمة (lezard) التي تعني بالفرنسية السحلية.

تظهر فليبين بتنورةٍ طويلة وقميص، لاهثةً قليلاً وتتوقف عند الجهة الأخرى من الطاولة، بالقرب من ساعة حائط عالية من فرانش – كومته، يضرب بندولها عالياً داخل الإطار الزجاجي. أخفض الشرطي إزار نظره للحظة ثم رفعه إليها فتورّد وجهها.

بادرتها أمها: «اجلسي قرب خطيبك».

لن تعرف فليبين التعاسة مع الشرطي إزار، الذي ينادونه لو ليزار دون وجه حق. فلا دخل له نهائياً بالسحلية، بل إنه شديد النزاهة وملتزم ومرؤوسوه راضون عنه إذ لا يتلكأ أبداً في الخدمة. ثم من المعروف أنه يأتي من قرية روكولوني في الهوت سون[1] غير البعيدة جداً عن روكيمون، ويحمل اسم السيد باري نفسه: جون كلود، ولديه اللكنة الغليظة ذاتها لأهل لتلك البلاد. إنه لأمر جدي، مع صهرٍ مستقبلي كهذا. الزواج سيكون في سبتمبر حين تبلغ فليبين العشرين من عمرها.

سحبت مقعداً بلا ظهر وجلست قربه على مسافة بسيطة إلى الخلف. وجه أورتنس الواقفة خلفها، كان على ارتفاع وجه فليبين. إنهما متشابهتان: كلتاهما لهما شعر كستنائي فاتح وجبهة واطئة عريضة وعينان زرقاوان كعيني الأب، وأنف مستقيم، وأذنان صغيرتان مثل قوقعتين، ولكن إحداهما، فليبين، تبدو متورّدة الخدّين ربما بسبب الركض أو الانفعال؟ وتبدو الأخت الصغرى أورتنس متحفظة على بعض صرامةٍ وقسوة، ربما بسبب الفم الأصغر والأكثر رقة. لفليبين أيضاً شفتان قاسيتان تفتحان على صف أسنان لامعة، ولكن نظراتها أكثر دفئاً، ربما بسبب غرّتها التي تصل حتى الرموش في حين تصفّف أورتنس شعرها إلى اليمين. أوربما

(1) Haute-Saône أو سون العليا وهي دائرة تقع في مقاطعة فرانش كومتيه الفرنسية.

بسبب السنوات الثماني التي تفصل بينهما.

قالت السيدة باري: «اشربوا، إنه العيد اليوم».

نظر إليها الشرطيون. التفتت صوب زوجها:

– إنه عيد ميلاد السيد باري: فقد ولد وتعمد في الثالث عشر من يوليو 1812، في كوزينان. ماذا لو تناولتم معنا الغداء؟

– فقط لو علمنا مسبقاً، لا نستطيع قال الرقيب وهو يرفع كأسه. بصحة سيد أجمل مزرعةٍ في متيجة[1].

– الأجمل لا، مزرعتنا ما زالت صغيرة جداً.

– ومع ذلك، فهي الأجمل...

ألمح بإشارة إلى السيدة باري والفتاتين.

تنحنح السيد باري، هناك بعض الملاكين الذين تتم مناداتهم بأسمائهم فقط، أو بأسمائهم المستعارة. وبالنسبة للجميع وللجيران وأهل القرية ورجال الشرطة والعرب، كان رجلاً مهماً وقد بدأت زوجته تناديه في المناسبات «السيد باري». وأبناؤه «أبي هو السيد باري...»، حتى هو عندما يخاطب نفسه يقول: «ماذا ستفعل، سيد باري...». فعندما جاء إلى هنا استبدل اسمه الصغير بلقب.

– ما زلت في عز شبابك، قال الرقيب، فأنا بلغت أساساً الرابعة والخمسين. آه، نسيت أن أخبركم، لقد كان الجنرال دو رواي عند المستوطن بويشو في بوفاريك أو اسم ما كهذا كما أذكر. أليس صديقك هذا؟ أعتقد أنها كانت زيارة. وقد أحدثت ضجةً كبيرة

(1) متيجة هي التسمية التي تطلق على مجموعة سهول في المنطقة الوسطي من شمال الجزائر جنوبي العاصمة. وتشتهر بخصوبة أراضيها الزراعية.

لأن الجنرال بالطبع، عندما يتنقل... حدث ذلك منذ خمسة أو ستة أيام.

– لقد كدت أنسى هذا الرجل، قال السيد باري.

– أليس رجلاً مهماً؟

– بلى، بلى. رجل قوي، يسخر بخفة من الآخرين وهذا ما كان يزعجني فيه.

ابتسم الرقيب في حين كان السيد باري يتكلم ببطء وبصوت أخنٍ بعض الشيء. فلكي يغضب... لو كانت فليبين تشبهه، لن يشهد منزل الشرطي إزار الكثير من الخلافات الزوجية.

في حقول بئر مراد رايس التقى آل باري بويشو، التي يشدّد على لفظها مع «إي» يونانية، على الرغم من أنه يجيد القراءة أقلّ منهم، بيد أنه يتمسك بهذا اللفظ كخاصية تميزه. إنه محظوظ بالمزرعة التي بنيت قبله، ولكن في بوفاريك. كان الأمر يستلزم جرأة ليتقاعد في قرية كهذه بنيت فيها مقبرة كبيرة حيث يموت الناس كالذباب. فما عدا الفتاة الكبرى التي أغرم بها ولده جان بيار والتي تنظر مباشرةً في العينين، من دون تخفض نظرها، لنسي أمر هذا الشيخ...

هز إزار رأسه. فهو ابن مزارعين فقراء، لم يرث أخوه الأكبر شيئاً مهماً من أبيه، أما الولد الأصغر فتوجه نحو الكهنوت. الولد الأول للأرض والثاني للرب والثالث للدولة، وهلّم جرا. هو الشرطي بالكاد يتقاضى ثمانين فرنكاً في الشهر شاملة الضمان، غير أن بعض العلاوات أحياناً تعدل وضعه. بعد التقاعد الذي يحصلون عليه باكراً. من يعرف؟ فلو شاءت الظروف، قد ينتهي به الأمر هو أيضاً مستوطناً.

«حسناً» قال الرقيب واضعاً كأسه على الطاولة بشيء من الصلف، «فلنذهب».

نهضوا جميعاً ونزلوا.

«كبرت أشجار الجوز»، قال إزار.

توقف السيد باري وراح يتأمل الأشجار المزروعة في صف واحد أمام الباب والتي حملها من فراش – كونته ولفّت في أكياس الخيش. إنه من قبيل العادة ألا يتزوجون دون أن يزرعوا شجرة جوز، وإن رحلوا عن البلاد يحملونها معهم. كما حملوا من المنزل أيضاً البندول والمقاعد والسرير الزوجي وخزانة من خشب الجوز الحقيقي وصندوقاً. أما بقية الأثاث، أي الطاولة ومنضدة الطعام والكراسي فيدينون بها لنجار سيدي موسى.

انتظر الشرطي إزار إلى أن امتطى الرقيب فرسه، حتى حذا حذوه، معدّلاً قبعته ذات الكوزين وملقياً التحية. وانطلقوا متهمّلين تحت الشمس في الزقاق الذي يؤدي إلى الطريق، على مسافة مائة مترٍ من هنا حيث تتقاطع مع شجرة البرتقال الصغيرة.

«إنه رجل مناسب لفليبين»، قال السيد باري، «أنت محظوظة».

لم تجب. لدى إمعان النظر فيه يمكن ملاحظة رقة تقاسيم وجهه ونظرته المتفكرة التي تجعله يبدو مشدوهاً شبه حزين، لاسيما حين يبدأ فجأة بمداعبة جلد محمل بندقيته أو مقبض سيفه. بشعره القصير الذي يظهر مبعثراً عندما يرفع قبعته، وفمه الذي تتذكر رقته في المرات النادرة التي قبلها فيها، قالت لنفسها إن بإمكانه أن يكون حفار آبار أو مساح أراضٍ أو مساعد كاتب عدل. ذلك أنه يجيد القراءة والكتابة وهذا ما يمنحه قابلية للارتقاء.

2

يعود السيد باري بوجه شبه منقبض.

«المتشدق المروّع»، قال للكلب.

ولطمه في أثناء مروره به، أشبه بلكمة يدٍ تظاهر الكلب حيالها بعدم الاهتمام.

فسيزار موجود هنا أساساً لهذا الغرض. أحضره «مفتاح» يوماً إلى هنا وكان ما يزال جرواً صغيراً. في البداية تردد الأب: كلب عربي... بيد أن «مفتاح» أصرّ على مزاياه: كلاب القبائل تحرس الأكواخ وكأنها جواهر. فروها خشن ملوث بالغبار وبأوساخ المكان التي ينامون وسطها، وضلوعها ناتئة وأسنانها منخورة، تعوي بغضب ونباحها أجش مرعب. يقول الأب إن كون الكلب عربياً فقد يبدي تسامحاً مع العرب، أو ربما العكس بسبب اسمه، سيزار. ولكي يرفع من قيمته، وبشكلٍ ما غيّر عرقه، لم يبقِ لديه أي شيء مشترك مع الكلاب العربية ولم يعد يعرف سوى «مفتاح» وعائلة السيد باري. أما الآخرون فإن استطاع، ربما لأنه يتذكر أن العرب يحتقرون الكلاب، لكان التهمهم. وعندما يأتي رجال الشرطة، يبدي ردة الفعل العدائية نفسها، ويمكن وصفها بالكارهة في الحد الأدنى. فمع حارسٍ كهذا، مارق كهذا، يمكنهم النوم قريري العين. وليلاً، عندما يفكون طوقه يبدأ بالدوران دون توقف حول المنزل وحزم التبن، بنظرة شرسة وفم لاهث. من يحبّ هذا الكلب؟ يمكن القول لا أحد، لأنهم لا يتوقفون عن التنكيل به بقسوة، ما عدا أورتنس التي تحضر له طاسة الحساء التي يسرع إلى التهامها. لا يمكن المزاح مع حارسٍ أو عسكري سوى بكثير من الفطنة. فقد يبدو مفتاح أحياناً كأنما يتبادل معه

نظرات متواطئة ويكلّمه كرجل. ويبدو أن الحيوان يسمعه مالئاً جمجمته المسطحة بالأفكار.

في أعلى الدرج، تحت ما يدعونه تفخيماً مظلة باب، في حين أنها ليست سوى ألواح معدنية تحمي من المطر وخاصة من الشمس، توقف السيد باري بحاجيبه الغضين وشاربيه الرماديين اللذين يغطيان شفته العليا، وبقبعته العالية، ولحيته التي تحتلّ نصف وجهه لأنها لم تحلق منذ أربعة أيام، وتلك الخطوط تحت الذقن الخشنة، وقد غطى جسده بأوفرأول أزرق. يتكئ على الحاجز لجهة طريق الجزائر التي يمكن تخيلها في آخر المرج وحقل البرتقال من خلال الأشجار على جانبيها.

شيئاً فشيئاً، ما عادوا آل باري. اليوم، عندما ينظر الأب إلى أولاده يهز رأسه ويتباهى بتحدره من البيرغوند[1]، بسبب اسمه الذي كان يكتب قديماً حسب المدرّس، مع توكيد على حرف «أ»[2] في باري، وهو ما يوازي تماماً التوكيد على «إي» في اسم بويشو. إنه عرق رجالٍ عريقين وأقوياء وصبورين يتريثون في كلامهم ومشيتهم، ولكنهم قادرون بلحظة على الاشتعال والانطلاق. جان بيار وفليبين وأورتنس بورغونديون مثل الأب أما الأبناء الآخرون فيشبهون آل باري بطولهم ومسلكهم وعاداتهم: لا تطابق.

ظهرت أورتنس صاعدة الدرج وارتمت على الطاولة، مخبئة وجهها

---

(1) Burgondes ينتمون للشعب الألماني وأصلهم على الأرجح يعود إلى النروج أو جزيرة بورنهولم الواقعة في بحر البلطيق.

(2) يستعمل في اللغة الفرنسية فوق بعض الحروف ما يسمى accent circonflexe وهي حركة للتوكيد، وهنا تأتي فوق حرف a فتصبح â، وهنا يجري الكلام عن اسم الرجل Pâris.

بين ذراعيها وهي تشهق:

«ما بك».

وصلت فيلبين في أعقابها.

«لم تسمع مني، لقد ذهبت».

اقتربت الأم التي كانت تضع مفرش الطاولة، وهي تحمل الفوطة في يدها:

– أين؟

– لا أعلم. كانت تمشي في خط مستقيم.

– آه!، قال السيد باري الذي دخل إلى الغرفة، أنا لا أريد شيئاً من هذا.

– لماذا؟ سألته أورتنس، بوجهها الذي امتلأ فجأة بالدمع، مزيحة جانباً بحركة مباغتة إحدى خصلات شعرها.

– لأن الفتيات لا يذهبن أبداً بمفردهنّ.

– لماذا؟

– هكذا. لأن هناك العرب.

– أنا أذهب أساساً مع مفتاح.

– مفتاح أمر آخر.

– نحن نعرفه، قال جان بيار، آخذاً أخته بين ذراعيه وطابعاً القبلات على وجنتيها.

ابتسمت، فهي تحب أخاها هذا لأنه وسيم تضيء الرقة وجهه. فهو طويل مثل أبيه وإنما من دون قسوته، مع بعض مكر يرتسم أعلى أنفه ووجنتيه. الشقيقان الآخران، ديزيريه وفرنسوا جلسا بعينين متورّمتين من

النوم بعد أن سويا قميصهما تحت أحزمتهما. في بداية هذا الصيف وكل مساء يتولى الأبناء الثلاثة حراسة حزم الغلال، وينضمّ إليهم الأب لبعض الوقت ليلاً.

يجب الحذر من العرب فلديهم عادات بربرية ولا يحترمون شيئاً، ولاسيما الفتيات. فليبين كانت قد شرحت ذلك لأختها التي سألتها لماذا إذن جئنا إلى هنا. نعم لماذا؟ عشرون هكتاراً لكل ساكنٍ، في حين أنه هناك بالكاد يحصل المواطن على ثلاثة أو أربعة. هنا الأرض بكرٌ بالكامل وتنتج مرتين أكثر ثم أن تربتها ليست لزجة أو كما يسمونها هناك «رطبة» حيث كان عليهم هناك الانتظار أيام وأيام لكي يتوقف المطر حتى يتمكنوا من العمل فيها. عند العرب، تعيش النسوة منفصلات عن الرجال. ويقال إن الرجال يمكنهم الحصول على ما شاؤوا من النساء حسب ظروفهم. ولكن ليس «مفتاح» بالطبع فهو فقير جداً. ومن أجل الحصاد، ينزل رجال القبائل من الجبال ويحاصرون مزرعتهم. ولا يسمح حينئذ إلا للأم في هذه بالذهاب حتى قن الدجاج. على أية حال الأم تقول إنه حتى زوجة مفتاح نفسها تختبئ في كوخها. فأولئك أناس متوحشون.

«كفى أسئلة»، قال السيد باري. «اجلسوا إلى الطاولة! في يوم كهذا تكون الأسئلة...».

3

انزلقت أورتنس على طرف السرير متحاشيةً صرير أوراق الذرة التي نجّد بها اللحاف[1] ونهضت. كان للغرفة رائحة آل باري الحميمة، حادة

(1) كان من الشائع استعمال أوراق الذرة في حشو اللحف في ذلك الوقت.

بعض الشيء، رائحة الزيت الذي تدهن فيه الأم الشعر والخبز الذي يوضع في أكياسٍ من الكتان المعلق في المطبخ ورائحة طين أباريق الفخار. فتحت باب المطبخ ثم أقفلته وهي تحمل حذاءها، وأخذت قبعتها القش عن مقعد في غرفة الطعام التي شرّعت مصاريعها وخرجت. جلست عند آخر درجة من السلم تعقد رباط صندلها. لا يمكنهم هكذا أن يلوموها لأنها خرجت حافية أو حاسرة الرأس...

في الخارج ما زال الدخان يتصاعد من المدخنة؛ نار دون لهب مع صوت طقطقة حاد وخاطف: أوراق الجوز ورائحة سيزار تحت الدرج ورائحة الدجاج الذي يحفر في التراب ورائحة الحظيرة التي كانت بوابتها مقفلة. تهب نسمة محملة بعبق البرتقال والقرميد الساخن، أما رائحة الشمّر فربما تأتي من البحر. لمَ لا تذهب حتى الهضاب التي تخبئ خلفها البحر؟

توجهت أورتنس في البداية نحو الآبار والحديقة ثم بدّلت رأيها. سيأتون إلى هنا بحثاً عنها. عادت أدراجها ودارت حول المنزل في الاتجاه المعاكس ووصلت إلى الجهة الأخرى حيث الإصطبل ودخلت بين صفوف العنب التي زرعت بكرمة من فرانش - كومته، ربع هكتار ربما كتجربة كما قال الأب، لأن آل باري يأتون من بلاد الكرمة أصلاً. أكياسٌ مربوطة على أوتادها مليئة بعناقيد صغيرة خضراء: عليها أن تباعد القضبان القوية المقوّسة التي تحمل العناقيد والتي تمتد أحياناً من صفٍ لآخر إذ لم يتم بعد قطافها. ينتهي حقل الكرمة عند شجيرات سروٍ ما زالت جدّ صغيرة، ويبدو أن فروعها الخفيضة تعاني الجفاف، فهي بعيدةٌ عن الآبار ولا تنال غالباً كفايتها من الريّ. بعد ذلك، يبدو السهل وكأن لا حدود

له سوى الجبال التي يمكن منها أن تطل على البحر، وفي الجهة المقابلة هضاب السهل. ويمتد حقل محصود تغطيه طبقة قش، تراب أصفر جاف تتوزع فوقه حزم من الشوك الأبيض المحصود والمتروكة في مكانها، حيث يتقاطر نملٌ كبير أحمر، العسكر كما يسمونه تمييزاً له عن النمل الصغير الذي يجري بسرعة ويتقاطع بطريقة موتورة ولكن رغم ذلك يمكن أن يتعارف ويتلامس بقرون استشعار وأحياناً يساعد أفراده بعضهم بعض لجر الحبوب أو الحشرات الميتة. ويقال إن نمل العسكر الأحمر يؤمن أيضاً النظام لدى النمل عامةً وينظم فوضاهم الغريبة ويعالج حالات التمرد ويحمي الجحور.

ترددت أورتنس إذ كانت تميل للذهاب من جهة سياج القصب المحيط بالحديقة، والمؤدي من جهة الشمال إلى طريق الجزائر ومن جهة اليمين إلى مزارع أخرى غير معروفة باتجاه البحر. ولكن عليها أن تتحاشى سلوك الطرقات حتى لا تلتقي العرب إذ تراهم يمرون غالباً من هنا عندما يأتون للبحث عن عمل، بأشكال لا يمكن تحديدها وبوجوه داكنة تشبه وجه مفتاح، والذي يبتعدون مذعنين عندما يطردهم الأب. يدورون، ثم يتوقفون مرةً أخرى وينظرون باتجاه المنزل والأشجار، ثم يختفون وراء القصب.

لماذا لا يجب أن تبقى بالقرب من مفتاح، عندما لا تكون برفقة أختها؟ يبتسم لها مفتاح ويمسك بيدها يساعدها لاجتياز جدول الماء ويطلب منها ألا تبقى في الشمس. مرة وضع على رأسها قبعة قبلية كبيرة مصنوعة من سعف النخيل المجدول، متفتتة، متكسرة الأطراف. وعندما رأتها فليبين نزعتها عن رأسها وأعادتها بكلمات عربية فظة إلى مفتاح. وأيضاً أولاد

مفتاح لم يكن يحق لهم باللعب معها. تتخيلهم يختبئون محترسين خلف أشجار التين البرية ثم تسمع أمهم تناديهم. مرةً رأت الصبي النحيل الأسمر، ذا العينين السوداوين النافذتين يخرج من كومة خرشوف خارج الحدود المرسومة له هو أيضاً، ثم هرب مثل ابن آوى عندما استدارت صوبه. لأن جان بيار يخبرها عن اختباء بنات آوى غالباً بين القصب وأحياناً حتى بين أشجار الكرمة وتهرب مع طلوع الفجر الذي يفاجئها في اللحظة التي تقترب فيها لتشتم عن قرب رائحة المزارع.

هل يشبه العرب بنات آوى؟ ألهذا السبب يمنعونها أيضاً من الاقتراب منهم؟ هل يعضون ويطلقون كما بنات آوى في الليل عويلاً ما عاد يخيفها لا بل يهدهدها، كصوت البحر؟ جان بيار يقول إن بنات آوى ليست شريرة وإنها جبانة. لم يقتلها إذن؟ جميل ابن آوى بثوبه الرمادي المائل إلى الزرقة.

لسعها إحساس خاطف بالخوف. ماذا لو التقت أحدهم الآن؟ راحت تطمئن نفسها. فالضوء الذي يعم الأرض يطرد بنات آوى والعرب أيضاً الذين ينتظرون هبوط الليل حتى يتحركوا. من جهة أخرى، وكلما اقتربت عبر القش وخطوط النمل المهاجر، يزداد صدح الزيزان البعيدة، كأنه آت من الشمس أو من مكانٍ سري، قوة. وسرعان ما أدركت أن الصوت ينبعث من غابة الزيتون التي تتراقص أشجارها في القيظ وذهبت باتجاهها. تفادت نباتات العنّاب الشائكة واجتازت ممراً صغيراً حيث لاحظت بين الغبار آثار أقدام بشرية وحوافر حمير، وبعض الكتل من روث الأغنام.

وبعد حقل واحد وصلت إلى أشجار الزيتون. هذا الحقل، من المفترض أنه يخصّ العرب. ابتسمت، سوف تقول لجان بيار بأنها قادرة على التمييز

بين أراضي العرب وأراضيهم هم: فهنا القش أقل كثافةً وأعلى، ويبدو فيه النمل منتظماً في أسرابٍ أكثر تلاصقاً.

لكي تصل إلى أشجار الزيتون، سيكون عليها اجتياز خندق مائي جاف نبت فيه الشوك بدلاً من الرمل والحصى. فعندما تمطر تتجمع مياه الجبال في السهل، وتتضخم لتصبح جدولاً من الوحل يتفجر ويمضي باتجاه النهر إذ انها تعرف أساساً أن هناك نهراً قريباً يصب في البحر. يبدو أن صدح الزيزان المكتوم يخرج من الأشجار ويسقط فوق الأوراق اللماعة الساكنة، ومثله ضجيج السماء والضوء. كان الظل رطباً والأرض مليئة بالأحجار نصف المطمورةٍ والمتوجة أحياناً بخزف رسمت عليه نجمة زرقاء. غابة حقيقية، زورق يرسو عند شاطئ الشمس ينبض بحياةٍ محرّمةٍ تبدو فجأة مشرّعة على وسعها عبر مساحات الضوء مع منزلها، العربي بدوره، الواطئ من دون سقفٍ، تعلوه قبة كلسية بيضاء.

جلست أورتنس تلوك عشبة يابسة وتفرك بين أصابعها سويقة نعناع بري، إذ كان لديها متسع من الوقت، ففي المزرعة ما زالوا نياماً غارقين في استراحة ما بعد الغداء. يمكنها أن تتذوق رقة الظل قبل أن تكمل مسيرها تحت الشمس باتجاه الموسيقى التي تسمعها بين استراحات نشيد الزيزان، لأن غناء الزيزات يتموج هو الآخر، يتكسر أحياناً على الصخور وينزلق فوق شاطئ ويتبدد ثم يعود أقوى كهدير البحر الذي سمعته وهي على متن الباخرة التي جاءت بها، ثم في الجزائر العاصمة. وأعلى من صوت الزيزان يصلها الآن صوت حزين لم يحدثها أحد عنه، صوت طبول ومزامير.

من المعروف من أين تأتي بنات آوى وأين تمضي أوقاتها في الليل تحت النجوم، ومعروف أيضاً أن العرب يتمشون مثل النمل في ظل القصب

والعنّاب ويزرعون التين بالقرب من بيوتهم ويعتمرون مثل مفتاح قبعات من القش، ولكن ما ليست معروفة هي الزيزان: مزاميرٌ وطبولٌ وراء هذا الصفير الذي يصبح صاخباً وصولاً إلى أشجار الزيتون ثم يتلاشى مع الاقتراب من السهل الفارغ الملتهب، في نشيد يشبه نشيد حصادي القبائل في الموسم الذي يصبح فيه كل شيء خلاله محرماً على أورتنس، حتى رؤية مفتاح إن لم يأتِ حاملاً الماء كما العادة إلى المطبخ. فعندما يشارف النهار على النهاية، يعقد عادة أهل القبائل حزم القمح وسنابل الشعير بشرائط من القصب ويشكون مناجلهم في خصورهم ويشربون دفعة واحدة من دون أي نفس ويعودون جماعةً خلف عازف المزمار. وعادة ما يخرج الأخوة باري في هذه اللحظة ويصرخون «ها هي». مرة إضافية يخرجون للبحث عن أورتنس. ماذا هناك، حسناً إنها هنا، خرجت ببساطة إلى مظلة الباب عند أعلى الدرج وتمسكت بالقضبان الحديدية وجلست تنصت. يعلو صوت الغناء وسكينة ما تخيم على السماء ويمسي الجبل أكثر حلكةً. ويتوقف العرب عند حدود بستان البرتقال بالقرب من الحزم المكدسة لينزلوا ما تبقى في العربات التي تجرها الأبقار. وبعدها بقليل تصل رائحة النار ثم رائحة الفطائر المشوية على المواقد الحجرية والأطعمة التي تطبخ في قدور من الطين. وعندما تغيب الشمس يتوقف الغناء، وكأنما الزمن يتوقف. تصيخ الأم السمع: «ها هم يصلّون». ثم بهدوء يعود الغناء يرافقه قرع الطبول كما في السابق. إذن كل الأرض تتحول في الليل مع سحر النار وزعيق العصافير والرجال المضطجعين أرضاً يراقبون النجوم.

توقفت أورنتيس فجأة أمام الحيوانات التي أخذت تخور أمامها بفروها المتسخ الشبيه بفرو سيزار، ومن دون أن تقترب انتصبت هزيلة

على اقدامها وأطلقت عويلها العنيف أمام سياج من شجر التين البري. لو كانت بنات آوى لهربت وهي تعوي شاكيةً. رغبت في التقدم لكنها فضلت الانتظار فقد علمتها فليبين ألا تتحرك عندما يهددها حيوان، ولو كانت كلاباً فهي تعوي لتخفي خوفها، هذا أيضاً تعلمته. بعدها ظهر صبيان شبه عراةٍ يشبهون مفتاح ثم اختفوا. اعتقدت أنها ستجد نفسها أمام غناء المزامير والهتافات لكنّ رجلاً خرج من سور مصنوع من الأشواك، تجمد مذهولاً للحظة، ثم رمى حجراً على الحيوانات ومد لها يده، ليهبّ هواء خفيف حمل بعض الغبار، فيحدث أحياناً أن تهب نسائم من الشمال وتكون قد تلاشت لدى وصولها. فالكرة الأرضية هي أيضاً تهتز بالطريقة نفسها التي تهتز بها الجياد للتخلص من الذباب الذي يلتصق بجلدها أو يلسع خواصرها أو أفخاذها.

أفاقت فليبين قافزةً متفحصةً تحت الأسرة وأعادت البحث مراراً مصدّعة البيت بصراخها. ففي غضون ساعة، لا يمكن لأورتنس أن تبتعد كثيراً، على الأقل لن تكون قد خطفت.

أسرج الأب عربته ذات العجلتين وانطلق ليعلم الشرطة وكل المزارع على طريق القرية. في حين بقيت الأم وابنتها في المنزل وذهب الأبناء إلى قبيلة زواوي، حيث يتوجه الجميع ليعرفوا مثلاً كيف اختفت بقرة ولماذا يحوم غريب حول المنطقة.

«هل تعلم بمكانها؟».

رد مفتاح بتعبير عاجز. هذه الفتاة أرادت دائماً ان ترحل عبر الحقول. *أليش*، لماذا؟ من أجل لا شيء؟ هكذا. وعادة باتجاه العرب، في عكس

الطريق المؤدية إلى القرية.

– لماذا تحمل البندقية، لا ضرورة لها. لو رآك الناس، فسيخافون منك. ولن يعرفوا ما يقولون.

– أتركني، قال جان – بيار. سأحمل البندقية، لأنه لو مسّ أحدهم الفتاة...

هزّ «مفتاح» رأسه. من سيعتدي على طفلة؟ فقط مجنون أو ثمل، أي من أولئك الناس الذين لم يتأقلموا جيداً مع البلاد وليس عربياً. ولكن لا يجدي النقاش نفعاً مع هؤلاء الرجال. فهم يبنون تصورات لا علاقة لها بالحقيقة. جاؤوا من خلف سيوفهم وعرباتهم التي تنقل الحيوانات والبشر إلى الجبل. هو بقي هنا، لأنه ولد في السهل ولا يريد أن يغادره. وقد وجدته عائلة باري هنا، الباريس كما يسمونهم. اسم مثير للاهتمام: على اسم عاصمة هؤلاء الرجال، المدينة التي يكلمون العرب عنها وكأنها مكة المقدسة في حين أن ليس بينهم من يعرفها.

«تعال»، قال له مفتاح.

من غير المفيد البحث عن الآثار. فالأرض في الصيف لا تحتفظ بآثار الأقدام. ربما يعرفون شيئاً لو قصدوا مباشرة إلى عائلة زواوي. فمنذ الأمس وهم يحتفلون بتطهير أحد صبيانهم. ومن الكلمات الأولى التي تبادلها معهم علم أن الفتاة لديهم مع النساء. مشى باتجاه المنزل يقوده إليه صوت المزمار وقرع الطبول والزغاريد. قديماً كانوا يطلقون نار البنادق لرائحة بارودها اللاذعة وصوتها القوي، ولكن اليوم وبما أن الأسلحة النارية باتت ممنوعة على العرب، فقد استبدلوها بالموسيقى.

«أرأيت؟»، قال له مفتاح.

لقم جان بيار سلاحه وأراد الانطلاق.

«جميعهن نسوة وأنت رجل، لن يحق لك بالدخول. تراجع».

دفع به وقفز بسرعة إلى الباحة ثم إلى الغرفة من حيث تخرج صيحات الفرح. كانت النسوة جميعاً تقريباً متحلقات حول امرأة تتزعمهن، إنها خالة بطل هذه الحفلة وقد تربّعت فوق حصيرة، واضعة دربكة بين فخذيها تقرع عليها بقوة وتغني، في حين تدور النساء الأخريات حولها هازات أردافهن وبطونهن. وفي الساحة، ومن خلف باب، يرافقها عازف المزمار.

رأى جان – بيار في لمح البصر الراقصات المحجبات بالأوشحة وقد بدل الفرح ملامح وجوههن السافرة، ونساء أخريات تمددن على الحصيرة مع أطفال على أثدائهن، مجموعات صغيرة منتشرة في كل مكان. في النهاية، إنها حفلة ككل الحفلات التي ينظمها أولئك الناس بمناسبة وبغير مناسبة. ولكن عندما اكتشف أخته الصغرى أورتنيس، هناك، بالقرب من صينية الحلوى التي تقطّر عسلاً، وسط الجزائريات المندفعات بالرقص المثارات بعيونهن المكحلة وأيديهن المحنّاة، وقد جلست في حضن إحداهن نصف مختفية تحت صدرها، وأحاطتها المرأة بذراعيها كأنها ابنتها، وقد استبدت بالفتاة حالة الجنون تلك، كما العرب، وأخذت تصفق بيديها. آه! يا إلهي، اجتاحته حمى حمراء فانطلق نحوها وانتشلها من بين هاتيك المتوحشات بطريقة دراماتيكية فظة وحملها. في البداية توقف عازف المزمار ثم توقف الغناء واليو يو والرقص. وكانت الصدمة. خرج الرجال، شاحبين مشدوهين يرتجفون واقتربوا مع كلابهم إلى ما بعد سياج التين البري ورأوا الأخوة باري يبتعدون في قفزات سريعة عبر الحقول، والفتاة

الكبرى تحمل أختها الصغرى تحت ذراعها اليسرى وكأنها غنمة، والبندقية في يدها اليمنى. وتعالى صوت الرجال في نقاش عنيف مخطئين بعضهم بعض، واقترب بعضهم باتجاه المزرعة ولكن مفتاح ناداهم وعندما تلكأوا في العودة، أطلق صوته عالياً فرحلوا.

تحدث مفتاح إليهم طويلاً، في البداية بسرعة، ثم بدأ يهدأ. أجاب عن كل الأسئلة وأعاد مراراَ، فهم يعرفون أصلاً من يكون هذا الرجل الأشقر الطويل ذو الكتفين العريضين. حاول احتواء غضبهم وشعورهم بالمهانة. نعم، يبدو أن هذا الرجل لا يحترم شيئاً، لا بيوت العرب ولا تقاليدهم. دخل على النساء، لا ليقرعهن، ولا حتى ليشاهدهنّ، بل ببساطة لأنه اعتقد أنهن خطفن شقيقته. لقد كانت ذريعة جيدة على طريقة الروم[1].

«اتركوه»، أضاف وهو يلقي نظرة سريعة نحو الطريق التي سلكها الابن البكر، «فهو مجرد جاهل».

(1) كان العرب يطلقون على المستعمرين الفرنسيين اسم الروم.

الجزء الثاني

العيد

مينرف جميلة وليدة عقلي
نجمة دموية تتوجني إلى الأبد

غيوم آبولينير

الفصل الأول

يستقبل الجنرال مرافقه القديم الذي يقدم نفسه كأب من فئة النبلاء، ويعلم بأن معاونه لم يقاوم الإغواء.

1

حافظ الجنرال دو رواي على سحنة واحدة، رخامية، خلال استماعه إلى حديث مرافقه القديم.

في ما مضى، ما كان ليتردّد عن فعل شيء ما، فهو يحمل القضايا الأخلاقية كهذه على محمل الجدّ: إنه لانسلوت[1] حقيقي متأهّب أبداً

(1) Lancelot لانسلوت هو شخصية روائية، كان لانسلوت أكبر أنصار آرثر، وفي الأوقات التي كان فيها آرثر في مأزق كان لانسلوت يساعده دائما، لكن ماساته كانت حبه لغوينيفير زوجة آرثر والتي نسب كل شهرته ونجاحه إلى قوة حبها الملهمة لكنه وقع في صراع شديد بين وفائه لملكه وحبه لزوجته مما قاده في النهاية لأن يتحارب مع القائد الذي أخلص له.

للدفاع عن الأرملة واليتيم، وقد أقلع عن الشغف بزوجة ملكه. بالطبع كان برتبة ملازم أول، وبصرف النظر عن فكرة تفضيله أن يكون هوصاراً[1] بقلبق[2] ومهماز أو ضابط مدفعية، لكان انغمس في مغامراته العاطفية مثل الكثيرين من عائلة دو رواي قبله.

اندفع الشيخ إلى المنزل ظهراً مثل قذيفة مدفعية. أثار عاصفة لأن الحرس لم يسمحوا له بالدخول إلى ساحة القصر بتلبيرته[3] ملوّحاً بسوطه. ولحسن الحظ، فقد عرفه الرقيب الذي ذهب لتسليمه الرسالة في منزله في بوفاريك. الجنرال لن يعود حتى المساء. أخبر الرقيب كبير الخدم الذي أخبر بدوره السيدة دو رواي. هل هي مشكلة خاصة مع السيد دو رواي؟ رجت السيدة دو رواي الشيخ أن ينتظر وقدمت له الطعام، وتم ترتيب عربته وتحرير حصانه الذي بالطبع لم يوضع مع جياد الجنرال ولكن مع تلك الخاصة بالمرافقين.

تركه الجنرال يتكلم حتى أحسّ بالتعب، كاتماً أحياناً ابتسامته.

لا يمكنه أن يتخيل نفسه مكان معاونه ينقض على ابنة بويشو الكبرى بلمح البصر، ولكنه تذكّر الوجه المتوهج لهذه الفتاة وتذكر تعبيراتها الخاصة، فمعاونه لا تنقصه الذائقة الحسنة، إلا أن هذا لا يعني أن... في إصطبل... لقد تمكن معاونه من اقتناص اللحظة الوحيدة في المكان الوحيد الممكن: كان ذلك ما يسمونه في علم الحربية الانقضاض على العدو ما إن يكشف خاصرته. خاصرة، يا لهذه الكلمة! يبدو أن لمارغريت هذه خاصرة ملساء لامعة مرصعة باللؤلؤ. إنها لفرصة يجب اقتناصها...

(1) هوصار وهو الجندي العادي وفي الأصل كان يعنى به الجندي الهنغاري.

(2) قلبق وهو القبعة العالية الوبرية والتي كان تستعمل سابقاً في الجيش التركي.

(3) مركبة خفيفة ذات عجلتين باسم صانعها.

فرصة: من فعل كادير باللاتينية، أي ما يسقط لأجلك، يسقط من السماء. لو سقطت الآنسة جيناتي في سرير في قصر القصبة، لا، كانوا كثراً هناك أي لا حميمية، ليكن فندق أومبسادور... أعوزته الجرأة في ذلك الحين؛ استبد به الخجل والكبرياء وقد امتزجا بقوة معاً.

الفرصة جميلةٌ، علينا تقديرها...

راح يردّد في سره هذا البيت لكورناي مفككاً المقاطع اللفظية للكلمة: لو– كا– زيو– يون[1]...

«يفاجئني الأمر تماماً، كيف علمت به؟».

بدا الشيخ مخنوقاً متلعثماً أحياناً. لا يمكنه أن يقدم كل التفاصيل من دون أن يخسر كل أوراقه.

«ولكن... ولكن فقط بعد أربعة أشهر، ماري ألدبرام هي التي تخيلت كيف سيكون الأمر بعد أربعة أشهر. ليس أنا من يخبرك ذلك فأنت تعلم سيدي الجنرال أن النساء ينتبهن جيداً للتفاصيل الغريبة. بعد أربعة أشهر، لن يكون هناك مجال لأي شك. لو لم يكن ذلك ملازمك الأول، لما جئت حاملاً السوط...».

دُهش الجنرال. السوط... «وهذه الطريقة التي ينادي بها زوجته ماري ألدبرام. ألدبرام مع هذه اللكنة البيرينية، لها وقع غريب وتوحي بأجواء سحرة. هل هما عاشقان، مثلاً؟ هل كنت لأقول «سابين دي سانت – أوليف» عندما أتحدث عن زوجتي؟».

– ماري ألدبرام، نعم... إنه اسم جميل على أية حال.

– لا أعرف. فهي متمسكة به. أعتقد أن ذلك يأتي من أبراهام.

(1) L'aoocasion أي الفرصة بالفرنسية.

– لا أعتقد، فأنت تعرف أن أبراهام يلفظ إبراهيم بالعربية. للوهلة الأولى، يهيأ لي أن جذر الكلمة هو الدبران، تلك النجمة التي اكتشفها علماء الفلك العرب وأعطوها هذا الاسم، «تلك التي تأتي تالياً»[1]. وأقصد خلف الكواكب بالطبع. أنت تعلم جيداً أن الكواكب تلعب دوراً كبيراً عند العرب. فعند القبائل، وأعتقد أن ذلك ما زال معمولاً به لغاية اليوم، هناك بعض الأعمال التي لا يشرع فيها أهل البلاد إلا مع ظهور بعض الكواكب في السماء.

كان تحويراً جيداً للحديث، فالكلام عن النجوم يبعد الأرض واحتمالاتها. إنه لتحوير نبيل. فهذا يساعد على رؤية الأمور من الأعلى قليلاً. إذ قفزوا من الإصطبل إلى السماء الواسعة.

التمعت فجأة عينا الشيخ. إذن هو مارجول أحب نجمةً؟ وهذا يشرح كل شيء: تعلقه غير المنطقي، النظرة البرّاقة لزوجته وحبها لليل، السحر الذي لم يعشه قبل ظهورها في حياته: عشقها، تأملها، الرغبة في احتضانها. ولو لم يكن الأمر كذلك، كيف يمكن أن نفهم مرور ثماني سنوات من دون أن تنطفئ. نجمةٌ...

«وفي أي شهر ولدت أنتَ؟».

في الرابع من فلوريال[2].

حاول الجنرال الربط لأنه كان هناك فارق لبعض الأيام بين الروزنامتين.

(1) Aldebaran: أصلها عربي كما يشار في النص، وسميت كذلك نسبة إلى عقود الثريا، حيث أنه «يدبرها» أي يتبعها، أثناء الدوران الظاهري للكرة السماوية.

(2) Floreal الشهر الثامن في تقويم الجمهورية الفرنسية الذي وضع خلال الثورة الفرنسية واعتمد من 1793 إلى 1805.

«في أبريل إذاً، الآن كل شيء بات واضحاً. فأنت ثور تتركّز قوّته في عينيه، لأن الدبران هي عين الثور».

هذه هي إذن. الدبران النجمة الكبيرة، التي تتجاوز الشمس بخمسين ضعفاً. شعر بالإطراء منتشياً لارتباطه بالنجوم، وكأنه ولد من العامة اكتشف أنه ابن غير شرعي للأمير.

– ما كان عليك الانتظار كل هذا الوقت، قال السيد دو رواي.

– كيف كان بإمكاني أن آتي قبل ذلك؟ في البداية لم أكن أعرف، ثم أن وجود الإمبراطور في الجزائر... لم تكن تلك اللحظة المؤاتية.

هزّ السيد دو رواي رأسه.

«أولم تفكر أبداً برجلٍ ما من أجل مارغريت؟».

لم يفهم الشيخ في البداية مقصد الجنرال. هل قدموا وعداً بها لأحد؟ فكر بالولد البكر لعائلة فرانش– كومته جان بيار باري، قامة جميلة وكتفانن قويتان، ويبدو أن مارغريت راقت له في بئر مراد رايس. لا أخبار جديدة عن هؤلاء. الأم مخبولة أما الأب فلم يستطع الانسجام معه. ثم أنه لا يعرف أي جديد عنهم. تبددوا؟ ماتوا؟ على أية حال، لا يمكن البوح بأمور كهذه. قطّب حاجبيه. لأنه لو كان هناك أحد، أكان الجنرال ليتدخل؟ لم يعد ذلك الزمن الذي يتخلص فيه الأسياد من أبنائهم غير الشرعيين من الخادمات بمبالغ زهيدة يقدمونها للحراس المتواطئين.

«لا أحد. نحن لا نساوم في مسائل كهذه. ليس هناك ستة وثلاثون حلاً[1]».

تحرك الجنرال في مقعده مطلقاً تنهيدة خفيفة. لو كان قد لعبها حقاً فإنه

(1) تعبير فرنسي شائع بمعنى كثير.

لعبها جيداً، هذا الشيخ لا تنقصه الحيلة. وعلى الرغم من ذلك، ما الذي يمنع الذهاب حتى النهاية؟ فتاة في السابعة عشر من عمرها وعذراء، إذ أنه من المفترض أنها عذراء: فالجنرال لم يجرؤ على طرح الموضوع الحساس جداً. ولا يجب أن يلمح له بالسؤال إن أتى أحد منذ... تلك الفتيات، قد يذبحن أنفسهن على أن يمارسن الجنس مع عربي. لا، لا يجب أن نظلم بهذه القسوة هذا الجوال القديم بويشو. ليس برجلٍ متساهل هذا الحيوان، إنه حساس جداً في موضوع الكرامة. فمع كونه ثوراً يصبح كل شيء مفهوماً. ولكن في نهاية المطاف يريد تزويج ابنته من ضابط، هذا الشيخ يبالغ. لما لا يزوجها من الحاكم نفسه؟ لا يمكن للمرء الزواج من غير طبقته بهذه السرعة.

حاول مقاربة هذه الفكرة. أكان هو أيضاً، الذي ينتمي إلى آل رواي، لتردد إلى هذه الدرجة في الزواج من غير منزلته؟ أكان فعل ذلك لو أن الآنسة جيناتي اقتنصت لحظة حماسته لتصبح ماركيزة أو دوقة؟

هو يعلم بأن معاونه لا يثقل نفسه بوخز الضمير ويعرف اليوم من هم أسياده الذي يجهد لتقليدهم: بوغو وذلك المتعصب من سانت – أرنو، هذا الأخير هو أيضاً ابن محامٍ أو حاجب محكمةٍ غدا مارشالاً لفرنسا ووزير حرب في مسيرة مهنية طويلةٍ من الدم والدسائس. والشروط المهنية لا تنقص لا سانت – أرنو ولا هذا الشاب غريبه، المستعد دوماً لتقديم الدليل على مهنيته، والمتيقظ أبداً لكل الكمائن الممكنة. يعترف السيد دو رواي أنه كان بحاجة إلى رجل نشيط إلى جانبه لاجتياز العوائق التي وضعت في طريقه. فيقظة معاونه المهجوس بالنجاح تعوّض انعدام طموحه الشخصي. والآن وبما أن معاونه بدأ يتعبه قليلاً، فستكون فرصة مناسبة

لتذكيره بمسؤولياته الأساسية وليقطع الطريق عليه بأي مصاهرةٍ ذات قيمة، كما حصل مع مثله الأعلى سانت - أرنو! في ما يتعلق بزواج الثراء الذي يفكر به، لِمَ لا يورطه بفتاة بويشو؟

نهض السيد دو رواي. كانت الغرفة قد غرقت في العتمة، أكان يحلم بذلك منذ زمن بعيد؟ هزّ جرساً فضياً فظهر رئيس الخدم.

«الشمعدانات»، قال الجنرال.

ذلك الشمعدان الذي وضع على مكتبه كان يخفي عنه تقريباً الأب بويشو الذي أخذ شارباه يتراقصان في الضوء. في الأروقة مصابيح تضاء بالزيت ولها رائحة قوية، أما في مكتبه كما في غرفة نومه وقاعة الطعام، فقد وضعت الشموع لإضفاء جو من الرقة وما توحي به. وسوف يظلّ الجنرال مصراً على طلب الشمعدانات. أما زوجته فتفضل في غرفها المصابيح الجميلة المغطاة بظلات زجاجية نصف دائرية سماوية اللون.

«لا تقلق»، قال السيد دو رواي «ستنام هنا الليلة. سأناقش الأمر برمته مع السيدة دو رواي، ويمكن لليل أن يحمل لنا النصيحة. وسأخبرك غداً بما أفكر به. هل وراءك أيّ مشاغل ضرورية؟»

أجاب الشيخ بإيماءة غامضة.

«ستتعشى معنا بالطبع».

رأى وجه الشيخ ينقبض ويديه تختلجان.

«أتشعر بالتعب؟ أتفضل أن نعيدك إلى بيتك؟ كما ترغب. إذن سأرافقك، تعال».

2

أبلغ رئيس الخدم بالأوامر بتوصيل صديقه بويشو إلى قصر الضيوف والاهتمام به. بعد ذلك، صعد إلى السيدة دو رواي التي تشاغلت عن انتظاره بالقراءة، وضعت الكتاب على ركبتيها ورفعت ناظريها نحوه.

«إذن حبيبي، إنه لشيء جميل: تخيل أن...».

على الرغم من أنه كان صعباً عليها كبت حنقها غير أنها لم تحاول مقاطعة السيد دو رواي خلال حديثه. بيد أنها في الوقت نفسه شعرت بالانتصار. فنفورها من الضابط المساعد وجد تفسيراً له في النهاية فها هو هذا المعاون يتصرف بنذالة. تضرّج وجهها ثم انتفضت مرتعشة بقرف.

– ما بكِ؟ آه لقد أخطأت بإخبارك عن هذه الحادثة. أترغبين في كأس من البورتو[1]. سأصمت.

– لا بالعكس، تكلّم. أريد أن أعرف كل شيء. ما لا أفهمه هو كيف أن هذا الـ... كدت أصفه... كيف أمكن لهذا الشخص أن يقترف خطأً كهذا؟ ألم يكن معك؟ ألم تكونا من المفترض في حضرة عائلة محترمة؟

– يبدو واضحاً أنك لم تعيشي أبداً في قرية، وأكثر دقةً في مزرعة في الجزائر. ابتعدنا أنا والأب عنه للحظات، ولم يكن هناك أيّ شاهد.

– ومع ذلك، هذه اللحظة كانت...

– لقد كشف عن ابتذاله...

– إذن هناك حصل ذلك؟...

بسط الجنرال يديه بطريقة عفوية. نعم، هناك. فهو ما زال غير قادرٍ

(1) بورتو: نوع من الخمر الحلو الشهير في البرتغال ويكون إما أبيض وإما أحمر.

على إخبارها أين.

«حسناً، إذن»، قالت السيدة دو رواي وهي تنهض، «أعتقد بأنك لم تشك كيف يمكن لنقيبك أن يعوض خطأه. كنت محقاً في أن تبدي الحزم في هذه القضية».

«يا إلهي، هذا يحصل إذن...»، قالت لنفسها، «كأنما في غابة. أيعقل ذلك؟ أولن يسبب الأمر عواقب لا يمكنني تخيلها؟».

«حسناً»، قال السيد دو رواي مكلماً نفسه، «ما عاد عليّ سوى لعب دور الآباء النبلاء».

مدّ ذراعه لزوجته «سأصطحبك إلى العشاء».

هنأ نفسه لأنه لم يتحدث أمام معاونه عما دفع بويشو للمجيء إلى الجزائر. على الرغم من ذلك، وإذا سار كل شيء على ما يرام، فسيسأل هذا الضابط الشاب نفسه، لمَ هذا الشيخ هنا، ولماذا استمرت علاقته بالجنرال كل هذه الفترة. «يجب الانقضاض عليه من اللحظة الأولى لمنعه من الهروب. ماذا سيكون غداً؟ العاشر من نوفمبر؟ آه حسناً لن ينسى الغليظ هذا اليوم».

لن يكون السيد دو رواي رحيماً.

جالساً إلى مكتبه، بالكاد ردّ على تحية معاونه بإشارة مقتضبة من رأسه، في حين أنه في العادة، لا يتردد في مصافحته باليد.

«وصلتني أخبار طيبة. لقد تصرفت كنذل لدى آل بويشو والفتاة الكبرى حبلى بإنجازاتك. لقد تذكرت كيف ادعيت عدم الاهتمام، عندما توقفنا في الطريق وتحدثنا عنها. بدا أنك تبذل جهداً حتى لتتذكر اسمها. لا تنقصك الوقاحة يا عزيزي. على أية حال لا مراوغة ولا خداع معي.

لقد كشف أمرك، وعليك أن تدفع الثمن».

لم يبدِ الضابط أيّ رد فعل.

«ألن تقول شيئاً؟»، أضاف الجنرال.

واقتبس كلمة زوجته: «هذه أخلاق الأنذال».

النقيب، متصلباً بالكامل في وضعية استعداد حربية، هزّ قليلاً رأسه وأرخى يديه.

– ماذا يمكنني القول، سيدي الجنرال؟ لست معتاداً على الكذب. كانت جميلة. وقد ضرب النبيذ الوردي قليلاً رأسي.

– إنها لحجة باطلة، النبيذ الوردي... إنه شبقك، نعم. سأقولها لك بكل وضوح: إنها قلة ذوقك.

– إنك تظلمني، سيدي الجنرال. هل اشتكاني أحد لك يوماً؟ النساء، أعترف... لم يعلمونا في المدارس العسكرية كيف نحترمهن. لقد أعطونا دروساً بالطبع في كيفية التصرف في المجتمعات الراقية، وتعلمت كيف أمسك بقدح الشاي، ولكن ليس كيف أقاوم هذا. اعذرني: حتى أنهم رددوا لي بأن في ذلك إشارة على طبيعة حقيقية بي تعزز ما تطلبه هذه المهمة من توقّد. والحرب...

وجد الجنرال نفسه فجأةً مجرداً من أسلحته. شعر بالتسامح مع معاونه لا بل بالحسد. فما يحصل خلال الخدمة العسكرية يمحى تلقائياً. والحرب، يوماً ما، قد تقلب الأدوار وقد تجعلك متهوراً شجاعاً، وسيكون هناك متسع من الوقت بعدها للذهاب إلى الكنيسة وطلب الغفران.

«حسناً، عزيزي. اسمع، لقد بلغت عمراً معقولاً، وبإمكان هذه الصغيرة أن تسعدك. طبعاً ليس لديها مهر، ولكن لن تكون لها أيضاً تلك

المتطلبات نفسها التي تطلبها السيدة البورجوازية. فأنت لن تخسر في هذه المقايضة، لا بل ستكون الرابح: ستفوز بالجوهر، الجوهر الحقيقي. ويمكننا أن نقيم الزفاف ما إن نجهز الأوراق اللازمة.

أنا لا أتخيل نفسي...

ليس هناك من عاقل يمكن أن يتخيل نفسه متزوجاً. ليس هناك من وحيّ رباني، على الأقل ليس عندنا، فيما يخصّ الزوجة. هل تعتقد بأني فكرت ملياً في الزواج؟ الأفضل هو الانتهاء سريعاً من الأمر. يمكنني أن أكون الشاهد من جهتك أو من جهة زوجتك. وأضيف لك، لكي أريحك من جميع هواجسك، الرجال الأكثر رفضاً للزواج هم الأزواج الأفضل، والنساء اللواتي تخالهن الأقل أهلية للزواج ومتطلباته، يكنّ الأكثر وفاءً. لأننا بحاجة إلى الاهتمام، كما علينا أن نبدي لهن ذلك بدورنا.

«حسناً»، كلّم نفسه، «لقد قدمنا الآن موعظة دينية. لا يجب أن نبالغ. الرجل بحاجة إلى أن يلتقط أنفاسه. لا يجب أن نخنقه».

«كن لطيفاً ونادِ السيد بويشو».

خرج المعاون. نهض السيد دو رواي، وتمشى قليلاً في الغرفة التي تنساب إليها الشمس قوية من النوافذ. البحر لازورديٌّ والشاطئ يمضي متقوساً عند مصب نهر الحرّاش ثم يمتد باتجاه رأس ماتيفو، وفي الخلف، تلمع خاصرة جبل القبائل. الخريف هنا يشبه خريف أوروبا، أجمل فصول السنة، الأكثر استقراراً وعذوبةً. ما عاد هناك عواصف تهب من جهات الأفق الأربع، أو ريح شرقية خانقة: سماء صافية مبللة بضباب الصيف، ضوء رقيق من دون كآبة، أكثر دفئاً على القلب والروح مما على الجسد. وقد شبّه العائدون من حرب القرم هذا الطقس بطقس اليونان: إنه ذلك

الضوء صبيحة يوم الخلق.

قرع الباب. دخل الشيخ يتبعه المعاون. بدا الأب بويشو تعباً، على الأرجح لأنه لم ينل قسطاً كبيراً من النوم. ثمة الكثير من مظاهر الفخامة في حجرة الضيوف هذه، الكثير من الوحدة والصمت بالنسبة إلى رجل معتاد على مزرعته، وعلى ليل السهل المليء بعواء بنات آوى، وعلى زوجته التي تحمل اسم نجمة. كان يتمنى لو دلّه الجنرال ليل أمس على برج الثور حيث تلمع الدبران. ثم أن ذقنه التي لم تحلق منذ يومين تزعجه وسط كل هؤلاء بذقونهم النظيفة المهفهفة. فهل يحمل القروي حقائبه وحاجيات نظافته الشخصية مثلما يفعل الأسياد؟ تأمل الحكاية وقلّبها ولاكها واجترها ألف مرة. هل ستعود عليه هذه المسألة بالهناء أم التعاسة؟ ولو أنكر هذا الرجل العتيد فعلته فهل يملك دليلاً ضده؟ ربما سيحتفظ بالقطعة النقدية التي وجدها في الإصطبل ولم يأت بعد على ذكرها، كدليل أخير. لكن النقود ليست مصكوكة باسمه! الجميع يملك مثلها. سيقولون إنه اخترع القصة. في مكانه، على أية حال... لو كان يعلم، هو مارجول، وهو يركض كالذئب في منتصف الليل والنار تلتهم قلبه، أنه سيلعب دور من انتُهك عرضه...

مدّ له السيد دو رواي يده: يد صغيرة ناعمة، تبدو كيد إمرأة في يده الكبيرة القاسية كقوائم الحيوانات.

«لن أقدم لك الملازم أول غربيه»، قال له الجنرال الواقف أمام مصراع النافذة المفتوح، مديراً ظهره للشمس التي طاولت كتفيه المزخرفين، وذلك لكي يرى ضيفيه، هكذا، في وضح النهار. «أنت تعرفه. لن أطرح عليك السؤال، على أية حال، إن كنت تقبل بمصاهرته، إذ توسلني لأطلب له،

وباسمي، يد ابنتك مارغريت. لا يا عزيزي، لا ترفض. دعني أشرح لك. لقد شاءت السماء أن يقع في حب ابنتك. أنا أعرف تماماً أن هناك قواعد وأعرافاً يجب مراعاتها، ولكن ليس في زيجات الحب، ربما في الزيجات التقليدية. وأظنّ أن ابنتك تبادله الحبّ أيضاً. وبذلك نستطيع تزويجهما. أيناسبك أن نتمّ الأمر في غضون شهر؟».

لم يصدق الأب بويشو أذنيه. حقاً؟ بلا متاعب؟ لقد كانت ماري ألدبرام محقة، فهو يشبه الإمبراطور، لديه الأنف المعقوف نفسه، وجبهة عريضة ونظرة واثقة وشاربان مفتولان مروسان كشوارب القط ولحية كلحية تيس صغير. أعليه مصافحته باليد أم أن يقول له يقول شيئاً ما؟

فتح الجنرال ذراعيه، لمس بهما كوع كل منهما، ككاهن يتحضر لمباركة اثنين باعد بينهما خلاف.

«أعتقد أنك متعجل للعودة بالأخبار السارة»، قال له السيد دو رواي وهو يدفع به نحو الباب، «سنفعل ما هو أفضل من ذلك. سيرافقك الملازم أول، سأمنحه يوم إجازة. لا تشكرني. أراك قريباً سيد بويشو. احتراماتي لـ...».

كان يريد أن يقول للسيدة، لكنه أراد أن يستمتع باللعبة.

«... لماري ألدبرام، زوجتك التي تحمل اسم نجمة».

انتظر الملازم أول صعود الأب بويشو في عربته واختفائه، قبل أن يمتطي حصانه وينطلق.

3

وكأن نجماً مذنباً ظهر ليبشر بأحداث جسيمة مقبلة. منذ ساعات

الفجر الأولى، تبدأ مارغريت بالبحث عنه، معتقدةً أنها لمحت ذات ليلة شهبه الناري عند الأفق، إلى الشمال، من الجهة الأخرى من الجزائر. هزّ والدها رأسه «أنت تخلطين بينه وبين شهبٍ...». لا. هي تعرف جيداً ما هو الشهب: هذه النقاط الذهبية التي تظهر في أعالي السماء ليلاً، في اللحظة غير المتوقعة، راسمةً خطوطاً سرعان ما تختفي كالبرق.

كل ما على المرء فعله حين يراها أن يتمنى أمنية وستحقق أمنيته هذه. لا يدوم الضوء سوى البرهة اللازمة لنتذكر أمنيتنا، ثم ينتهي كل شيء. لم يكن لديها ما تتمناه. صرخت في عمق أعماق روحها: «أن يحبني!»، من دون أن تضيف: «... وأن أحبه!». لأن ذلك سيحصل تلقائياً. «أن يحبني»، من؟ كانت تجهل: هذا الذي سيأتي، الأمير، الإله!

إنه نجمٌ مذنب في كل الحالات، حتى لو كانت قد خلطت بينه وبين لهب خاطف في البحر أو حتى التماع قذيفة مدفعية. العرب يتحدثون عنه، يقول محمد: «ستحصل أحداثٌ...»، هو بالطبع سيفكر بزوال الفرنسيين، بجبالٍ تسحقهم أو بحر يبتلعهم.

عندما وصل الجنرال إلى المزرعة مع فريقه من مقاتلي أفريقيا، أي نجمٍ مذنبٍ أو شهبٍ كان ينذر به الملازم أول؟ «أن يحبني!». ترجّل، وقف خلف الجنرال الذي يتخطاه قامةً وتلفت حوله بشيء من الملل. هل رآها؟ ليس من النظرة الأولى على أية حال؟ عندما مسح عرقه، تمنت لو تستبدل منديلها بمنديله، منديلها الذي أخرجته من خزانتها وقد تعشق برائحة الزعتر المجلوب من مونتسيغور. أرادت أن تحتفظ برائحة عرقه، مثل القديسة التي مسحت وجه المسيح، كانت لتقبل المنديل وتخفيه في صدرها. عندما يأتي إليك القدر، عليك أن تكون جاهزاً.

بعد الغداء، نهض الجميع، نظرت إلى الملازم أول، عليه هو أن يطلب لكي تستجيب. الدليل. قال لها «أريني الإصطبل، فأنا أحبّ الخيل». هي الكلمة نفسها «الخيل». فعلى صهوة خيلٍ صعد النبي إلى السماء[1]. إنه الخيل الذي تنتظره مارغريت لكي تهرب.

لحقت بالملازم أول إلى الإصطبل. التفتت إليه الجياد والبغال فقالت له: «هذه هي». حينئذ، وبحذائه الذي يخبط فوق الأرض، تقدم إلى الداخل ماراً بالجياد الثلاثة كأنه يتفحصها. بالطبع لم تكن من النوعية المفضلة. فالجيش أعاد تأهيل هذه الحيوانات وبيعها، وقد نتجت عن تلقيح الفرس العربي بفحول الخيل الفرنسية أو بالعكس، وهذا واضح في ذلك المزيج من الرقة والصلابة، وها قد فقدت خيلائها اليوم وركنت إلى رفاهية التقاعد السعيد، ففي المزرعة يعاملونها بشكل جيد ولكن عليها أن تكون مستعدة دائماً لأشغال الحقل والنقل. ويعدّ جرّ العربات ذات الدولابين أقصى الفخامة المتاحة. بيد أنها لا ستتخدم على الأقل لتشغيل النواعير. فتلك وظيفة البغال.

وهنا أمسك النقيب يدها. هل سيقول لها بأنه يحبها؟ جذبها إليه: أزرار سترته على صدرها، ثم رائحة تبغٍ ووجنتين حارتين وشمس، حافة القبعة مثل ظلة تخفي تحتها القربان المقدس. شفتاه تلتهمان شفتيها، تبتلعانهما. أهذا هو الحب إذن؟ هاوية أخرى، أشدّ عمقاً، تركا أنفسهما يهويان فيها ثملين، هائمين، محاولين للحظة التغلب على وعورتها، ثم مستسلمين لما سيأتي ولو كان الموت، وقد وهبا أنفسهما بجسديهما المتشابكين؛

(1) في صحيح بخاري، فإن الدابة التي ركبها النبي محمد في رحلته المعروفة هي كائن أبيض دون البغل وفوق الحمار. في ثقافات أخرى هناك وصف لكائن خرافي يشبه الحصان ولكن له أجنحة.

الذراعان مفتوحتان لتلقي الخنجر أو السيف، الذي سيساعدهما كما الفرس للانتقال إلى الجهة الأخرى من الجبل ومن الحياة. كنيسة الذهب، كما قالت أمها. لا. لقد وجدا أنفسهما في مشهد ناري، محمولين بعاصفة من الريح والنار على وقع صفير زوابع النار المتأججة، وقد رفستهما جياد القيامة فتعلقا بأهداب النجم المذنب.

منذ رحيل الملازم أول وهي تنتقل بين الشمس والظل، غاب الأمراء والملوك برفقة ملائكة حمرٍ، ولم يبق لها سوى غناء الزيز والأحاديث العادية ووقع الأقدام ورنين الحوافر الحديدية للجياد، كل ذلك معلق في فراغٍ أبدي. هكذا بدأت دموعها تتشكل في الأعماق وتنهمر ما إن يهبط الليل مثل حيوانات حررتها العتمة. لم تشك للحظة بأن الملازم أول لن يعود، وإن حصل، فذلك فقط إن دفن من دونها في هزة أرضية. من المفترض أنه شارك في احتفالات رحلة الإمبراطور، وربما ركب تلك العربة الشهيرة التي تجرها أربعة خيول؟ أقفل الأب على نفسه مراراً للتحدث مع الأم ثم رحل يوم أمس بمفرده إلى الجزائر العاصمة. والآن، يسيل دمع مارغريت على وجهها ملتمعاً كسهلٍ تحت الشمس بعد شتوة.

يحاول النقيب تذكر وجه مارغريت بيد أنه غير قادر على استحضاره بوضوح. يطفو في غيمةٍ بعينيها المثبتتين على وجهه، تقريباً بلا جسدٍ. ألن يخذل؟ ألن يكون بتخيله جمالها ضحية صورة اللقاء الأول مع امرأة، إذ اكتسب الكثير من العادات السيئة. لو كانت حقاً بهذا الجمال، لعلم بها ضباط معسكر إرلون الذين يمشطون السهل دائماً. ففي اليوم الذي رافق فيه الجنرال في زيارته لعائلة بويشو، كانوا قالوا له: «عزيزي، هناك طير سمان...». ما الأمر إذن؟ أهو ضرب من الجنون؟ أم أنه النبيذ الوردي

الذي ضرب رأسه، كما قال للجنرال؟ جعل يدندن نشيد الزواويين:

بم بم...

ستبقى مارغريت هنا، وسيزورها من وقتٍ لآخر. ومع الوقت، وبعد أن يتأكد من أنه لم يخدع، وبأنها حقاً تروق له وبأنها فعلاً أفلتت من جنود معسكر إرلون، حينئذ سيلتزم بها.

بم، بم، العربي...

كان هو، العربي[1] الذي تعرض للابتزاز. فهو الذي يملك الإرث الغني الذي يخوله خوض معركة الرتب، التزم بفتاة لا تملك سوى عينيها وتنورة مطرّزة بالنجوم. ثم من أين تأتي عائلة بويشو، مع لكنة الشيخ هذه؟ من البيرينيه؟ من روسيون؟

في غفلة منه وجد نفسه قد وصل إلى المزرعة. دخل بين أشجار القصب، وأخذ الطريق التي تمتد على جانبيها أشجار الدلب والمؤدية إلى بيوت من الطين. ترجّل، لا أحد، تقدم قليلاً فانفجر الكلب بالنباح مهدداً: كلب ضخم مهجن مربوط إلى جذع شجرة، له مؤخرة كلاب القبائل وذيولها ولونها، وله وبر قصير وبطن وخطم مثل كلاب الدرواس الضخمة.

«كفى، يا زهرة!».

التفت الضابط متفاجئاً، إذ لم يلحظ وجود الشيخ الذي كان يمشي وراءه.

هل تتذكر الكلب الذي رأيته عندما جئت برفقة الجنرال؟ لا؟ كان كلباً وديعاً لكني وجدته ميتاً ذات صباح، وضع له العرب السمّ على الأرجح.

(1) Arbique وهي لفظة محورة لـ arabe أو arabique والتي يقصد بها العربي ولكن بطريقة تحقيرية.

أما هذا فقدمه لي الجيران، عمره لم يتعدّ العام الواحد بعد! ليس جميلاً. بحثت له عن اسم.

– زهرة، هل تجد ذلك مناسباً؟

– كان ذلك اسم شرطي من مونتسيغور. رجال الشرطة بالنسبة إلي كما تعلم... مع هذا الصوت والفم... تفضل.

جعل كلب الحراسة يخّر شاداً بحبله، محاولاً بفكه المفتوح الرطب الاقتراب من سيده. تقدم الضابط مرتبكاً. فُتح الباب على مصراعيه، لتظهر الستارة الكتانية المقلمة المعلقة فوقه. سكت الكلب، لتبدأ الزيزان نشيدها الحاد. أزاح الشيخ الستارة.

«تفضل».

كانت أشعة الشمس تضيء المطبخ حيث وضعت الطاولة. رفع الضابط ناظريه ولمح الأم تقف حدها بقامتها المستقيمة. كم يمكن أن يكون عمرها؟ في الخمسينات؟ حسناً إذن، لو كانت مارغريت مثلاً بعد ثلاثين عاماً، نحيفةً، أنيقةً، مع هذا الوجه الصافي والعينين اللتين تشبهان فراشتين تتنقلان بين الزهور...

اقترب الشيخ من المدخنة، سحب شيئاً ما وخبط به على الطاولة، أمام الضابط: فرنك وثلاث قطع برونزية.

في البداية، خذ هذه. إنها تخصّك. لقد وقعت من جيبك».

«آه» كلم النقيب نفسه، «هذه إذن؟».

فتح باب المطبخ الآخر، وظهرت مارغريت. كان جمالها يقطع الأنفاس.

الفصل الثاني

يقرّر آل باري زيارة آل بويشو في بوفاريك، لطلب يد مارغريت.
وبعد الحديث عن العرب والأرض، يصلون للموضوع الرئيسي،
وهنا يحدث الشرخ بسبب غطرسة الأب.

1

أُعدّ بعناية شديدة لاستقبال الإمبراطور. فجمع على أدراج المسرح جميع القادة، والأغاوات والباش أغاوات[1] بأسمالهم وأحذيتهم الحمر، إضافة إلى زعماء منطقة القبائل التي خضعت قبل ثلاثة أعوام. فهؤلاء يجب أن يعبروا عن شكرهم لكرم فرنسا معهم، وهي تنتظر أن يظهروا لها بالمقابل وفاءهم، خاصة بعد أن حصلوا على الأوشحة الحمر والأوسمة الرفيعة. أرادوا أن يمحوا من ذاكرة نابوليون الثالث اضطرابات العام 1859 التي شهدتها الحدود الجزائرية - المغربية وقمع الجنرال مارتينبري[2] لقبائل بني سناس[3] في وهران[4]، والانتفاضة التي تلتها. وقد تركت تلك الأحداث آثارها في الرأي العام. ولإزالة هذه اللطخة، كانت كل أعلام

(1) رتبة عثمانية أعلى مقاماً من الآغا.

(2) الجنرال الفرنسي مارتنبري دو كيس الذي خاض معركة عنيفة ضد الأتوشتون وهم السكان الأصليون في 1859.

(3) أيت يزناسن أو قبائل بني سناس وهي قبائل أمازيغية في شمال شرق المغرب (البربر).

(4) وهران هي المنطقة الغربية الجزائرية أو الجهة الغربية أو حتى القطاع الوهراني كلها مسميات للمنطقة نفسها أي كل الشمال الغربي للجزائر، وتشمل مدينة وهران كعاصمة، وتلمسان المدينة الثانية ثم عين تموشنت، سيدي بلعباس...).

المناطق هنا، وأقيم في ساحة العمال في مصطفى[1] استعراض لكامل جيش أفريقيا. وقد جرى اليوم التالي بشكل أفضل أيضاً. في ميزون كارّيه[2]، عرض ضخم للخيالة من إعداد يوسف[3]، وهو أفضل من يفعل ذلك: في البداية صيد الأرانب، ثم الغزلان والنعام، يليها عرض مسرحي يتضمن مناورة عسكرية. ثم عند طرف هضبة صغيرة مقابل متيجة، نصبت الخيمة الملكية ليركع فيها بالنهاية القادة العرب ويقبلوا ركبة الإمبراطور. يا للغبار! يا للحشد! فقد أتوا من كل حدب وصوب لمشاهدة هذه العربة وهي تعبر جسر الأتراك القديم في الحراش تجرها أربعة جيادٍ ويرافقها جنود أفريقيا والخيالة الملكيون. كل هذه الرايات والأعلام بالزنابق الثلاث!

خلال زيارة رجال الشرطة لعائلة باري، لم يتحدّثوا سوى عن هذا الموضوع. الآن، وقد تزوجت فليبين إزار، فقد أصبح آل باري يستبقون رجال الشرطة على الغداء مرتين في الأسبوع، الاثنين والخميس. يصلان قبيل الظهر بقليل، يربطون جيادهم بالأشجار ويضعون لها الشوفان في الجراب، ثم يجلسون إلى مائدة الطعام. تسأل مدام باري عن أخبار فليبين؛ إنها سعيدة. زينت غرفة العريسين الجديدين بورق جدران من الزهور الصفر والخضر كما سيتم قريباً طلاء غرفة الطعام بالصلصال الفاتح، وبالزيت، نزولاً عند طلب الأم. أما بالنسبة إلى المطبخ، فهو صغير ولكنه

(1) إحدى ضواحي مدينة الجزائر.

(2) Maison-Carrée هو الاسم الذي أطلقه الفرنسيون على منطقة الحراش في الجزائر، وقد استعادت اسمها الأصلي بعد الاستقلال.

(3) هو فالنتيني جوزيف المسمى الجنرال يوسف، ولد في جزيرة ألبه، من ضابط رماية كورسيكي (ايطاليا) في جيش نابوليون الأول، وقد ربته حتى سنة الثالثة بولين بونابرت. ثم ترعرع بين القراصنة، ليباع بعدها لداي تونس، ليهرب وينضم إبان الحملة الفرنسية على الجزائر إلى جيش إفريقيا وليصبح بعد ذلك جنرالاً في سلاح الخيالة.

حسن الإضاءة ويطل على الجبل.

«ممتعٌ أكثر أن تروا العرض بشكل مباشر»، قال السحلية، «عليكم أن تأتوا يوم أحدٍ، مع الأب وأورتنس».

فرسخان، ليسا بالمسافة الكبيرة، يمكن اجتيازهما في ساعة واحدة. فمنذ حفل الزواج، لم تزر عائلة باري لاربعاء[1]. اليوم، تركوا المزرعة في عهدة «مفتاح»، وذهبوا جميعاً لاصطحاب فليبين إلى الحفل.

كان الحفل رائعاً. كل رجال الشرطة في كامل أناقتهم في كنيسة مع وفد يقوده العم ديزيريه من شعبة ميزون – كاريه، حيث أقيم سجن خاص بالعرب. قاد الأب باري بثيابه السوداء، ابنته إلى المذبح دامعاً، أما الشرطي إزار، فبدا أنيقاً بتلك البزة الكحلية الموشّحة بالأزرق الملكي، والحذاء النصفي المطلي بلون سيفه المثبت عند ردفيه. وكذلك كان الغداء الذي أقيم في ساحة الشرطة مبهجاً، وتخلله خطاب لرئيس البلدية وآخر لعميد السلك. في المساء، رقص الجميع على موسيقى الأكورديون، لكن وعلى الرغم من إصرار العم ديزيريه، لم تقبل عائلة باري بالبقاء وأصرّت على العودة بعيد المساء، تاركة فليبين لتكمل حفلها. بدوا مخمورين قليلاً غير قادرين على الوصول قبل هبوط الليل، غير أن السيد باري رفض البقاء وجرّ الجميع وراءه، إذ تتملكه الهواجس على مزرعته منذ قصة أورتنس. مّم بالضبط؟ لا يعرف. فدرس الحنطة حصل من دون أن أي مشكلات، والقمح بيع ونقل، وفرش الزبل في الحقول، أما بالنسبة إلى حزم القش فحتى لو اشتعلت، لا يمكن لنيرانها أن تصل إلى المنزل. لا يهم، ما عادت الأمور كما في السابق. ولذلك، عندما دعاهم إزار لزيارة ابنتهم في

(1) لاربعاء: دائرة في ولاية البليدة الجزائرية.

لاربعاء...

– أأنت قلق؟ سأله الرقيب.

– بلا شك. لستُ مطمئناً، ومع زيارة الإمبراطور...

– آه! أجاب الرقيب. لقد استفزهم ذلك بعض الشيء، لا يجب أن نكرره كثيراً ولكنّ شيئاً لم يتغير، فنحن هنا.

سيطرت عليهم فكرة أن الزواويين سيعملون على خطف أورتنس انتقاماً للإهانة التي تعرضوا لها عندما دخل ابنهم جان بيار على النساء. تم استنطاق الفتاة بحذر. وخلص تحقيق الشرطة إلى أنها كانت محاولة هروب: أرادت الفتاة أن تعرف ماذا هناك خلف الحدائق وحقول القمح المحصودة. فهم لم يصدقوا قصتها عن صوت الزيز والمزمار. أعادوا تقريباً بناء القصة التي روتها: الغابة التي تتحدث عنها – لأنه يجب الأخذ بعين الاعتبار خيال الأطفال – هي حقل الزيتون عند مقبرة الزواويين. ومن المفترض أن الدوار لم يكن بعيداً، لذلك وصلها صوت الغناء. ثم أهو احتفال طقوسي... العيد الصغير... العيد الكبير أم المولد... يا إلهي... إنه حفل طهور.

أكانت تعلم بمناسبة هذا الاحتفال؟ أقالوا لها؟ هل رأت شيئاً ما؟ هل علمت ماذا فعلوا بالصبي؟ أربكوها بكل هذه الأسئلة الملحة، وحتى إنهم استدعوا طبيب لاربعاء للتأكد من أنها لم تتعرض لأي اعتداء. ومنذ تلك اللحظة، لم تغب عن أنظارهم، نقلوا سريرها إلى غرفة الوالدين. بدت محاصرة وما عادت تسأل لماذا لا يتركونها تخرج من المنزل من دون مرافقة أخوتها، ولكنهم كانوا دائماً يفيقون عليها وهي تدمدم في منامها بكلمات غير مفهومة وتعبر بإشارات غريبة، لا تناسب على أية حال فتاة

في مثل سنها.

فالشيء الوحيد الذي حفظته من العيد والذي تمكن في النهاية جان بيار من فهمه: *مول العودة الحمرا إيسوكها بقدامه* أي «خيّال الفرس الأحمر يدوسها بأقدامه...» أحد مقاطع أغنية حب يرددها العرب أحياناً.

هزت مدام باري رأسها، أورتنس ليست سعيدة.

«صهركم محقّ»، قال الرقيب، «عليكم أن تشدوا العزم وتأتوا ذات أحد للغداء هنا. فالزواويون لن يتحركوا. لقد شللنا قدرتهم على الحركة لفترة من الوقت».

ابتسم الرقيب بنظرة ملؤها الثقة. لا، زيارة الإمبراطور لم تغير شيئاً. فحتى رجال شرطة لاربعاء ذهبوا لدعم شرطة ميزون– كاريه على ضبط الأمن. وطوال أسبوع، كانت تصل قوافل الخيّالة من السكان الأصليين[1] الموالين للفرنسيين ويتقاضون أجورهم منهم، آتين عبر الجبال، من المدية وميليانه، خلف قادتهم، للمشاركة في العرض الذي أعده يوسف.

«لقد فهموا».

عندما يتمّ الكلام بصيغة الجماعة، يكون مفهوماً من المقصود.، فمن غير المجدي التحديد. في حين تذكر أسماء كل من ليسوا من العرب أكان في السهل أو في أي مكانٍ آخر. فما إنن يقال «هم»، حتى يكون المقصود العرب. سواء أكانوا مهمين جداً أم لا، لا ضرورة لذكر أسمائهم.

«والإمبراطور»، أضاف الرقيب، «صدقوني، فإن كل الناس يعلمون أنه يدين بعرشه إلى سانت – أرنو. لم يأتِ لرؤيتنا بثيابه الرسمية بل ببزة

(1) السكان الأصليون (indigene) التسمية التي أطلقها الفرنسيون على أهل الجزائر، ولم يسموهم الجزائريين لأن الفرنسيين اعتبروا أنفسهم هم الجزائريون.

الجنرال، سيكون لدينا قريباً مارشالاً حاكماً، كما حصل سابقاً».

ربما بسبب ارتباطهم بأواصر قربى مع أحد رجال الشرطة، فإن عائلة باري لا ينتمون لأولئك المستوطنين الذين يجاهرون بعدائهم لما يسمى بنظام السيف. فبالنسبة إلى المستوطنين عادة، إن كانوا لا ينجحون، فلأن العسكر يمنعهم من التصرف على هواهم. إذ نسي بعضهم ماذا فعل الجيش من أجلهم، وصولاً إلى إصلاح أراضيهم أحياناً، ويتجرأون أحياناً على سدّ الطريق عليه. لدى الضباط فكرة عن البلاد والعرب، تختلف تماماً عن فكرة المستوطنين. ففي نهاية المطاف، الضباط مؤقتون وهم الدائمون. أفكارهم عن العدالة ليست هي ذاتها. فيصرّ بعض الجنرالات، أملاً بتحقيق الاندماج بين الأعراق، على وجوب التعامل مع العرب على قدم المساواة، في حين أن معظم المستوطنين لا يفكرون إلا في القضاء عليهم أو السيطرة على أراضيهم. أما الشرطة فتحاول التملص من النظريتين. فمن الناحية العسكرية، هم يطبقون قواعد الجيش. ونظراً لكونهم ذراع السلطة المدنية التي تنتمي حالياً إلى إدارة السهل، فهم يمثلون رؤساء البلديات والوكلاء، ويتصرفون في هذا المكان أيضاً بحذر.

ألقى إزار نظرة حوله. كان رقّاص البندول النحاسي يدق تحت النافذة الزجاجية التي صنع صندوقها من خشب السنديان، وقد برز عقب بندقية خلف الباب الذي وضعت فوقه. كل شيء كان في مكانه الصحيح. فهو يحب كثيراً هذا البندول الذي يحمل قرص ساعته المطلي اللمّاع المقسم حسب الأرقام الرومانية، اسم صانعه هامبرت تحت اسم المدينة بيزانسون. فقد أفهمته فليبين أنها، بعد وفاة والديها، ستحصل عليه كونها البنت البكر، غير أنه بات أساساً لديه منذ الآن في غرفة الطعام بالقرب من

النافذة. قالوا له «لديك بندول جميل...»، تنحنح، ملقياً نظرة دافئة إلى فليبين وقال: «إنها من عائلة زوجتي. بالنسبة إلي، فأنا من هوت – ساوان، في حين أن زوجتي من بيزانسون المشهورة بصناعة الساعات...».

والنجم المذنّب، قال الرقيب وهو ينحني على أورتنس، حتى لو حمل خبراً ما، فلن يكون نهاية العالم أو الهزة الأرضية. هل رأيت؟ لم يحصل شيء.

– المذنّب، سألت أورتنس، كيف؟

– نجمة تجر خلفها شهباً من النار مثل ذيل فستان عروس.

– عندما سأتزوج، أريد واحدة منها.

– مذنّب أم ذيل فستان.

– كلاهما.

لم تكن فليبين تملك فستاناً ذا ذيل. فهو طائل الكلفة ولن يفيدها بشيء، ناهيك عن أنه يحتاج إلى وصيفتين لحمله، إلى طفلين، وليس في عائلة باري أيّ أطفال، أما أورتنس فأصبحت كبيرة جداً على أمر كهذا.

– سيكون لفستانك ذيل، أعدك بذلك، قال لها الأب. أما الشهب، فهذا...

– وماذا عنك، قال الرقيب مخاطباً جان بيار، متى سنفرح منك؟

– علينا الذهاب إلى بوفاريك.

– آه، نعم، قال الرقيب، ذلك الرجل بويشو. ولو شارك الجنرال دو رواي في العرس سيكون احتفالاً كبيراً.

وهكذا، تقررت الرحلة إلى بوفاريك.

2

بعد وادي الجمعة[1] التي تمضي بمحاذاة النهر، عبر أشجار الزيتون، غادروا طريق روفيغو[2] الذي ينحدر جنوباً باتجاه مزرعة آل ميموش على بعد فرسخ. بعد ذلك، وصلوا إلى قرية شبلي وسط حقولها الفارغة: التبغ الذي قطف منذ الصيف يتم تجفيفه في الظل. تمضي الطريق مستقيمة إلى بوفاريك، مثل كل طرقات السهل، وذلك لتفادي الكمائن مما يجعل المناطق البعيدة واضحة ويسهل معرفة من يبتعد ومن يقترب. فالعرب المعزولون، أكانوا ممتطين حميرهم أو راجلين، يمكن رصد حركتهم من بعيد، أكانوا يقتربون أم يبتعدون. قد يلقون عليهم التحية وأحياناً إن كانوا يعرفون أحداً منهم قد يتوقفون. لا مفاجآت. على اليمين، بعد شبلي، دوار أولاد خادم، وعلى الشمال مقبرة عربية ومربط.

وضع جان بيار بندقيته على الأرضية خلفه في صندوق العربة، أما السيد باري فثبت بندقيته بين فخذيه، وجعل يتأمل السهل معجباً بتقسيماته وبقنوات المياه، وبكمية العلف الذي يمكن استخراجه من الحقول والذي سينبت بعد الشتاء. على امتداد الأسيجة، زهور النرجس والخزامى البرية والياقوتية. فرسخ واحد ووصلوا إلى المدينة. سألا أين تقع سيدي عياد. فمن المفترض أن بويشو أمسى معروفاً، منذ زيارة الجنرال. كيف سيستقبلهما، هل سيتذكرهما على الأقل؟

---

(1) بلدة في شمال الجزائر.

(2) روفيغو هي مدينة بوقرة الجزائرية وهي إحدى بلديات ولاية البليدة التي أطلق عليها الفرنسيون خلال احتلالهم للجزائر اسم روفيغو، وذلك تكريماً لدوق دو روفيغو الذي كان رئيس أركان القوات الفرنسية في الجزائر بين 1831 و1833 والذي عرف بعنفه وشراسته. وتجدر الإشارة إلى أن هناك مدينة إيطالية تحمل هذا الاسم أيضاً «روفيغو».

انزوى السيد باري في مقعده ناظراً إلى ابنه بشيء من السخرية: فهو يزعجه بعض الشيء بحماسته تلك وبالطريقة التي يطرطق فيها بلسانه لضبط سير الحصان، وبوجهه الذي يشع بالرضا. يصفر للحظات مثبتاً نظره على ردفي الحصان ثم يعاود الطرطقة بلسانه.

على اليمين، وبعد أشغال سكك الحديد، اجتازا المقبرة الجديدة حيث شمخت أشجار السرو وبات بالإمكان رؤية تحصينات بوفاريك، لا متاريس وإنما مجرد جدران كبيرة فيها أبواب، كان الغرض منها تأمين الحماية من العرب عندما كانوا ما زالوا يهددون المدينة.

أبطأ جان بيار المسير، مع بداية اختلاف منطقة سيدي موسى. فالطرقات المزروعة بالدلب تحمل أسماء: الجادة الوطنية وجادة سانت – لويس. يتقاطع شريانا المواصلات الأساسيان في زاوية مستقيمة عند ساحة مازافران، حيث يقع الفندق بلافتته الشهيرة التي رسمها هوراس فرنيه[1] مع شجيرات برتقال صغيرة على مدخله، وعربة جيادٍ متوقفة أمامه.

ترجل جان بيار، وسأل بعض الناس وعاد. مزرعة بويشو ما زالت على بعد فرسخٍ واحد، إلى الشمال من طريق الجزائر. دكاكين وواجهات صيدليات ونوافير وأحواض، وفي كل مكان جنود مشاة أو فوق جيادهم. ليس هناك عربي واحد. لم يكن ذلك مكانهم. فقبل وصول الفرنسيين، ماذا كانت بوفاريك؟ ينبوع بجانب شجرة حور قديمة في قلب صحراءٍ

---

(1) Horace Vernet رسام فرنسي (1789 – 1863) من أشهر رسامي عصره، تخصص برسم اللوحات العسكرية، والألعاب الرياضية والمواضيع الشرقية. زار العديد من البلاد في الفترة بين 1546 – 1553 منها الأماكن المقدسة في الشام والمزارات المسيحية في مصر ووضع ثلاثة مؤلفات سجل فيها رحلاته عن الشرق.

بالقرب من القبة[1]، حيث كان يأتي العرب بأسمالهم يبيعون الغنم ويشربون القهوة. واليوم، يبدو أن العسكريين هم من يفرضون القانون. وهؤلاء، على المدى البعيد، سيغدون موضع كراهية، كما الكهنة.

عندما رأى الأب بويشو العربة تقترب وتعرّف عائلة باري، داخَله إحساس بالريبة. لقد ظهروا أخيراً؟ قبعتان من اللباد بالحوافّ العريضة، ها هما على الموضة، قمصان بيض وياقات خانقة وأحذية كتلك التي تنتعل في المآتم. أهي زيارة رسمية كما زيارته هو للجنرال في الجزائر؟ «إن كانت بشأن مارغريت، يا أعزائي...».

نادى محمداً، وطلب منه بالعربية أن يركن العربة.

ثم قال لعائلة باري:

– هل جئتم من سيدي موسى؟ لم يحن بعد يوم السوق.

– ... لقد جئنا لزيارتك. فقد مر وقت طويل منذ...

– آه، قال الشيخ، عيد بوفاريك، منذ شهرين.

– أنتم محظوظون بقربكم من المدينة.

– لا تبالغوا. صحيح أنه هناك الكثير من الناس، خاصة يوم الاثنين، ولكنها ليست الجزائر.

– مقارنة بما لدينا، قال السيد باري، نحن في الريف.

«الريف، وإن يكن؟»، قال الأب بويشو في نفسه. نظر إلى السيد باري التعب وقد خدرته ارتجاجات الطريق أو ربما كان السبب حذائه، إذ أخذ يمشي متهادياً بعض الشيء، واضعاً يداً في جيب سترته والأخرى على حزام بندقيته، وقد اختفت عيناه وراء قبعته وحاجبيه. «يا لسماجتهم» أضاف في

(1) بلدية القبة، إحدى بلديات ولاية الجزائر.

سره، متأملاً طول قامة الابن الذي كان يحمل البندقية من الخلف وفوهتها تلامس ذراعه. كان يكفي أن يراهما بوجهيهما ونظراتهما الثقيلة هذه، ليعرف أن بناته لن يلحقن بأيّ منهما إلى الإصطبلات. سيلزمهما الكثير من الوقت كالحيوانات المجترة لا بل تلك الأكثر بطأً، ثيران الحقول، في حين أنه هو، مارجول، لديه ثورٌ مع نجمة في عينيه، وأخرى عند طرف كل قرن.

«هل أزعجتك زيارتنا»، سأله السيد باري «أأنت لوحدك؟».

– زوجتي هنا.

– لديك صبيان.

– لدي ثلاثة. الأصغر في المدرسة مع لايتيتيا والآخران يعملان في سوما.

– أنت تعاني من دونهم.

– لدي عربيٌ، كما رأيتم.

– كم تعطونه؟

– اثنا عشر فرنكاً في الشهر بالإضافة إلى الطعام.

– ربما أن بناتك يساعدنك.

«ها قد بدأنا»، قال بويشو لنفسه مبتسماً، وهو يرى باري الابن يقترب ويميل قليلاً برأسه ليسمع الجواب.

«في الحقول؟ أنت تمزح، هل يفعلن ذلك عندك؟ هنا الفتيات يبقين في المنزل».

وافق باري الابن.

زرع آل بويشو شجر الدلب السامقة كما هي الموضة هنا في بوفاريك،

ويبدو أن قطاف أشجار البرتقال سيكون وفيراً. إذن تمكن الشيخ بمفرده مع العربي من تدبير أموره. وهذا لا ينفي أن المزرعة تحتاج إلى رجل شاب إذ يمكن ملاحظة ذلك بسهولة: في المحاريث التي كان يجب ركنها في المرآب والتي صدأت في الخارج، في فراش الجياد الذي لا يتبدل إلا قليلاً وجدران الإصطبل التي تحتاج إلى الطلاء بالكلس.

«تفضلوا فلنشرب شيئاً».

ظهرت ماري ألدبرام عند الباب وتقدمت مبتسمةً ثم اختفت ثانية. سارعت إلى إحضار الكؤوس. أخذ جان بيار يراقب هذه المرأة النحيفة بوجهها الذي ترك عليه الشقاء آثاره، ومع ذلك احتفظ بتوهجه، على الأرجح بفعل ذلك الذي يخفق في صدرها.

ماذا عن أولادك؟ سألت ماري ألدبرام.

نعم، ردّ السيد باري منحنحاً، لقد زوجنا ابنتنا الكبرى من رجل من أربا. رجل ظريف.

«عسكري، بالطبع»، قال بويشو لنفسه، «إنهم يوحون بذلك».

– هل تشربون الأفسنتين، سألهم الأب بويشو.

– لا، قال الأب باري، مع كل المسافة التي علينا اجتيازها مرة أخرى...

– إذن، القليل من النبيذ الوردي، قالت ماري ألدبرام، هذا لا يمكن رفضه.

– أتزرعون التبغ؟ فهو يباع بشكل جيد. بكم يعود عليك من الأرباح، مارجول؟

– أفّ. ثمانون فرنكاً في الهكتار الواحد، إنها لمأساة. مع ثلاثة عمال

والتمشيط والتسميد والحصاد والتجفيف والتخزين. إنها حفلة كاملة، لا أنصحكم بزراعته.

– يمكننا أن نتخيل، قال السيد باري. نحن نزرع الحبوب ونربي المواشي.

تحدثوا عن المعارك وأعلاف المواشي والبرسيم الذي حصد منه بويشو هكتارين والذي لا يتوقف عن العطاء حتى في الصيف والذي يبيعه للجيش. أما القمح فيعطي بالكاد عشرة قنطارات ولكنه يباع على الأقل بضعف سعر الشعير. والنتيجة نحو المائة فرنك للهكتار الواحد: إنها لثروة. لو دام ذلك ولو تركه العرب يعمل بسلام...

ليس لديك ما تخشاه، قال الأب بويشو، بوجود عسكر في العائلة.

أنت تمزح. كيف ذلك بالمقارنة مع جنرال؟ لا يمكن قياسه بثمن، جنرال. عندما سمعتك تتكلم عن جنرالك في بئر مراد رايس، شككت. كنت مخطئاً، أعترف لك بذلك. بالتأكيد لقد أدهشت أولئك «البيكو»[1].

أتعلم ما الذي جعلني أدهش هؤلاء؟

هذا!، قال السيد باري مشيراً بنظرة إلى البنادق المسندة إلى الحائط والمركونة أعقابها على التخشبية الأرضية. لقد تركنا لهم الكثير من الأراضي، وماذا فعلوا بها: لا شيء. ثلاثة قنطارت من الشعير في الهكتار في سنوات الخير. لو باعونا إياها... لكنت اشتريت أرضهم.

سيد بويشو...

سوف أخرج، قال جان بيار ونهض.

(1) بالفرنسية Bicot أي «المعزاة الصغيرة» من التسميات العنصرية التي كان المستعمرون الفرنسيون يطلقونها على الجزائريين، وقد آثرنا تركها كما هي في الأصل، ومن تنويعاتها الأخرى bic.

«هذا إذن»، قال بويشو في سرّه.

«جئت من أجل موضوع ابنتك مارغريت لأجل ابني البكر. لم يتوقف عن الكلام عنها. لذا وجدنا أنا وزوجتي...»

أشاحت ماري ألدبرام نظرها مثبتة إياه على يديها.

لو فهمت جيداً، فما جئتم تطلبونه، قال الأب بويشو. ليس يد مارغريت بالطبع؟».

بلى.

هممم، تنحنح بوشو ممسكاً بكأسه، ألم تستعجلوا. كم يبلغ ابنكم من العمر؟

أربعة وعشرون عاماً.

في مثل هذا العمر كنت قد كوّنت عائلتي. مارغريت... لو أنكم استعلمتم عنها ما كنت لأقول ذلك. آل باري، أين كانوا غارقين في سيدي موسى؟ لقد خطبت مارغريت، وسوف تتزوج.

توقف للحظة مستمتعاً بهزيمة محدثه ثم تابع بشراسة: «إنه ضابط».

تلاشت الكلمة، رفع كأسه مدعياً أنه يتأمل لون النبيذ في الضوء كي يزيد من سحق معنويات الأب باري. «ليس شرطياً، يا صديقي، بل ضابطاً. ضابط معاون للجنرال، لديه صندوق خزنة بحجم خزانة. ونياشين مذهبة...».

– ساد صمت ثقيل.

– يا للخسارة. قالت ماري ألدبرام. فأنا معجبة بابنك. لديه، لا أعلم ماذا، البراءة، ليس بالمعنى السلبي. وعينان جميلتان. عيناك. هل أن عيون أهل فرانش كومته زرقاء؟

– أجل، رد السيد باري ببرود.

– لمارجول عينان صفراوان، مثل هر. كنت أحب أن تكون لي فتيات زرق العيون.

– لو سمحت لي، قال السيد باري. سيكون سعيداً... لو كان عندكم بنت أخرى...

«هؤلاء الناس»، حدّث نفسه وهو منحن على الطاولة، «يعتقدون أنفسهم في سوق، يشترون عجلةً. فإن أخفقوا في شراء واحدة انتقلوا إلى أخرى». تملّكه الغضب، حاول في البداية السيطرة عليه ولكنه تذبذب في صوته. لم يحصلوا على مارغريت، فيريدون سلبه ماري، ابنته المفضلة، وحيدته...

– فتاتان، صرخ وهو قابض على غليونه مستنشقاً إياه بعنف. لدينا فتاتان أخريان. أهكذا تقفزون من فتاةٍ لأخرى؟ ربما كنتم قد تكلمتم في ما بينكم: «لو وصلنا متأخرين بالنسبة لمارغريت...» أتعرفون، ماري هي قصة أخرى. بالكاد بلغت السادسة عشرة. لم لا، لايتيتيا، التي ما زالت تذهب إلى المدرسة، فهل تعتقدون أنفسكم في سوق بوفاريك!

– اهدأ مارجول، قالت ماري ألدبرام. لقد أسأت الفهم. ليس للسيد باري هذه النوايا. ربما أن فكرة ارتباط مارغريت برجل غير ابنه أربكته، ولأنه يحترمك ويحترم بناتك، لذلك قال إن لم تكن مارغريت... هذا بالعكس، يجب أن يشعرنا بالفخر. على أية حال هذا ما أشعر به أنا.

– ولكن ليس أنا، قال، وهو ينفث بقوة دخان غليونه.

التقط السيد باري قبعته عن المقعد ونهض. فقد ألهب الانفعال وجنتيه وجعل شارباه يختلجان بتقلصات لا إرادية.

«ربما كنا نفضل التمهّل في الزواج، ولكن لا يمكن لأحد أن يخدشنا دون أن يلدغ. شكراً لنواياك الطيبة، سيدة بويشو، أنتِ...» أضاف ملتفتاً إلى الأب وهو يعتمر القبعة.

خرج مختنقاً، ونادى ابنه، هرول نحو عربته واعتلى مقعده. كانت يداه ترتجفان وهو يفك الأرسان المربوطة إلى غطاء العربة. هرع بيار. أسرعت إليهما ماري ألدبرام بوجه مخطوف اللون.

– لا تقنط كثيراً، قالت لجان بيار، أنا أحبك... هناك ماري. وأنت سيد باري سأشرح لك.

– اركب، أمر السيد باري ابنه.

أمسك بالسوط وضرب به، فانطلق الحصان فجأةً وارتجت العربة بقوة.

– ماذا هناك أبي؟ سأل جان بيار.

– ماذا هناك أبي، سترى ماذا هناك. هناك أن هذا النسناس... هل أنك ضابط، أنت؟ وأنا أمام غلامٍ يحسب نفسه ماركيزاً...

امتصّت ارتجاجات العربة فورة غضبه الأولى. شد الرسن وأعاد الحصان إلى سرعته المعتادة. «هولا...» لن محطّم عربتنا بسبب كلمة.

حفلةٌ، آه، كانت جميلة تلك الحفلة!

قبل بلوغ طريق الجزائر وعند الدوار في الطريق المسورة بالقصب ظهرت فجأة عربة. تعرّف بسرعة إلى وجه مارغريت فيها: كانت تقود

برأسها الشامخ وشعرها مفرود على صدغها، عيناها مثل زهرتين، وبينها وبين أختها، كلب الحراسة الضخم الشهير، جالس على قائمتيه الخلفيتين، بعينين جاحظتين ووجه عريض تعلوه أذنان أشبه بخرقتين.

ولكي تلتقي العربتان عليه أن ينحو بالعربة يميناً، بيد أن الأب تابع طريقه مفسحاً للعربة الأخرى بالمرور. لا يمكن عتابه على شيء. رفع جان بيار قبعته. هنا، من يعلم؟ يمكن معالجة كل شيء. كان بإمكان جان بيار أن يضغط على يد والده تواطؤاً ويقفز من العربة ليتقدم ويقول شيئاً ما، لا يهم ماذا. تريد أن تتزوج بضابط، حسناً، ولكن قد لا يكون ذلك نهائياً بعد. لا يمكن أن نتخلى عن فتاة جميلةٍ بهذا القدر، فقط لأن الوالدين لم يتمكنا من التفاهم.

لكن العربة لم تبطئ سيرها، نظر جان بيار وراءه، صرير الدواليب يتردد على الطريق، حاول التشبّث بنظرة أختها لأن مارغريت لم تطرف عينها. هنا استأنف الأب السير. اشتم جان بيار رائحةً غريبة، لم تكن رائحة أشجار البرتقال تحت الشمس ولا رائحة عرق الخيل عندما يحمل معه شذا الخروّب الذي أكله، وإنماعبق ثياب نسائية، رائحة كولونيا، أجساد ناعمة، سعادة، وماذا. ها هي، بهذه الطريقة يكبر سوء التفاهم، ولا يعود من الممكن فعل شيء. نغضب، نتصادم، ننفصل ببضع كلمات ونعاود اللقاء في قلب السهل، تحت لهيب الشمس، بين الحقول الفارغة.

3

عندما توقفت العربة أمام الباحة، ترجلت ماري بسرعة وهرولت باتجاه البيت، يلحق بها الكلب:

- لقد رفع قبعته لنا، لديه عينان جميلتان.

- عينان جميلتان؟ هدر الشيخ. من هو هذا؟ وهل للرجل عينان جميلتان في مثل سنك هذا، إنها لسخافات.

فهو ما زال يعيش حالة غضب ممزوجة بنشوة فرحٍ غريبة. ذلك أن ثوراً مثله لا يمكن أن يحب عائلة باري. لا يمكن شرح أمور كهذه. فمنذ مخيم بئر مراد رايس، وآل باري يستثيرون أعصابه، وكان بانتظار أن يسدد لهم ضربة بأحد قرونه. على أية حال، لم تكن تلك المرة الأولى التي شعروا بها باستلطاف ماري ألدبرام لهم. فالرجال يقدرون بعضهم حسب معايير أخرى: الصرامة والعزة وليس العيون وإنما بريقها، القسوة، وعلى أية حال ليس الجمال. كان يكفي أن تطري ماري ألدبرام على وسامتهم ليشعر بويشو بالغيرة تلتهمه. وفجأةً بدأ يتعلق بالملازم أول، هكتور الجميل، بساقيه الطويلتين كطائر فلامينغو، وقامته هذه. إنه.. إنه رجل.

«عينان جميلتان، لا أريد أن أسمع ذلك ثانيةً...»، أخذ يهمهم.

كان الوقت ما يزال باكراً عندما عادت العربة إلى المزرعة، إذ ومنذ شهر تقريباً، ما عاد هناك استراحة نهارية.

سمعت أورتنس التي كانت تنتظر بترقب، حوافر الخيل. هل ستفقد أخاها أم أنه سيعود مع امرأة تكرهها مسبقاً؟

«ها هما» صرخت معلنةً قدومهما.

خرجت السيدة باري إلى الدرج، يا إلهي، نعم، ها هما. حدسها الغامض وجد تفسيره. حتى لو لم يكن آل بويشو في منزلهم: كانوا سينتظرونهم أو يبحثون عنهم. حتى إن استعجالهما للعودة بالخبر السعيد لا يجعلهما على أية حال يعودان قبل نهاية الأصيل. تقدم رجال الشرطة بدورهم تحت

الدرج. ترجّل الرجلان بثيابهما الاحتفالية. وكسباً للوقت، تظاهر السيد باري بأنه يفحص مقدمة الحوافر وركب والحصان وحواشبه[1]، ليقوده بعد ذلك جان بيار إلى الإصطبل، في حين ركن مفتاح العربة تحت شجرة التين. إنه لجو جنائزي.

رفع السيد باري عينيه وتقدم، أشعره وجود رجال الشرطة في منزله بالضيق: عليه الآن أن يقدم لهم شرحاً.

في لمح البصر وصل إلى قاعة الطعام. لم تكن الطاولة قد نظفت بعد. اشتم السيد باري رائحة البقايا: فالأم كانت قد أعدّت الأرنب بالصلصة، طبقه المفضل، في اليوم الذي يغيب فيه. لقد باتت المزرعة مباحة لرجال الشرطة.

«ماذا إذن، سيد باري، ألم ينجح ذلك؟». عندما روى ما جرى على طريقته، بكلمات قليلة، باغتت الرقيب حازوقة وجعل يمسد شاربيه، وكاد أن يتجشأ بكل أريحية مثل «البيكو» الذين يعتبرون التجشؤ غناء معدة سعيدة.

نهض السيد باري بصمت.

«سنذهب»، قال الرقيب.

«هكذا الأمر إذن»، قال السيد باري لنفسه. ومن أعلى العتبة، تعلقت نظرته على أشجار اللوز. هذه الأشجار، من يدري إن كانت أوراقها هي الأخرى ضدي؟ فما زال الطقس دافئاً، ولكن أوراقها بدأت تسود وتتساقط. وكأنها تتذكر الأرض التي جاءت منها، وتعرف أنه موسم

---

(1) حوشب الحصان هو المفصل الذي يقع بين الجزء الأسفل من الوظيف والجزء الأعلى = = من الرسغ.

التخلص من الأوراق. هناك في أرضها، أولى موجات البرد تلسعها. ففي حين تأخذ الأشجار وقتها الطويل كي تصفرّ، إلا أن أشجار الجوز تبدأ بالذبول، ثم الجفاف والاصفرار في أيامٍ معدودات، وعصفة هواءٍ واحدة تحولها إلى هيكل عظمي وتنبت لها مخالب. «أنا أيضاً، حانت الساعة لكي...»، قال السيد باري لنفسه.

لم يرافقهم إلى الأسفل لوداعهم.

4

خشية من أن يصل الخبر إلى القيادة العامة أسرع مما يتوقع، استبق الرئيس الأمر، وفي أحد المساءات طلب الشمبانيا. وبعد أن أشاع جواً من الترقب طوال السهرة، وعند التحلية، صرخ ملعلعاً: «سوف أتزوج».

كاد دينيف أن يختنق. أما وجه روجيه فأشرق من دون معرفة السبب. بيكار ابتسم، كالعادة وتسمّر الضباط المساعدون في لحظة من الترقّب. وحده الطبيب المساعد من أطلق العنان لمشاعره: القليل من المؤاساة فقط مما يمكن أن يفسر شفقة، مداعبة صريحة في قالب فلسفي. فهو يعتقد أنه سيتم دفن حياة هذا الرجل بالكثير من الأريحية. «يا لها من قنبلة، هذا خبر يستحق الاحتفال، إنه قنبلة حقيقية». ولكن الرئيس بدا أنه يريد أن يسبغ على ذلك دفعة قوية من عزة النفس، متخذاً مسافة حذرة من الآخرين. أهي هموم مسؤولياته الجديدة؟ أم التحدي؟ أم الندم؟

«إذن، لا مرابط بعد الآن؟»، سأله دينيف. على أية حال، ليس مع الرئيس. أولغا، سيتركها لمن يرغب بها، مثل شباب أولاد نايل[1] الذين

(1) أولاد نايل هم قبيلة من أصل عربي من الجزائر، عرفوا بأنهم محاربون شرسون.

تتحدث عنهم مدام أونورين بكل حماسة. لا حريم بعد الآن؟ فتلك قصة أخرى. كيف يمكن التحول من زير نساء عسكري إلى كاهن لوثري، من دون مرحلة انتقالية ما. هذا التكتم خلق جواً من الفتور. بعدها راح دينيف يفكر بما يعنيه حضور الرئيس الشخصي بالنسبة إليهم. جو المائدة لن يعود نفسه، الغزوات الليلية، مغامرات شرفة مقهى أبولون لن يعود لها السحر نفسه. فالفريق يتوه بغير موجّه، ستموت الرغبة وتفقد الأشياء طعمها.

ما عاد الرئيس يتكلم كثيراً. فهو الآن سجين حلم، وصمته هذا ألا يشبه حالة الاستنكار، ممّن ومم؟ لقد أضاعوا البوصلة. كيف يمكن تخيل سبب تبدله المفاجئ هذا؟ تذكر دينيف كيف احتفلوا بما سمّي «العودة من بوفاريك»، عندما تحدث الرئيس عن طيور السمان المطبوخة. هذا، نعم، هذا هو. ولكن بعد ثلاثة أو أربعة أشهرٍ في حين اعتقدنا أنا نسينا طيور السمان... أي قدرة لهذه الفتاة التي أسرت وبضربة واحدة ملك الجزائر! اقترح دينيف تنظيم رحلة يوم الأحد إلى مزرعة سيدي عايد للتعرف إليها ونقل تحيات نقباء القيادة العامة. لكن الرئيس رفض الفكرة بشكل قاطع. «لا مجال لذلك، سترونها في الوقت المناسب. كما أنه ليس من المؤكد بعد إن كان الأب سيستقبلكم».

فكرة أن الرئاسة ستؤول إليه في وقت أقرب مما كان متوقعاً، لم تشعر دينيف بالسعادة فقد خاف من ألا يخلف غريبه مع النصر الذي تخيله.

«سآخذ بثأري» أسرّ الضابط المعاون لنفسه. أي ثأر؟ لا يعلم. ولكنه بالتأكيد ثأرٌ مدوٍ. كل أحلام المجد الضائعة، يكره كل من أتيحت لهم بالولادة أو بالصدف. ومن دون أن يحاول قمعها، تمكنت هذه الفكرة من تحفيزه. «ماذا سأبرهن لهم، أنه بإمكان ضابط بلا ثروة أن يتألّق. لنترك

هذا الزواج يمر، ومن بعده ستبدأ المعركة...».

معركة حول ماذا؟ المراكز، الرتب العسكرية، الصفقات، العرب؟ لن يكون البتة خالي الوفاض. لا يستطيع التفكير بأن يكون مزارعاً. ما الخيارات المتاحة له إذن، أن ينضوي في خدمة جنرال أكثر جرأة من رواي؟ ذلك الخنزير المسنّ دو بيليسييه[1] الذي لا يبدي إلا أشدّ أشكال القسوة. جثة ضخمة فوق ساقين قصيرتين، وخاصرة عريضة وعينان مشعتان تحت طبقة من الشعر القصير الشائب، يحب معاملة الجميع بفوقية. كلماته المتوحشة التي يلفظها بصوته البطيء العميق الأخن، وذلك الانتصار الذي حققه في سيباستوبول وأكسبه لقب دوق دو مالاكوف، وحظوة قنصل روماني. ذات يوم، أطلق أحد معاونيه الذي هدده بالضرب، النار عليه، لكن الطلقة أخطأت. «ستسجن ثمانية أيام، بسبب رداءة سلاحك»، قال له. وقد اضطر الجنرال يوسف إلى ابتلاع عاره مرات عدة معه. ناهيك عن أن ذلك الشرير كان يرفع تنانير الخادمات، ويدعو نساء ضباطه إلى

(1) Aimable Jean Jacques Pélissier شارك في الحملة على الجزائر في 1830، ثم أعيد إرساله ثانية إلى الجزائر كقائد عام لمنطقة وهران، وذاع صيته بعد المجزرة التي ارتكبها في 1854 في جبال الظهرة، والتي تعرف لدى الفرنسيين بانتفاضة الطرق الصوفية التي أراد بيليسيه قمعها، وأمام عمليات الحرق العشوائي فر ما تبقى من السكان إلى الجبال واحتموا .بمغارة يطلق عليه اسم غار الفراشيش، وكان عددهم أكثر من ألف شخص رجالا ونساء وأطفالاً وشيوخاً مع دوابهم، فحاصرهم بيليسيه وجنوده من جميع الجهات وطالب القبيلة بالاستسلام فردت عليه بإطلاق النار، فأعطى الأوامر لجنوده بتكديس الحطب أمام مدخل المغارة، وإشعاله فهلك كل أفراد القبيلة وتوالت هذه العملية يومين كاملين، وقبل طلوع نهار اليوم الثاني بنحو ساعة وقع انفجار كبير داخل المغارة فقضى على من تبقى على قيد الحياة. وبعد هذه المجزرة، وما حققه من صيت، أرسل للمشاركة في حرب القرم، وعرف بدوره في إسقاط برج مالاكوف 8 سبتمبر 1855، في يد الفرنسيين. وتكريماً له سمي بعدها بدوك دي مالاكوف.

منزله ليطرحهن على كنبته على الرغم من زواجه في السادسة والستين من شقيقة زوجة أمين الإصطبلات الإمبراطورية، التي تصغره بنصف قرن. يستفيق في سريره مثقلاً متورماً، ينام نهاراً خلال العمل للتعويض عن لياليه الغرامية. «لا»، قال النقيب غريبه لنفسه، «لا، لن أكون أول من يهدد هذا المتصابي ولكن...». فهو يعرف بأنه لا يحتمل الإهانات. ثم أن الغيرة تلتهمه: «وماذا لو تحرّش بمارغريت؟». حينئذ لمن سيكرّس نفسه؟ للجنرال مارتيمبراي، الذي يشغل صفة نائب الحاكم؟ شخص متسلّط متفان لمرؤوسيه، يحارب به الحاكم بشكل علني، ضد كل الباقين. وصولاً إلى ذلك الجنرال الذي يتهكّم عليه السيد دو رواي؟ «فلنبقَ الآن حيث وصلنا، ولننتظر مناسبة. فأن يحظى برعاية زوجة الجنرال دو رواي فذلك سيكون أكثر حنكة. ستتكفل مارغريت بذلك. فالآنسة القديمة سانت - أوليف تقدر الاستقامة. بالطبع فإن فتاةً من آل بويشو لم تتلق التربية عينها التي تلقتها ابنة نبيل ريفي، ولكن لها ساقان أكثر نحافة ومشية أكثر عنفواناً. هيا، لسنا سيئي الحظ جداً، فكل شيء في أيدينا»، قال في سرّه.

أقيم حفل الزفاف وكان رائعاً. ولعب فيه الجنرال دور الشاهد لضابطه المعاون.

الفصل الثالث

ما يكتشفه السيد دو رواي خلف العرض الذي تلقاه بقيادة حملة عسكرية.

1

على الرغم من أنه كان يكفي، وهو خارج من الطريق الفرعية، أن يكمل طريقه في خطّ مستقيم حتى يصل إلى ساحة مالاكوف، إلا ان الجنرال دو رواي طلب إلى سائقه الالتفاف في الاتجاه المعاكس باتجاه معهد الطب. كان يريد كسب الوقت. فمن مدخل باب عزون حيث رفع نقيب الخيالة يده قائلاً «سنعود»، لم يبق الكثير لاجتيازه. هنا أيضاً، مع أنه يحبّ أروقتها ومحالها، فضّل السيد دو رواي أن يتفادى الطريق الضيقة المعتمة جداً، وأمر بسلوك ساحة نابوليون التي تطل على البحر والمرور بجادة الإمبراطورة. فالأشغال القائمة لربطها بالمرفأ بأرصفة منحدرة وقناطر، جعلتها غير عملية. وفي كل مرة يمرّ فيها السيد دو رواي من هنا يتذكّر المارشال دو بورمون. كان يستحق أن تسمى هذه الساحة الضخمة باسمه. نكران للجميل! في حين رفعوا تمثالاً لذلك الحقير بوجو، ويقال إنه ستكون هناك طريق باسم سانت - أرنو، بيد أن الرجل الذي قدّم الجزائر لفرنسا لا يملك باسمه سوى زقاق نتن في القصبة. ابتسم ساخراً، هل لذلك معنى؟ فهذا العالم يكون في البداية للرجال المحاربين، ثم يكبت الوقت عجيج المعارك والأبواق، ويعيد التاريخ ترتيب المعايير.

تُشقّ الطرق، ويحمّل التراب والبلاط في العربات وعند المرفأ، زوارق

ضخمة في الأفق، تحمل جبالاً من المعدات، باتجاه المرسى. كلّ ذلك على شرف الإمبراطور. وصلت العربة إلى ساحة الحكومة. هنا لم يتجرأوا على المسّ بتمثال دوق أورليون المصنوع من برونز المدافع الجزائرية المصهور، والذي يبدو فوق صهوة جواده وكأنه يحيي الأبرشية. ولثلاث مرات في الأسبوع، تقدّم فرقة الموسيقى العسكرية للموقع، حفلاً موسيقياً تحت السقيفة. أما في الجهة الأخرى، فقد حوّل جامع كتشاوة[1] شبه المدمّر إلى كاتدرائية. وأخذ السيد دو رواي يتأمل مدخله الكبير وهو كناية عن أعمدة من الرخام الأسود بين برجين نحيلين بنيا على الطراز الشرقي. في الداخل أعمدة أخرى من البلاط السماقي تحمل القبة والقنطرة. الصليب مكان الهلال. كما أعيد ترميم المنبر نفسه حيث كان الأئمة يترنمون باسم الله، ووضعت شموع أمام تمثال للعذراء توّج بإكليل من الفضة، غنمه قسيس عسكري من الروس في سيفاستوبول[2].

(1) جامع كتشاوة يعتبر من أشهر المساجد التاريخية بالعاصمة الجزائرية. بني في العهد العثماني سنة 1021 لكنه حول إلى كنيسة بعد أن قام الجنرال الدوق دو روفيغو القائد الأعلى للقوات الفرنسية الذي كان تحت إمرة قائد الحملة الفرنسية الاستعمارية «دوبونياك» بإخراج جميع المصاحف الموجودة فيه إلى ساحة الماعز المجاورة التي صارت تحمل فيما بعد اسم ساحة الشهداء، وأحرقها عن آخرها، فكان منظرا أشبه بمنظر إحراق هولاكو للكتب في بغداد. وقد قام الجنرال روفيغو بعد ذلك بتحويل الجامع إلى إصطبل، بعد أن قتل فيه من المصلين ما يفوق أربعة آلاف مسلم كانوا قد اعتصموا فيه احتجاجاً على قراره تحويله إلى كنيسة، وكان يقول: «يلزمني أجمل مسجد في المدينة لنجعل منه معبداً لرب المسيحيين» ثم هدم المسجد بتاريخ 1832/12/18، وأقيمت مكانه كاتدرائية، حملت اسم «سانت فيليب»، وصلّى المسيحيون فيه أول صلاة مسيحية ليلة عيد الميلاد 24 ديسمبر 1832 م، فبعثت الملكة «إميلي زوجة لويس فيليب» هداياها الثمينة للكنيسة الجديدة، أما الملك فأرسل الستائر الفاخرة، وبعث البابا «غريغور السادس عشر» تماثيل للقديسين.

(2) Sébastopol هي إحدى مدن اوكرانيا. تقع في شبه جزيرة القرم وتطل على البحر الأسود.

أربكته الدعوة للاجتماع لدى نائب الحاكم. لم يشعر بما اعتادوا على تسميته بسحر الجزائر، روائح صغار السمك والمشابك التي تُحمل من المسمكة، صرخات باعة الخضار والسمك، مشهد الخليج بمناراته وقببه، صورة مصغرة عن إسطنبول. عليه أن يكون مجرد ملازم أول كي يتاح له الاستمتاع بهذا كله، البصبصة على النساء وتنشق الروائح التي تنبعث من المحال والبيوت.

يقع فندق نائب الحاكم، عند ناصية شارعي ماهون وبروس. فالجنرال مارتينبري الذي عيّن حديثاً، رفض العرض بأن يستقر قريباً جداً من هنا في قصر حسن باشا عند المارشال دوق دو مالاكوف. أين سيختبئ كي يهرب من هذا الشيخ المشاكس؟ أيتقصد هذه المشاكسة لكي يبدو دائم النضارة ويدهش زوجته الصغيرة أو ليبرهن أنه ما زال قوياً؟ نوع من الشهوة يحرك هذا المارشال. لا يكف عن إزعاج التابعين له بزياراته المباغتة لمراكز القيادة العامة، وتفقده صفوف الجيش حيث يتلذذ بإذلال الجنرالات والباشاوات والقضاة. في حين يبقى نائب الحاكم بمنأى عن ذلك كله.

صعد السيد دو رواي بخفة الدرج المؤدي إلى البهو الداخلي. ودلف مدخلاً مقنطراً إلى المكتب الفسيح للجنرال، الذي تتسلل إليه أشعة الشمس عبر الزجاج اللازوردي.

كان للرجل أسلوب شبه بارد، دائم الترقب. نظرة لا رقة فيها ولا أي ملمح. فلدى المارشال يشعر المرء بالإثارة ولكن إن لم نخف يمكنه الوصول إليه، لا بل وممازحته أيضاً. بيد أن الجنرال مارتينبري يبدو مولعاً بالتأنيب والشجب. وأكثر من ذلك، فقد غطى نفسه بالشارات، كأنه يخشى ألا

تشتهر دائما بانها مدينة المجد العسكري الروسي.

يبدو مهيباً بما فيه الكفاية. وسام درجة أولى فخري، وسام حربي مذهب، وكما العادة، ميدالية الجزائر، دبّوس خيالة من نوع سانت لويس من الإمبراطورية البريطانية، ماذا بعد؟ فقد حمل الضباط العائدون من حرب القرم حملوا معهم مشابك الشعر وشرائط الزينة الإنجليزية. وحتى إنه وضع أيضاً النياشين، واحد حول الرقبة وآخر عند الخاصرة فوق الحزام الحريري مباشرة. من أين حصل عليها؟ من تونس؟ طرابلس الغرب؟ خلال مهمته في القاهرة؟

نهض وتقدم بضع خطوات ثقيلة، فصافحه السيد دو رواي وفق التقاليد، رفع قبعته وصافح يد نائب الحاكم السمينة بعض الشيء، اليد التي تخفي عصبيةً وجفافاً. يجب الحذر منه، فالرجل قادر على اللسع. جبهته العريضة تؤشر إلى ذكائه ونفاد بصيرته، وفمه الرفيع تحت شاربيه المتهدلين يوحي بالصرامة. سأل نائب الحاكم عن صحة الجنرال وجعله يقف لوقت غير قصير، كأنه أراد أن يؤكد سطوة قامته الطويلة ومقامه عليه ثم قدّم له مقعداً وذهب ليجلس خلف مكتبه. «آه حسناً»، قال السيد دو رواي لنفسه غير منزعج من المسافة التي تفصل بينهما، «ها هو الطائر الخطّاف في حقله. ماذا ينتظر منا؟ ليس علينا أن نتفاجأ إن شعرنا بهذا البرود وهذه الصرامة.. رجل كامل الرضا عن نفسه وعلى الرغم من ذلك، فإنه شديد الاحتراز».

صوت نائب الحاكم هذا، يكشف أيضاً عن تركيبته المعقدة. ذلك أنه يفترض أن تصدح من هذه المدفعية المعدنية المرصعة، أصوات بوق. لكن الأمر ليس كذلك على الإطلاق. إذ أنه نوع من طنين النحل الدؤوب متملق مخملي بنغمات منخفضة لعوبة.

«سيجاراً؟».

آه، لا، سيجار بهذه الضخامة عند التاسعة صباحاً، يمكنه أن يخرب انتظام القلب، كيف سيبدو مع سيجار كهذا في فمه؟ عرض السيجار يقصد منه على الأرجح إرباكه. تقلب نائب الحاكم في مقعده.

«عند تعييني، قمنا مع المارشال وزير الحرب بجولة أفق في شارع سان دومينيك، أنت تعرف قيمة هذه الارض بالنسبة إليه...».

توقف للحظات ثم أردف:

– عند ذكر اسمك، تفاجأ المارشال، بأنك ما زلت مجرد عميد.

– ربما لأنني لم أقم بما يلزم.

بالكاد ابتسم نائب الحاكم. فجواب الجنرال دو رواي يؤكد له أنه لو احتاج الأمر فإن الجنرال لن يوفّر بعض الوقاحة. وفاؤه لذكرى الإصلاح المتمثل في ثورتين، واحدة جمهورية وأخرى ملكية، ما زال حياً. أكان ضرورياً تذكيره دوماً بأنه لم يعد إلى الجيش إلا كملاذ أخير؟ فالمارشالان بيليسيه وماك – ماهون هما أيضاً وطآ أرض الجزائر للمرة الأولى مع السيد دو بورمون. الصفقة الرابحة! إنها مسألة طبقات اجتماعية، على الأرجح. وهذا الرد الحاسم، ألا يعني أن نائب الحاكم يقوم من جانبه بما يلزم، أي بالسفالات اللازمة؟

«ما هذا الدجل»، قال السيد دو رواي في سره، «الضيافة[1] أيضاً أقيمت وعلى الأقل استفاد الفقراء من فتاتها، ولكن كل هذه البهرجة حتى الإسبان رفعوا شارات النصر عند باب الوادي من أجل ابنة بلدهم الإمبراطورة.

(1) استعمل النص الفرنسي كلمة diffa والتي تعني الضيافة، أو حفلات الضيافة الفاخرة على الغداء في بلاد المغرب.

في خضم صخب الطبول والبوق والتو ديم، الذي فيه الكثير من النشاز، ارتاح يوسف مع الشارة الكبيرة التي علقها في النهاية الإمبراطور على كتفه ولكن من هو يوسف المتخفي تحت قناع باي، وعمامته ولحيته وثوبه الجلدي المزخرف المضحك وسيفه التركي المحدّب؟ مرتزقة يهودي تونسي، انتقل من شعوذةٍ إلى أخرى ومن عنفٍ إلى آخر ومن الماخور الجزائري إلى الصالونات الباريسية، متدرجاً في الرتب حتى وصل إلى قيادة الخيالة الفرنسيين في حرب القرم...». لم يحتفظ الجنرال دو رواي من كل هذه الاحتفالات إلا بصورة الإمبراطورة الدامعة.

– يرغب المارشال بيليسيه من جهته أن يعلق على كتفك نجمة ثالثة. ولكن في مدينة الجزائر ما عاد هناك ما يحدث. فهل توافق المدام دو رواي على ابتعادك لبعض الوقت؟

– سيدي الجنرال، أنا في خدمتكم...

– إذن، اسمع يا عزيزي. لديّ أخبار سيئة من حيث أتيت من منطقة تقرت[1]. لقد استولينا على هذه الواحة منذ ست سنواتٍ، مع دو باراي[2]، هل تتذكر؟ أنت تعرف كيف استولينا على تقرت. فقد أجبرتنا حرب القرم على التخفيف من تشكيلاتنا العسكرية، وفجأة اندلعت مجدداً الانتفاضة، فهم يعتقدوننا غير مصممين على العودة إلى هناك بقوة. وعليه تقرّرت خطط التحرك ويمكنك أن تطلع عليها فوراً. فقط...».

(1) Touggourt بالعربية تقرت، أو توثورت بالأمازيغية نسبةً لامرأة بربرية شجاعة، تقع في ولاية أرقلة في الصحراء الجزائرية، على بعد 620 كلم في الجنوب الشرقي لمدينة الجزائر.

(2) François Charles du Barail رئيس شعبة فرنسي شغل منصب وزير حرب تحت حكم المارشال ماك – ماهون.

بدا نائب الحاكم وكأنه يفكر. أخفض نظره للحظة، ثم عاود التحديق بالجنرال دو رواي.

– فقط، تلزمني موافقتك الكاملة، دون أي قيد أو شرط.

– وهل بدر مني أيّ تحفظ؟

– فلنقل إنك لا تغامر دائماً، كما استنتجنا أنا والمارشال الحاكم.

– ذلك، لأننا لا نخوض حرباً حقيقية هنا. في سيباستول، أعتقد أنه يمكن التصرف على سجيتنا أكثر.

– لماذا؟ سأله نائب الحاكم وقد اتقدت نظراته فجأة.

– يمكنك أن تعرف ذلك أفضل مني، سيدي الجنرال. فعلى الرغم من أنه ليس لدي شيء ضدهم، وأقصد لا أكنّ أي شعور متعالٍ تجاههم، وحتى إني أكن احتراماً كبيراً لثقافتهم وشجاعتهم، لدي شعور أحسبه صائباً بأن الروس هم أعداء بمثل مستوانا، وبأن لدينا حسابات يجب تصفيتها معهم، لأنهم اعتدوا علينا بدورهم، واحتللناهم واحتلونا وتواجهنا بأسلحة متكافئة وعليه فقوانين الحرب معهم محترمة آمنة.

– أليست هي كذلك هنا؟

– أكنّ لك الكثير من الاحترام الذي يجعلني لا أتجرأ على الإجابة.

بمواجهة نائب الحاكم الذي يخفي هذا الاختبار مدعياً السذاجة، ضمّ السيد دو رواي ركبتيه إلى بعضهما، وقرّب فردتي حذائه متهيئاً للقفز.

– وأيضاً، تابع كلامه، لا يمكنني الكلام هنا عن العداء الموضوعي ولا عن الصراع المعلن. ربما كان ذلك ممكناً في زمن عبد القادر، لكن منذ... كيف يمكننا لوم أهل الجنوب أولئك؟

– أنت واهم. ما عادت هناك حاجة لا للخطاب ولا للحجج. يجب أن نثبت لهم بأننا يقظون، لا بل أنه بإمكاننا استباق الأمور.

– إن كان الأمر محصوراً بذلك...

– بهذا فحسب... مع ترك أثر لمرورنا.

– فهمت.

وأضاف بعد حين:

اعذرني، ولكن ما عدت أفهم الآن، لماذا فكرتم بي؟

انحنى نائب الحاكم إلى الأمام، وأخفض رأسه.

«أنت بالضبط الشخص الذي نحتاج إليه، فوجودك على رأس هذه الحملة الصغيرة، يجنبنا الإفراط. على ذلك أن يطمئنك. سترى بعينك».

قال نائب الحاكم وهو يرفع رأسه. ثم تحسّس وجنتيه، والتقط قلماً.

– كيف يمكننا أن نترك أثراً لمرورنا؟ سأل السيد دو رواي. في أي نوع من الأثر تفكرون؟ على طريقة العهد القديم؟

– هذا الحديث يخص المونسينيور الأسقف. العدالة بالطبع من دون أن نخسر. لست أنا من سيخبرك ما هو الجيش. ستتذكر البدو... وبما أنك تحب الحرب الحقيقية، فستواجه محاربين حقيقيين، أشداء، متوحشين، عازمين... إنهم جديرون بك... ستعيد لهم ذكرى أسلافك الجميلة، التي ربما نسوها. وإذن يا ربي، لِمَ لا؟ يمكن للسيدة دو رواي أن تلتحق بك. هل تركب الخيل؟ فالشتاء في الصحراء ساحر.

لم ينم وجه السيد دو رواي عن أي انفعال. مجرد ارتعاشة عابرة على صدغه. جامد لا يتحرك بشعره المرفوع إلى الوراء وجبهته المستقيمة

ونظرته الفارغة المثبتة على كتفي نائب الحاكم المليئتين بالشارات المذهّبة، بدا تائهاً وسط الصور التي أحيتها في مخيلته كلمة «أسلافك». الأسلاف، نعرفهم. لقد خدم مع مارتينبري نفسه.

«هل ترغب في كوب من لليموناضة، أو كأس من الشمبانيا؟».

هذا هو إذن موضوع الاهتمام المفاجئ: استخدام ولائه لإسباغ غطاء من العدالة على حملة عقابية، التغطية باسمه على الفظائع التي سيرتكبها اختصاصيو الغزوات عند حدوثها، أو لاحقاً عندما تدان.

– أعتقد، قال بصوت بارد بعد إشارة صغيرة تعني أن بإمكان نائب الحاكم أن يحتفظ بالشمبانيا لمناسبة أخرى، أعتقد أن الإمبراطور يرغب في أن يبدو نبيلاً؟

– الإمبراطور لا يرى إلا بعيون قادته الغسكريين. هناك عينان تنورانه: واحدة في الحرب، التي أثبتت نفسها في منطقة القبائل، والأخرى هنا. والجنوب، أليس كذلك، هو واحد من مناطق سلطة المارشال الحاكم. فالأغواط[1] تقع تقريباً على الخط الموازي لتقرت على مسافة سبعين فرسخاً. والمارشال الحاكم سيتابعك بالاهتمام الذي تتوقعه.

---

(1) الأغواط، وهي مدينة جزائرية صحراوية، عرفت مقاومة شديدة للفرنسيين، الذين شنوا عليها في الرابع من ديسمبر 1852 عند السابعة صباحاً هجوماً مدفعياً جربوا خلاله مادة كيمياوية هي «الكلورفوروم» والتي تؤدي إلى تنويم الناس وشلّ أعضائهم بتأثيره على نشاط الدماغ، وبعد ذلك وضعهم في أكياس وحرقهم أحياءً وهم مخدرون، هذا حسب تقرير أوكسينال بودانوس إلى قيادة الأركان الفرنسية للمارشال فيالاتيه فيما يخص التجربة الكيماوية، والتقرير موجود حتى الآن في الأرشيف الفرنسي وهو يتكوّن من زهاء 60 صفحة كتبت سنة 1853. لذلك ما زالت المقولة الشعبية «الأغواط زينة أفسدها الجيش الفرنسي».

منطقة القبائل، الواحات، هذا بعيد... فقد قصد الجنرالات تلك الأنحاء بحثاً عن أوراق السنديان المزخرفة على أكمامهم وياقاتهم، ورقةً ورقة[1]. ولكن في الحملة الثالثة كانوا مارشالات. وبالنسبة إلى السيد دو رواي، سيلطخ نجمته بالدم لأنه لن يكون من مجال للرحمة. لقد تم تجريف المنازل وطعن الرجال بالسيوف وتقطيع الأشجار واغتصاب النساء واحتجازهن مع أطفالهن، وتوزيع البسكويت عليهن واصطحابهن للشرب عند النهر صباحاً ومساءً، كالماشية. نعم، يتذكر الجنرال دو رواي. لقد تحدثوا عن ذلك كثيراً في الأوساط العسكرية! لكنهم من مدينة الجزائر أوقفوا مجزرة النخيل: تلك الثروة المفقودة! تحتاج النخلة إلى خمسين عاماً لكي تطرح ثمارها.

أتذكر الأغواط[2] بالفعل، هناك حيث قدم المارشال بيليسيه كوب ماءٍ لجنرال من الزواويين.

ذاكرتك قوية.

في ذلك اليوم، وأمام الأكفان وبّخ بيليسيه الجنرال الذي يقود الزواويين لتركه الجنود يبيعون الأسلحة الثمينة التي سرقوها. هو نفسه اشترى بمائة بنس بندقية كابوسين فضية بطلاء مرجاني: «لقد لوثت انتصاراتنا»، صرخ في وجهه، «سأحولك إلى محكمة عسكرية». وعندما فك الكولونيل حزامه ورمى بسيفه عند قدميه، أمره بيليسيه بأن يعيده، ثم وفي صمت دراماتيكي: «أتبكي، أيها الكولونيل؟ ها إذن اشرب كأس ماء. سيهدئ أعصابك». ثم صعد كاهن الجزائر الكبير إلى المذبح وترنّم بالصلاة لراحة

(1) أي الترقيات التي تترجم بالشارات معسكرية.

(2) مدينة الأغواط هي إحدى المدن الجزائرية المتوسطة الحجم تقع في قلب الجزائر.

الموتى.

«أشعر بالإطراء، سيدي الجنرال»، قال دو رواي، «لأنكم فكرتم بي لأمشي على خطى المارشال الحاكم. هناك كلمة صدمتني. جعلتني لوقتٍ طويل أتردد في العودة للخدمة في الجزائر. أتسمح لي بالكلام؟»».

استرخى دو رواي. حتى إنه أسند رجلاً فوق رجل، واتكأ جانباً على مسند الكنبة.

رفع الجنرال يداً أبوية.

– قل عزيزي. فالكلام يبقى بيننا.

– هذه الكلمة مصدرها رجل أعتبره شخصياً شاعراً بكاءً، وعلى الرغم من سمعته الضاربة هذه، فهو رجل شجاع وذو موهبة. يحصل – ونحن هنا لا نتكلم عن القسيسين فالله يلهمهم بمشاعر تمنعنا ظروفنا من مشاركتهم إياها– يحصل أن كتاباً يتورطون لوقتٍ في السياسة، ليشتهروا من خلالها أكثر من شهرة أعمالهم الأدبية. هذا هو حال السيد دو لا مارتين[1]. على الأقل هذا رأيي.

– حسناً، وماذا قال؟

في الجلسة التي نوقشت خلالها ميزانية الجزائر، ما عدت أتذكر في

---

(1) Alphonse Marie Louis de Prat de Lamartine الكاتب والشاعر الفرنسي (1790–1869) كان لامارتين ينتمي إلى طبقة النبلاء الفرنسيين، وقد أصدر أول دواوينه «تأملات شعرية» في سن الواحدة والثلاثين وأصبح بين ليلة وضحاها شاعراً كبيراً. وبعدئذ انخرط لامارتين في الحياة السياسية وأصبح نائباً في البرلمان. وقد سحر زملاءه بخطاباته الشاعرية المؤيدة للشعب، إذ كان كان لامارتين خطيباً من الطراز الأول. فهو ذو الأصل النبيل والارستقراطي أصبح من كبار مؤيدي الثورة الفرنسية التي اطاحت طبقة النبلاء الارستقراطيين وامتيازاتهم الضخمة. وقد عارض بشدة حكم الملك لويس فيليب وكان أحد قادة الثورة الشعبية الشهيرة عام 1848.

أي عام، قال لامارتين نائب منطقة ماسون[1]، مستحضراً الحرائق التي اشتهر بها المارشال الحاكم: «يداي ملطّختان بالفظائع. فلن أبسطهما إلا قليلاً...».

– وهذا ما أثّر بك؟

– لقد عبّر عن ذلك بطريقة أخرى، وليس بهذه الخفة، مع وثائق رسمية. لن أنسى ذلك قطّ. التقرير السري لمجلس الحكومة، كما أعتقد، كان يفيد: «عند إبادة السكان المحليين، عليكم التأكد إذا كانت هذه الوسيلة في إحلال الهدوء عملية»، في النهاية شيء من هذا القبيل. ولكن كانت هناك كلمة «إبادة». في المحصلة، أتريدني أن أكون شاهداً على الانتقال من الأخلاق إلى اللاأخلاق؟».

استنشق نائب الحاكم الهواء وتركه يخرج صفيراً من بين شفتيه.

«لقد نُسي لامارتين منذ أن أخفق في الانتخابات الرئاسية. فكّر. ما زال عرضي قائماً. سأقول لك حتى إن هواجسك هذه هي التي ستمنح هذا العرض قيمة أكبر. ما زلت شاباً يافعاً ونحن نحتاج تماماً إلى شخص شاب في تقرت، لا أولئك الجنرالات الذين يتعبون من ثلاثة أيام فوق الخيل. نريد قائداً متحمساً، ديناميكياً يعبأ بمعنويات جنوده وبالحق، فارساً مثلك يا عزيزي. اترك الأمر ليلة واحدة، وأخبرني غداً بقرارك. وليكن كما آمل».

(1) Mâcon مقاطعة فرنسية في منطقة بورغون، حيث ولد الشاعر والكاتب الفرنسي ألفونس لامارتين.

2

أعلن السيد دو رواي بأنه سيتناول غداءه في منزله، وترك الحرية لمعاونه. فمنذ عرس بوفاريك وهو يشعر براحة أكبر معه. شيء ما حصل جعل النقيب أكثر إنسانيةً وحوّل تقريباً ولاءه إلى لطف، بيد أن السيدة دو رواي كانت تخشى أنه إنما يخفي بذلك مشاعره الحقيقية.

انزوى في مؤخرة عربته، أقفل الشبابيك وطلب من السائق أن يستحثّ الجياد، ووصولاً إلى قصر الآغا، ترك نفسه يتهادى بلا حراك فوق الطريق المبلطة، حاجباً نفسه عن مشهد الجزائر.

وما إن وصل حتى هرع إلى السيدة دو رواي التي لم تكن بانتظاره. كانت قد أنهت للتو تسريح شعرها، وقد فاجأها اضطرابه.

«ماذا هنالك، حبيبي؟».

يداها على ضفائر شعرها التي كانت تتحضر لرفعها، استدارت لكي تراه على نحو أفضل. كان يغلي.

«بما ينفع أن أخفي ذلك بما أني عدت أساساً بسببه؟ ما حصل أنهم قدموا لي عرضاً للتو لقيادة حملة إلى الجنوب. النجمة الثالثة، أفهمت؟ ولكن من أجل مهمة كهذه...».

تركت السيدو دو رواي ضفائرها تنسدل على ظهرها، وشبكت يديها فوق كاحليها. «آه! يا إلهي...»، قالت في سريرتها.

مهمة أخرى غير مهامك؟

مهمتي هي شنّ الحرب لا التدمير أو الحرق والقتل بغير رحمة. إنها مدرسة سانت – أرنو السائدة هنا، ويدفعونني لكي أقلدها. آوه لقد عرضوها بطريقة مهذبة، امتدحوني! إنهم بحاجة لاسم يغطي على ما

يعدّون له. وأنا؟ كيف سأتجرأ على النظر في عيون الآخرين بعد ذلك؟

اهدأ، قالت بصوت رقيق. ألا تعتقد أنك بنشدانك حرباً نظيفة، فإنك تعانق وهماً؟ أفهم بأنك لا تحتمل الحرب أو تكرهها بسبب كل ما تتسبّب به من فظائع، ولكن حقيقة الأمر أنك تحبها، حتى إنني أسال نفسي ماذا كنت ستفعل من دونها، لأنني لن أكفيك وحدي. لا تعترض. أنا أعرف. فمثلك الأعلى هو السيد دو بورمون، وبعد ذلك؟».

«لا تتسرع»، أكملت في حركة آمرة كالجنرالات، «عندما نشفق مثلك على مصير المارشال دو بورمون... لقد تحول إلى اسم، رحل يبحث عن الدوقة دي برّي في البرتغال، ثم عاش في روما مفلساً وسط المنفيين. وعندما أتاح له العفو العام العودة، كيف استُقبل؟ رشق بالطماطم. وذهبت أنت لرؤيته. الأوفياء، أليس كذلك؟ كم كان هناك من أناس حوله؟ هل تتذكر الشخص الذي حملته إليّ؟ كان قد تحول لقطعة مومياء، بطلك هذا! جررناه إلى المائدة، أسندناه إلى المقعد، ووضعنا له الفوطة حول عنقه، تناول مثل آلة جرش، من دون أي كلمة مسدلاً رموشه. وكيف مات، حين كان السكان يطلقون صرخات الكراهية تحت جدران القصر، كان هو يأكل شفتيه متمتماً: «سأذهب لرؤية ألكسندر، سيزار، شارلمان...».

– أهكذا تحب أن تنتهي؟ أنت لا تحب المارشال بيليسيه وأنا أكثر منك لا أحبه، ولكنه بالغ القوة. سيقضي على صيتك. وهذا المارتينبراي، من أين يأتي؟

– من إصطبل. إنه ثور.

– احذره على أية حال.

– تبدين متعلقةً جداً بالجزائر؟

- أنا؟ صرخت السيدة جنرال بصوت عفوي. أبداً، أنت تعرف. كل شيء هنا مزيف. هذا الضوء وهذا البحر، يا للسأم! وحفلات الاستقبال عند زوجة المارشال، أنت تعرف بما أرغب.

- إذن، قال السيد دو رواي، علينا أن نرحل. لا يمكن أن نفهم ما يتم إعداده. لدي شكوك، ولا أريد التورّط في ذلك. أهذا ضعف؟ فلنفترض ذلك. ولكن لكي نقاوم أولئك الناس علينا أن نشبههم وقد حاولت كثيراً، لا! أنا أعرف أولئك الرجال. لن يكفّوا عن التآمر عليّ، لذا سأرحل. أعليّ ألا أكترث لأمر الواحات ومن سيقتلون هناك، لأني ماذا؟ عطّلت ضميري؟

- هل لأنك سترفض؟

- بالنسبة إلي، لا يمكن مناقشة أمور كهذه. أعتذر على إدخالك في تقاعد لا ترغبين فيه.

- أنا أفكر بك أنت، نيكولا.

نظرت إليه بحنو. فهما لا يخاطبان بعضهما بصيغة المفرد إلا في اللحظات الجليلة، عندما يغدوان امرأة ورجلاً على مستوى واحد، وتسقط بينهما كل الحواجز. ففي البداية، وعلى الرغم من محاولته مخاطبتها بصيغة المفرد إلا أنه عاد واختار صيغة الجماعة لتأكيد شبابها، ومن بعدها درج على هذه الصيغة. واليوم يستعملونها حتى في اللحظات الحميمة. فهذه الـ «أنتَ» التي أفلتت عفو الخاطر الآن من زوجته أثّرت به.

إنها تراوغ قليلاً برمي المسألة برمتها في ملعبه، ولكن بمناداته باسمه وبصيغة المخاطَب، والتي تمنعها الظروف غالباً من استعمالها، شعرت أنها في قلب المسؤولية حزينةً قليلاً تغمرها موجة من المرارة. لكنّ سلاماً

غمرها، ومن دون أن تعي ذلك عادت لمخاطبته بصيغة الجمع.

– لم أقل إنني أوافقكم الرأي، ولكنني اخترتكم.

– إذن، قال الجنرال، واضعاً يديه على ركبتي زوجته، سنترك الجزائر بكرامتنا. وسأقيم لك حفلة، وليس حفلة عادية، بل ضخمة، واحدة من الحفلات التي يتقن آل رواي إقامتها. على الطريقة الروسية.

سيتركون عيد الميلاد يمرّ ومعه واجبات رأس السنة المنهكة. ثم سيكون عليهم أن ينتظروا من الوزير الجواب الذي لا يشك فيه أحد، فمن يرفض رحيل ضابط عام؟

وصل الجواب صارماً ورسمياً. فتقرر الحفل يوم السبت بعد عيد الغطاس. الأمر هنا ليس استقالةً، بما أنه لا يمكن لأحد أن يستقيل من كهنوت الجيش، بل هو تغيير مواقع.

فلم يسبق رحيل عميد على أهبة ترقيته إلى لواء، مما جعل الناس ينظرون إلى السيد دو رواي بمزيج من الإعجاب والشفقة. فلاتخاذ قرار كهذا، يجب أن يتمتع بخلفيات قوية، وأهداف مستترة، وماذا أيضاً؟ فما إن كشف الخبر حتى انتشر كالنار في الهشيم. ذلك أن قراراً كهذا يقوم على خلفيات أكيدة ودوافع خفية، ماذا أيضاً؟ إلا إذا كان السبب متعلقاً بالصحة؟ ولكن الجنرال يبدو مذّاك، متّقد الحيوية على غير عادته. وهذا يعني أنه مغتبط. يبدو أن منصب وزير أو سفير ينتظره إلا إذا كانت هناك ثروة باهرة تجبره على الانسحاب.

السكينة التي شعر بها فاجأته هو نفسه. كان يهيء نفسه للألم فباغته شعور بالفرح إلى درجة أنه اضطر إلى تمالك نفسه. ملأت البهجة كيانه وجعلته يشع ويحرك مشاعر زوجته. فللرجال ردود فعل غير متوقعة:

فهم حيوانات لا يمكن التنبؤ بانفعالاتها. الأخلاقيات؟ لا يمكن تصديق ذلك. ذات صباحٍ، وقد حلق ذقنه وارتدى ملابسه بكل أناقة وأريحية على جاري عادته مع قبعة مزخرفة وزوجي حذاء نصفي عكف مؤخراً على تلميعه يومياً، قدم نفسه أمام زوجته بقفازين أبيضين وبكامل أناقته. «احتفال عسكري؟» لا أبداً. نزوة. «تخيلوه احتفالاً بشرف شخصي. فالضمير النظيف يعني الكثير».

أحياناً يلوم نفسه لأنه تنازل بسهولة. ألن يندم لاحقاً على هذا النصر الذي لا نصر فيه، الذي لا يمكن أن يكون درساً لأحد، والذي لا يستدعي حتى ابتسامة؟ مستقبل فرنسا في الجزائر الذي يبحث عنه، يعرف أنه يكمن في الجبال، تحت حوافر حصانه، وبدل أن يختبر هذا الاكتشاف، استقال.

وعند هذه الفكرة، ابتسم. لم يكن حراً. فالمارشال الحاكم، كان ليضغط عليه بردود إلزامية وبتعليمات. القيادة العامة تتكون من أساقفة يؤمنون بالقوة وبتلقين الدروس وبقيمة الدماء ويعتمدون مبدأ القصاص مواكبةً للموضة: «العين بالعين...». وعند أول فرصة، كان سيكون عليه تطبيقه وكان الجنرال ليقصيه. «آه، حسناً، كنت لسببت فضيحة وأحدثت ضجة، وكانت لتطن أذنا الإمبراطور، وأمام فشل أي سياسة عسكرية ما، كان الأمر سينتهي بالقول إنه خطأ أولئك الكهول السذّج». هذه هي الدعوى. فمنذ عشر سنوات ربما كان النظام قاسياً وكان هيكله متماسكاً... وهذا ما لم يؤدِ لشيء. «امرأة أخرى غير سابين، أسّر لنفسه، لكانت دفعتني للمشاركة وحاربت بأظافرها وأسنانها، وكنت لذهبت...». لام نفسه على هذه الفكرة. كان يجب أن تولد هذه السيدة في آل رواي ولكن

لا... حسناً. راهبةً بدلاً من امرأة متهورة. لا حظ، فالرجال يصبحون على ما تجعلهم عليه نساؤهم. وهذه المرأة التي كاد يقتلعها من محراب الرب، أعادها الرب له.

وقد استنتج، وبعد استعراض الجميع، أنه ليس ثمة في الجيش من يستطيع أن يفصح له عما يعتمل في داخله. لا أصدقاء. فالجنرالات الوحيدون في الثكنات، لا يفكرون إلا بلثم يد المارشال. يمكن أن يقتلوا بعضهم بعض من أجل صندوق عصير برتقال من الجنرال. وكلّ الضباط برتبة لواء هم في المبدأ إما قضاة وإما أعداء. الجنرالات إذن؟ لا، كان من الخطر دائماً البوح لهم بالأمور الخاصة. وماذا عن قادة أفواجه الزواويين؟ جميعهم أنصار النظام العسكري، مخبولون بالأفسنتين والحياة العسكرية، ينظرون بريبة لعقيدته السلمية.

الصداقة تقوم عندما يتم تقاسم التجارب أو النساء بشكل متساوٍ، إذ لم ينشأ يوماً بين الضباط العامين سوى التنافس. وحدهم الضباط الشبان والجنود العاديون يعرفون كيف يكونون «رفاقاً»، كما بدأ الجميع يسمون ذلك. فالجنرال لا يمكنه أن يتكل على أحد سوى ربما على ضباطه المساعدين، وعلى الرغم من صعوبة ذلك ومن فارق العمر والرتبة فقد يحدث أن يشكل الإخلاص والعاطفة وسائط جميلة، حتى مع رجال مثل غريبه.

شعر السيد دو رواي فجأة بالحاجة إلى رؤيته. فناداه. إذ بدأ يسري بينهما، وبسبب اقتراب افتراقهما، نوع من العاطفة.

– هل لديك زوار ما؟ سأله السيد دو رواي.

– لقد رحلوا جميعاً.

- والفرقة الموسيقية؟
- تقوم بالتمارين.
- فكرت بأن على الزواويين الذين طلبت منهم تقديم الخدمة وألبستهم على الطريقة الفرنسية، أن يقدموا الكثير من الثلج للشمبانيا. كم لدينا من دعوات.
- أكثر من خمسمائة.
- إذن يجب تأمين ضعف العدد من القناني.
- ألا تعتقد بأن ذلك سيكون كثيراً.
- يا عزيزي، السيدة زوجتي تجعلني أحدس بأني سأنتهي مهملاً كما المارشال دو بورمون. على أية حال، أنا لن أغادر مثله. سنترك أفريقيا بطريقة صاخبة مشرفة وليس هناك أجمل من الشمبانيا والموسيقى الجميلة لإضفاء روح على الحفل. سنرقص حتى الصباح. وبطبيعة الحال، مدام غريبه ستكون حاضرة. ستذهب لإحضارها من بوفاريك، وستحضر معها في الوقت نفسه والدتها وأخواتها. سنسكنهن جميعاً في القصر. وإن أراد عمك مرافقتهم سيكون مرحباً به أيضاً، ولكن أخشى ألا يناسبه الجو.
- هو يفضّل البقاء في المزرعة.
- سترى. ثم لديّ خبر جميل لك. لا يمكن رفض وصية. فأنت تعلم بالتأكيد أن هذا ما يطلقونه في الجيش على الأمنيات الأخيرة لضابط عام سيترك مكانه: لقد تمكنت من إدراجك على قائمة الترقيات الإضافية. ستصبح نقيباً هذا العام. لا تشكرني. لقد انتظرتَ طويلاً. يبقى أن تختار فقط موقع عملك. هل فكرت به؟

- أحب أن تكون البليدة.

قمع الجنرال شعوره بالإحباط. آه! فبليدا شهيرة بثكنتها العسكرية، بوحداتها العسكرية الخمس وكتيبة الزواويين وكتيبة الرماة وجنود المدفعية! أي لا إزعاج كما في الجزائر. هناك كل الحجج متوافرة لتسلق الجبل وإشعال النار في بعض المشاتي، والعودة ببنات يوضعن في ما يسمى المدارس الداخلية في الحي المغلق. الحياة الجميلة، سيكون لديه وسائلها. في مقهى شابيس، في ساحة السلاح حيث يستمر الغناء حتى نهاية نوبة الصباح حول طاسات الخمر. كان الجنرال ليحب كثيراً البليدة إلا أن سلطته توقفت عند حدود بوفاريك.

«ستتعلم فيها الكثير وستقارن. آخر نصائحي التي أسمح لنفسي بإسدائها لك هي أن تبقى كما أنت. لا تسعى إلى الثروة. قد تجيبني بأنني أتكلم بهذه الراحة لامتلاكي صناديق ملأى بالمال. أنت تعلم، ثروة آل رواي ليست بالأمر المهم: دروع مارشالات وبعض قصور حل بها الخراب مع أراضيها والكثير من الأوسمة في الخزائن الزجاجية. هي أثقال أكثر مما هي عوائد. ولا تندم أيضاً لأنك لم تتزوّج زواجاً عظيماً، فهذا ربما نصيب الناس الأفضلين. لا تكن دائماً ميالاً إلى انتزاع كل ما تجده في الغزوات. أترك ذلك للرعاع. لا تعد من الحملات بالصواني والأباريق أو الأسلحة مثل أولئك العائدين من بكين وشنغهاي المثقلين بالذخائر الفخورين بأنفسهم، أحجار اليشب، الخزف الصيني والتماثيل البوذية. وأنا أستبعد كثيراً ان يكون الصينيون هم من قدموا لهم ذلك. وحتى لو أن عرباً حملوا لك ذلك إلى خيمتك، فلا تقبل. ثروتك هي شرفك، زوجتك، والولد الذي سترزق به قريباً. وأتمنى أن تكون أيضاً عدالة قضيتك. بالنسبة إلى

ولدك، أتقبل بي عراباً له عند عمادته؟».

تورّد وجه الضابط المساعد خجلاً، فهذا الجنرال الصغير، يجعله شيئاً فشيئاً يكوّن فكرة مختلفة عن الجيش. أبمجرد الصدفة كان ليكون هذا النقاء الذي تحدث عنه السيد دو فينيي؟ بالطبع، النزاهة والإخلاص، لا يمكن تدريسهما ولا يمكن أن نصبح ضباطاً دون تعزيزهما. ولكن في أفريقيا، يبدو أنه يتم التعاطي بخفة مع الفضائل الأساسية. هنا الجيش هو مرتع للسرقة، ليس بالنسبة إلى الجميع، فما زال هناك قدّيسون.

«بالطبع، أكمل الجنرال، سأشعر بالأسف لأني لن أكون هنا. حدّد لي أحد رفاقك، لديك بالطبع بعض منهم هنا، شخص يحبك وتحبه، لكي أعيّنه نائباً لي. لن أنسى ابني أو ابنتي بالمعمودية، فيوماً ما يمكنني أن أكون مفيداً له... أترى، يا عزيزي، في النهاية، انتهى بنا الأمر لأن نتمكن من التفاهم. يمكنني أن أخمّن ما كنت تشعر به تجاهي حتى لوقت غير بعيد، وأنت من جهتك لقد تحملتني أكثر من مرة. ثم... هيا. هذه الحفلة، أليس كذلك؟ أنا أعتمد عليك».

الفصل الرابع

كيف يمكن في غضون شهر تبديد مدّخرات عام كامل من المرتب الوظيفي. ومفاجأة السيدة دو رواي بوصول مارغريت وولادة شغف جديد في قلبها.

1

استبدت بالسيدة دو رواي حماسة لم تطق حيالها صبراً. فاستحال تحفظها الأولي على دعوة الجنرال فتيات بويشو الصغيرات، إلى رضى تام. ففي النهاية، الأمر يتعلق بوعد، قطع بخفة بعض الشيء، وبما أنه تم المضي فيه... وعلى الرغم من أنها لم تحضر الزفاف، ليس مخافة الضجر وإنما في الحقيقة بسبب نفورها من هذا المحيط، إلا انها كانت تشعر بالحشرية للتعرف إلى فتيات بويشو الصغيرات، ولكن عندما رأت مارغريت وأختها الصغرى تترجلان من العربة، لم تستطع إخفاء فرحتها.

بحركة لا يمكن تفسيرها، اندفعت نحو الشقيقتين، أمسكتهما بيديهما، ورفضت أن تلمسا حقائبهما البائسة واصطحبتهما معها. نظرة واحدة إلى ماري أكدت لها أنها ما كانت لتفسد السهرة. فللفتاة الصغيرة ملامح بريئة، فم عذب وعينان براقتان ومشية واثقة، أما مارغريت.... كيف يمكن لضابط بالكاد بدأت بالحكم عليه بطريقة أقل قسوة، أن يحصل على زوجة كهذه؟ لم يكن فيه ما يمكن أن يشير إلى نبل محتده سوى يديه النحيفتين، أما وجهه وعيناه وقامته، فلا شيء فيها من هذا.

«هلا عذرتني لعدم تذكري اسمك؟ وأنت...»، أضافت، متفاجئة

بحماستها، «ناديني سابين. أجل، أجل، فأنا أشعر أنني أختك الكبرى. تصرفا على راحتكما».

في البداية كانت قد خصصت للعروسين الجديدين مكاناً في دارة الضيوف، ولكنها رأت أن ذلك ليس لائقاً بمارغريت، ففتحت لها أجمل غرف القصر التي لا يفصلها سوى رواق عن جناحها الخاص. وماري بجانبها في غرفة أصغر. في الحقيقة ما عادت قادرة على ترك مارغريت. بحجة السهر عليها أرادت أن تكون بجانبها لتركض لمساعدتها في حال أي طارئ. لم يكن هناك ما يعزلها عنها، سوى فاصل سميك بما فيه الكفاية حتى لا يصل أي صوت أو نفس، وخفيف بما فيه الكفاية حتى يكفي الخبط الخفيف عليهلإحداث إنذار ما.

أفاقت في الليلة التالية، وأصاخت السمع بطريقة لا واعية. صوت بعيد مكتوم مثل شخير حيوان نائم: البحر... شهيقه الطويل المتقطع بعد ارتطامه بالهضاب، بعدها استدار الجنرال وجعل يشخر. أوه، ليس بهذه القوة. فحمحمة حنجرة تكفي لإزعاجها. كان بالإمكان أن تغفر كل شيء للواء... حسناً. لقد انتهى إذن كل شيء. فالإعصار الذي اقتلعها من جزر شبابها رماها أمام مستقبل من التقاعد. عليها أن تتعود ذلك. ذكريات جميلة؟ بالنسبة إليها وهم أنها أحبت، وبالنسبة إليه كونه كان منذوراً لشيء لم يحقق منه في النهاية سوى إراحة ضميره.

تنبهت لتعاستها. ففي الناحية الأخرى من الجدار الفاصل، كانت مارغريت، شقيقة روحها، تستلقي، أكثر توقاً منها. رغبت بضربات خفيفة على الجدار. «يا إلهي»، كلّمت نفسها، «إني مجنونة...».

في اليوم التالي، تبدّل الطقس وهو ما فسّر همهمات البحر في الليل.

وفجأة بدأت السماء تتوعّد، وهبّ هواء غربي حاملاً كتلاً هائلة من الغيوم غطت تدريجياً أعالي الجبال، وانحدرت حتى سفوحها حتى ابتلعتها بالكامل ثم غزت السهل والشاطئ لتتبدد بعدها في شلال. بدا في البداية أنها لن تمطر لكن انسداد الأفق من كل الجهات، وقوة العاصفة المفاجئة واهتياج الجياد والطيور، كل ذلك أنذر بواحدة من العواصف الشتوية الطويلة. وأرخت الغيوم الكثيفة ظلمةً على المدينة برمتها. ارتفعت مياه البحر وبدأت أمواجه تضرب الشاطئ. أخذ الجميع يراقبون برعب. زوابع مائية تصفع النوافذ، وتتسرّب من تحت الأبواب وتغرق الحديقة والممرات، ونوارس تحلق منخفضة وهي تزعق.

أشعلت السيدة دو رواي النار في صالونها وتحلقن هي ومارغريت وماري أمام مدفئة يتصاعد منها الدخان. في هذه البلاد، أيّ تبدل في السماء يمكن أن يكون مفاجئاً. يستطيعون الاحتماء من الحرّ، لكن شيئاً تقريباً لا يحمي من البرد والشتاء. فابنتا بويشو أنفسهما جاءتا بلا معاطف. وعلى أية حال، هل تملكان أساساً المعاطف؟ دثّرتهما السيدة دور رواي ببرنسين. اختارت البرنس الأضيق ناصع البياض لمارغريت، وقدمت آخر أوسع بقليل لماري، وطرحت على كتفيها برنساً أسود وهو اللون الذي يليق لها. تقرر تأجيل الحفل لأسبوع لزموا خلاله المنزل وباتوا يتناولون الغداء باكراً لينسحب بعدها كلٌّ إلى غرفته.

ظلت العاصفة تهدر طوال الليل. تيارات تجرف الهضاب وترفع نسبة المياه في الجداول التي حولت السهل إلى مستنقعات وهدير البحر القوي يملأ الليل وأنوار الشموع تضطرب. جلست مدام دو رواي أمام المدفئة في غرفتها تلقم النار بالحطب.

- آه، حبيبتي، قال الجنرال في سريره، يبدو أنك أنت أيضاً ضربتك العاصفة.

- أنت لا تتأثر بالأعاصير. إنك محظوظ.

- في النهاية، إنه الشتاء. من أي زوبعة تعانين؟

- فاجأها سؤال زوجها.

- لا شيء حبيبي.

- وكأني لا أعرف أنك مكتئبة. أنت الحريصة جداً على ألا يكون هنا أحد، وها نحن لا يمكننا تناول الغداء وحدنا. اصبري. خلال بضعة أشهر، ستشتاقين إلى زحمة هذا المكان. أو ربما أن هذا التأجيل يربكك؟ غداً سيحمل السعاة رسائل دعوة أخرى. أنت تعرفين هذه البلاد. يتسمرون في منازلهم ما إن تسقط ثلاث قطرات من الماء، ثم يعود كل شيء إلى سابق عهده. ستنجح حفلتك.

ولكنها اكتفت بالصمت.

«أو ربما كنت آسفة على عنادي؟».

منذ البارحة والسيد دو رواي يتساءل. فبرودة زوجته لا يمكنها أن تضلل سوى الغرباء. أما هو فلا يخطئها أبداً. بالطبع، تبدي أحياناً في الحياة العادية نوعاً من اللا مبالاة الممزوجة بشيء من التشامخ. في بداية علاقتهما، كانت تهيم غالباً في أحلامها. ومن خلال إشاراتها التي بالكاد يمكن تبيّنها، اعتاد أن يميز بين رغبتها وعدم رغبتها. ومنذ وصول مارغريت، ثمة ما يقلق بالها، ليس هو نفسه قلق الأيام التي سبقت حين كانت تناقش مسألة اختيار المدعوين وعدد كؤوس الشمبانيا والمفارش أو موقع الفرقة الموسيقية. فهي أساساً من طلبت تغيير غرفة الزوجين الشابين

وشقيقة مارغريت. أو أنها... «لا» قال في سرّه، «هذا مستحيل» ثم لام سريعاً نفسه على هذه الكلمة. فمع روح كروح سابين، كل شيء ممكن.

– هل يمكن أن تكوني، لا يمكنني أن أتخيل، أنك مغرومة بمساعدي؟ أقول ذلك لكي أستفزك، الآن بما انه لم يعد عازباً. لا؟ أأنت متأكدة؟ أعترف بأنه لم يعد هو نفسه. ويمكنني الذهاب إلى حد القول إن بإمكان عيوبه أن تكون لصالحه. فليس هو من يرفض أن يقود حملة على تقرت، آه للأسف لا.

– أنت مجنون.

ربما تركت بعض الإشارات تفلت منها وتدل على صراعٍ داخلي؟ ولكن أي صراع داخلي؟ ومن يسببه؟ دفعتها الفكرة إلى التبسّم، ثم صدمتها عندما اكتشفت الأمر بنوع من الهلع. عندما سألها الجنرال، تبادر لها السؤال كيف يمكن أن تقترب أكثر من مارغريت. هذه العاصفة التي ضربت كل شيء وهدرت، هذا البحر الذي تكسرت أمواجه قريباً من هنا، حتى إنه أمكن تنشق رذاذه....

«إنه هذا الطقس...»، أضافت.

من أجل الحفلة، ستعير مارغريت فستاناً ما عادت تلبسه لأنها تجده مفتوح الصدر كثيراً، مع دبّوس فضي، وعقد من اللؤلؤ. أما هي، فستلبس الأسود كعادتها. صدرها بارز في هذا الفستان الضيق حيث تلمع هدية العرس التي قدمها لها الجنرال، ماسة مرصعة بحبوب ياقوت صغيرة على شكل قلب. بالنسبة إلى ماري، سيكون الأمر أكثر صعوبة: سيقصرون فستاناً آخر شديد البساطة. في عمرها... لابد من القياس وزيارة الخياطة. كانت السيدة دو رواي تتخيل نفسها في جناحها، ومارغيت جالسةً إلى

منضدتها، وهي تضع يديها على كتفيها. ومشد الخصر، وما فوقه، ومشد الجسم والثياب التحتية؟ على مارغريت أن ترتدي من رأسها حتى أسفل قدمها. ربما كان قد نام معها واستنشق صدرها وفكّ ضفائرها وبث فيها عاصفة أخرى، تقاطعت مع تلك التي ضربت الشاطئ.

نهضت، نظرت للحظة إلى اللهيب المتراقص في المدفأة. نار حية، حيث رميت للتو قطع الحطب الجافة، لهب مرتفع تحيط به هالات زرق خفيفة، ينشر عبق الرماد الثقيل.

التفتت عند وميض الفكرة التي أثارتها فوجدت الجنرال قد أغفى، واضعاً رأسه فوق ذراعه كالأطفال. آه! إنه ليس رجل حرب كما ليس صحيحاً أنه قلق من معاونه، لقد قال ذلك عن طريق الخفة. على بعد خطوات فقط تضطجع مارغريت. تنفسها، الملازم أول هو من يتلقى تنفسها الذي لا يجب أن يهدر.. اقتربت السيدة دو رواي من الجدار البارد الذي يفصل بين غرفتيهما، ألصقت جبهتها به. أتعاني من الحمى؟ وضعت يدها على صدرها وشعرت بتسارع دقات قلبها. فهي تعرف موقع السرير في الغرفة المجاورة، أصاخت السمع وحسبت أنها سمعت أنيناً. ولكن لا. فمع صفير الهواء هذا، يمكن أن نخطئ في التقدير.

قلب رقيق، يمقت العدم الواسع الأسود[1]...

بيت الشعر هذا يلازمها منذ الصباح. يتردد في داخلها، في حين كان عليها أن تطرده، لأنه كان لشاعرٍ أحبه الجنرال بنوع من التحدي للعسكر. وتقصد أن يترك كتابه على طاولة القائد العام. وقد حفظت غيباً قصيدة كاملةً منه...

(1) هذا البيت والذي يليه هما من قصيدة زهرة المساء لبودلير.

السماء حزينة جميلة كمذبح
والشمس غارقة في دمائها المتجمّدة...

بهدوء ذهبت لتتمدد إلى جانب الجنرال وتتدثر باللحاف. انطفأت الشمعدانات وحدها مع ومضاتٍ وارتعاشات ضوئية، مثل خفق أجنحة الفراش. انطفأت النار، وما عاد هناك سوى الجمر. ارتفعت روح سابين دو سانت أوليف في سماء عاصفة غسقية، طائراً خطّافاً ملكياً يحلق فوق الأرض وينقضّ فجأة على طريدته.

2

استمرّت العاصفة أسبوعاً كاملاً ثم توقفت فجأة.

ارتفعت الغيوم وانزاحت من مكانها فانقشعت السماء اللازورية. استكان البحر وتحول من لون الزمرد ورغو الزبد، إلى زرقة داكنة ثم باهتة ساكنة. جاء نجارون من فرع الهندسة ونصبوا منصات في البهو الخارجي للقصر.

يوم الحفلة، في نهاية قبيل الأصيل، اجتاحت الحديقة حشود من الضيوف والعازفين بأعداد مفاجئة. وشاح الزواويين كان يخفي تحته بزات عسكرية غير معروفة. خيموا في الحدائق حيث هبط الليل وأشعلو ناراً.

وصل أول المدعوين عند السابعة مساء أما موكب العربات الأخرى فكان يتلألأ بالضوء وصولاً حتى المدينة. الجنرال في كامل أناقته والسيدة دو رواي بفستانها الضيق الأسود وماستها وقلبها الياقوتي، كانا في الاستقبال. خلفهما الضابط المعاون ومارغريت. ومن شباك في الأعلى، كانت ماري

تطل عليهم، وقد وعدتها أختها بأن تأتي لاصطحابها لاحقاً. قاعة أخرى للرقص، نصف مسورة بمنصة من الورود فوق عوارض ضخمة، هي امتداد لقاعة أولى تبدو أكثر فخامة ودفئاً تحت العواميد المجدولة والأروقة المقنطرة وثريات الصالون. شمعدانات عملاقة وأكاليل ومصابيح نجمية الشكل وزعت بطريقة فنية وصولاً حتى الصالونات الصغيرة والأروقة والقاعات، وفي الخارج آلاف الفوانيس في زجاجات الزيت تشع بأنوار باهرة.

«أصدقائي الأعزاء» كانت ترد السيدة دو رواي على التحيات.

ألقت نظرة سريعة على مارغريت، الواقفة قليلاً إلى الخلف لجهة يسارها. كم هم مضجرون كل هؤلاء الناس! وأستطردت محدثة نفسها: كم كانوا سيسببون لها الضجر لولا وجود هذه الزنبقة البديعة بجانبها. فهي تهدي هذه الحفلة لمارغريت. خلف المنصة وبين الفوانيس فوق سياج شجر السرو والبحر غير المرئي، الهادئ الآن، كانت ترى نجوماً. «إنها أكثر إشعاعاً...» أسرّت لنفسها وهي تفكر بمارغريت المتجمدة في مكانها. «وأكثر نقاءً. إنها...».

«أصدقائي الأعزاء...».

كانوا يلثمون يدها. «يدي أنا التي يقبلونها، وإليها أهدي كل هذا...». في البداية مع الضيوف الأقل أهمية، ضباط الثكنة والموظفون بثيابهم المدينة. ثم يأتي بعدهم الباشوات ببرانسهم وعماماتهم وأوشحتهم الحمراء، ثم العقداء والجنرالات مع مرافقيهم. المارشال الحاكم أعلن أنه سيصل عند التاسعة. عزفت الأوركسترا مقدمة سميراميس. روسيني هو المفضّل دوماً.

«ترالالا»، أخذ يدندن السيد دو رواي وهو ينحني أمام النساء. ستحصلن على كل ما تتوقعن. هل تردن روسيني؟ ها هو! ستسمعن حلاق إشبيلية، موزارت وغيوم تل، كل ما سبق واستمعتن به في لحظة النصر. صيحات ومطولات ولازمات غنائية تلاشت تدريجياً دون أن تغادر الملصقات الإعلانية منذ ثلاثين عاماً».

خدم بألبسة موحدة على الطريقة الفرنسية يقدمون كؤوس الشمبانيا ويحتشدون أمام منصات الورد، محملين بالفطائر المحشوة واللحم والمايونيز والفاكهة. همهمة أصوات ترتفع في المكان.

«وستحظون أيضاً بمقاطع موسيقية مختارة من ريغوليتو ولا ترافياتا».

هو من وضع البرنامج الفني مع قادة الفرق الموسيقية الأكثر شهرة في الجزائر، أولئك الخاصون بالفرقة الأولى للزواويين والعاشرة للمدفعية. الكثير من روسيني وفردي وفالس لستراوس، وإنقاذاً لماء وجه الكرامة الوطنية تسامح لحد قبول مقطوعة فرنسية لفرمنتل هالفي فقدم مقطعاً من عمله لا جيوف. أسف لعدم تضمين البرنامج موسيقى برليوز، الشاذ برليوز، الذي يعتبره عبقرياً. كان ليحب أن يصدم هؤلاء الكارهين المقطوعات الموسيقية الكبيرة. فقد لمع برليوز في روسيا وأوروبا وما زالت فرنسا لا تعترف به. ولكن كيف يمكن عزف مقطوعات برليوز؟ فالأوركسترا بسيطة جداً.

ترجل أخيراً نائب الحاكم من عربته، بعد قليل من وصول الأميرال. أرسل السيد دو رواي بإشارةٍ إلى زوجته ودخل إلى الصالون الكبير حيث يدور الرقص. دعت السيدة دو رواي مارغريت للحاق بها لامسة خاصرتها برقة. «لا يمكن رؤية سواها»، أسرت السيدة جنرال لنفسها

«فهي تغطي علينا جميعاً. لو دعيت إلى سانت - كلود[1]، قد يقيمون حرباً لأجلها. من يصدق أنها قروية بالكاد خرجت من حجرها؟ لولا زيارة نيكولا لأبيها، ربما كانت لا تزال هناك. ولكن لا، هذا غير ممكن، كان سيخرجها من هناك أحد آخر. على أية حال كان من الممكن ألا أتعرّف عليها، وقد كدت أخسرها لحظة وصولي إليها...». توجه نائب الحاكم والأميرال نحو حشد الباش آغوات في نهاية الجانب الشمالي بين الأعمدة.

انحنى الأميرال هامساً لدو رواي:

– أليس مغرياً الاندماج بهم؟ ألا تعتقد ذلك؟ انظر إلى هؤلاء. وكأن نساءنا أخجلنهم.

– أبسط الأمور هو أن نسألهم أجابه السيد دو رواي. ألا تريد تذوّق الشمبانيا؟ قال للنبيل الباش آغا بن إسماعيل، الذي يرتدي تحت البرنس وسام الشرف للقادة. هل الأميرال محق؟ فقد سألني للتو...

– أميرال، قال الباش آغا. أنت تسألني بالأحرى، إذا كان بإمكاننا وبدل القضاء علينا بالكامل، أن نعيش بتفاهم مقابل بعض الامتيازات. استضافتنا لن تؤثر على صراحتي. حسناً لمَ لا يمكننا الاعتراف؟ لو بللت شفتي بالنبيذ فسيمكنك القول إن الاندماج حصل. ولكن العرب يخشون كل البدع. عندما نشيد لهم بالتقدم، يجيبون: «نحن أناس يتبعون ولا يبتدعون». في الحقيقة، ليس هذا هو الواقع تماماً. فالآن وسط الأضواء والنساء الأكثر سحراً مستقوين

(1) Saint – Cloud بلدة فرنسية تقع على الضفة الشمالية لنهر السين في مقابل غابة بولونيا وقد تمتعت حديقتها لوقت طويل بسمعة سيئة فهي واحدة من أشهر المنتزهات في الضواحي الفرنسية وخاصة ايام الأحاد والعيد الشعبي للقديس كلود.

بالصداقة، كيف يمكننا أن نمضي قدما؟

«تجرأ، سيدي»، قال الأميرال بنبرة متسامحة.

علت أصواتهم، حاولت السيدة دو رواي أن تصيخ السمع. لأن جلبة الموسيقى والثرثرة في الصالون تغطي على الصوت المكتوم للباش آغا.

«حسناً، أنتم تعيشون وكأنكم لن تموتوا أبداً، ونحن لا نكفّ عن التفكير بالموت. أنتم تريدون أن تحولوا الأرض إلى جنة ونحن جنتنا في مكان آخر. إن وضعتم ذلك في حسبانكم لأمكنكم فهمنا».

أومأ بجماع جسده متحفظاً فهزّ نائب الحاكم رأسه وابتعد مع الأميرال. تبادل ضباطهما المعاونان انطباعاتهما:

– عزيزي، أنا قلق من ألا يصار إلى حل هذه الأزمة الجزائرية. ثم لو كانوا جميعاً مثل هذا، يتكلم الفرنسية بأناقة... ولو كان بإمكاننا دعوتهم لمشاركتنا أعمالنا وحفلاتنا...

– نساؤنا أيضاً، ونحن نقاسمهم نساءهم...

– قل لي، أرأيت زوجة هكتور؟ امرأة كهذه تستطيع تحويلي بسهولة إلى الإسلام ولكن ها هي فرنسية. حدثوني عنها سابقاً، إنها باهرة الجمال، يا عزيزي. قالوا لي إنها فقيرة لا يبدو عليها ذلك، ترتدي فستاناً فاخراً وعقداً من اللؤلؤ الحقيقي، يمكنني أن أميزه تماماً. هذا هو رجلنا غريبه منطلق.

استدارا لكي يرانها بشكل أفضل. ابتسمت مارغريت للجنرال دو رواي. باقة ياقوتية على صدرها، وفستانها المفتوح الصدر يغطي كتفيها.

فالموضة الآن هي الاحتشام. ما عدنا على شرفات تيك المدهشات[1] اللواتي كن يكشفن أثداءهن كلها تقريباً والتي تفضحهن لوحات تلك المرحلة. اليوم تظهر الأكتاف والأثداء بتحفظ: أوشحة رقيقة ومع هذه الطرحة التي أطلقتها الإمبراطورة غدون أكثر ميلاً للحشمة. دبّوس فضي على الصدر مع ياقة من الموسلين المثنّى، وقامة مشدودة بحزام حريري يخرج عنه دائر متكسر. فمارغريت بدت حتى أكثر تألقاً إلى جانب السيدة دو رواي التي تدثّرت بالكامل بالمخمل الأسود، فمع مشد الخصر المشدود بسبحة من الأزرار الصغيرة لتنورة تهبط على كشكش من الأورغندي الأبيض، وبأحمر الشفاه الغامق على شفتيها على خلفية وجه مثلث شاحب، كانت السيدة دو رواي تشبه بطلة تراجيدية.

«أيهما تفضل يا عزيزي»، قال معاون الأميرال، «الليل أم النهار؟».

بدا معاون نائب الحاكم متردداً.

«النهار قبلاً، ثم... هذا الليل يبدو مثيراً. فلو كان القلب الذي ينبض في صدرها يشبه ذلك الذي يلمع فوقه، أسأل نفسي... هل لاحظت؟ لا تلبس السيدة دو رواي أكماماً منتفخة. الساعدان والصدر، كل شيء لديها مستتر. لا تلبس سوى خاتم واحد ولكنه مرصع بحجر كريم. نرغب... آه أسكت، سأدعوها الآن للرقص. هل تعتقد بأنها ستوافق؟».

عند طرح الآغا سيرة الموت في الحفلة، أمسكت السيدة دو رواي بيد مارغريت وشدّت عليها للحظة، ثم تأملت بإعجاب الماسة الأخرى التي تتوج الخاتم الذهبي الرفيع، الذي لم يتنبه له الضابط المعاون لشدة انشغاله

(1) Incroyable بمعنى المدهشات وهو الاسم الذي أعطي لمن كن يتبعن الموضة خلال أول نظام جمهوري فرنسي في العام 1795.

بالسيدة دو رواي. فقد أخرجته سابين دو رواي من علبة مجوهراتها لكي تزين به أنامل مارغريت، على الأقل بما يمكن أن يغطي على خاتم زواجها المتواضع. هذا الخاتم ورثته من جدتها أوليفيه، ولم تعد تضعه لأن الجنرال يفضلها على طريقة أهل رواي. «يا إلهي»، فكرت، «كيف يمكن أن نحكي بهذه العادية عن أمورٍ بهذه الفظاعة؟ أولئك الناس ليسوا مثلنا. من يتأمل في الموت في لحظاتٍ كهذه؟ من يمكنه أن يتخيل أن ينتهي كل هذا النعيم؟». رغبت في وضع رأسها على كتف مارغريت ولكنّ شجاعتها خانتها. وماذا إذن، هل عليها أن تكتفي بالقيام بواجباتها أو أن تحد حبها الشديد ومشاعرها بزوجها؟ ألم تكن مارغريت إلى حدٍ ما ابنتها؟ «ها هو الأمر، قالت لنفسها. أنا أحبها كابنة. من دوني ماذا كانت لتصبح؟ ماذا كان سيفعل الضابط المعاون؟ وأنا ماذا أكون من دونها؟ صورتها هي كل ما سأحمله معي من أفريقيا. هل جاءت للبحث عن الأرض الموعودة، وهي لي. عليّ أن أعيش ذلك حتى مماتي».

تناهى إلى سمعها كلام الآغا. رفضت كأس الشمبانيا الذي قدم لها. لا يجب أن تفقد وعيها أمام الضيوف. نظرت إلى ساعتها الصغيرة التي أخرجتها من حقيبة يدها: سرعان ما سيصل المارشال. ثم، لا، لن تضيع ثانية واحدة من صفاء الذهن. عليها أن تستفيد مما يهبها إياه الرب. شعرت بأنها لن تشيخ، فهي متزوجة منذ ثلاثة عشر عاماً، وتشعر بأنها ذبلت منذ الآن. خدّاها، عندما تنظر إليهما في المراة، تشعر أنها تحمل آثار ندوب. وتخبئ عنقها الذي ما عاد مصقولاً لامعاً كما في السابق. لا ليس لديها الكثير لتخشاه من زوجات الجنرالات والحكام اللواتي تلتقيهنّ في الحفلات الراقصة. من أين اصطادوا نساءهم السمينات؟ من مطابخ

العسكر، ليس هناك سوى زوجة المارشال التي لها قوام جميل، وكلنها كانت مثيرة للضحك: هذا الشباب إلى جانب هذه العجوز! هذه المرة، شاءت السيدة دو رواي أن تتوارى لكي تحصل مارغريت على كل الألق. أن تتوارى؟ لم تكن بهذه الطيبة. لم تصل بعد إلى عمر التنازلات. ببساطة، هناك طرق للظهور بأناقة عندما نريد أن نتنازل عن المميزات لمن نحب.

اقترب الجنرال من نائب الحاكم، وبعث بإشارة أخرى لزوجته التي انضمت إليه. سوياً، اجتازوا الأروقة وخرجوا إلى الباحة. مع خبط الأرجل ولمعان السيوف، رافق فوج من السباهيين[1] عربة الحاكم. ضابط معاون فتح له باب العربة وركز له السلم الصغير كي يتمكن من النزول.

3

نافخاً صدره المزين بوسام الشرف الكبير وبالوسام العسكري، نزل المارشال ثم مد يده لزوجته، رفع قبعته المزينة بالريش، انحنى أمام مدام دو رواي وصافح الجنرال. لتنطلق بعدها مباشرة الفرقة الموسيقية بالعزف التشريفي.

تقدم المارشال وسط التصفيق، رأسه المكلل بالبياض مرفوع بعض الشيء، شارباه فوضاويان، على مسافة من الظل الثقيل لنائبه الذي بدا مقطب الجبين. وتوقف عند منصة الرقص، وقام بإشارة غامضة من يده. لم يكن يخفي اضطرابه. هل تأثر بالاستقبال أو أنه غار من تألق مجرد جنرالٍ عميد. ما كل هذه الأضواء، والزينة، ما هذا الفخامة! «والعرب

(1) السباهيون هم جنود الخيالة الجزائريين في جيش إفريقيا، أي في الجيش الفرنسي في الجزائر.

في الخلف؟ هذا إذن، لقد فكر رواي بدعوتهم هم أيضاً؟ يعتقد نفسه أميراً هذا الغليظ؟») صحيح أنه ما عادت تقام حفلة اليوم من دون دعوة الآغاوات الذي خصهم الإمبرطوار بالكثير من الإهتمام!

اختتمت آخر المقاطع الموسيقية، مرت لحظة صمت، دوّى بعدها التصفيق. التفت المارشال، فلمح للحظة مارغريت: «ما حفلة السمر هذه؟»)، قال في سرّه. «لا يصدق، يا لهذا الجمال! من أين تأتي هذه؟»)، وفوراً بدأت تتناهى إيقاعات رقصة المينيوت، في البداية تبدو خفيفة، وثابة، تعطي رغبة بالتهادي، ثم تتعالى، تتضخم، باثة في الهواء شعوراً بالرهافة. ابتسم الجنرال رواي ودعا المارشال إلى الباحة الرخامية، التي ملأتها فجأة الظلال لحد أنه ما عاد بالإمكان تبين حدودها. فقط النجوم وهذه الأجواء اللطيفة الآسرة المختلفة عن أجواء آلات النفخ النحاسية والخشبية التي نسمعها عادة. كان من المتوقع رؤية نبلاء بأثواب من الحرير تتأبط أذرعتهم نبيلات يرفعن أيديهن إلى أكتاف مرافقيهم بطريقة آلية وكأنها مكسورة.

ولكن لا، فجأة، تحول الجو عسكرياً. تململ الليل في طرف الحديقة. انفجر. ضربات على طبول خشبية كبيرة، صنوجٌ، وآلات نحاسية قوية، صدّعت المكان بصوتها. نيران بنغالية[1] أضاءت علماً أبيض كبيراً رصّع بزهور الزنبق، وآخر من الإمبراطورية الأولى، وأخيراً علم اليوم، الذي يرفرف فوق حشد من الجنود بمعاطفهم وقبعاتهم العسكرية، وكأنهم بقيادة فرقة من الناي والمزامير. ضربات الصنج تجعل القلب يقفز من مكانه!

---

(1) نيران بنغالية هي شهب نارية مختلفة الألوان، تخرج من أنابيب نحاسية تخلط فيها مواد للألعاب النارية، تحدث ضوءاً هائلاً والكثير من الدخان.

توقف، صوت مزمار هادئ، ومن جديد... ما يشبه رقصة المينيوت ربما ولكن لرماة القنابل.

انحنى الجنرال رواي خامساً للمارشال: «الباليه رقم اثنين بالـ سول[1] من أوبيرا روزاميندي. فرانز شوبرت».

«في أي عامٍ»، سأله المارشال.

ديسمبر 1823.

في ذلك الوقت، كانوا على الأقل يعرفون كيف يقيمون عرضاً، بطيئاً قليلاً، ولكن أكثر جديةً من الآن، معتمدون أشياء أكثر خفةً. هذه الموسيقى يمكنها أن ترفعكم من أماكنكم، أن تنسيكم كل شيء؟ الحرب، الموت، المتاعب، بؤس الثكنات الكبيرة، ما عدا النساء. شوبرت هو نمساوي. هذا ما يمكن استنتاجه على أية حال، من المقاطع الانتقالية. هناك نوع من النزعة الإلمانية. لماذا لا نعزف شوبرت بدل هذا الروسيني الأبدي؟ الجنرال بيليسيه لا يتذكر أنه سمعه من قبل.

نفخ صدره وضرب بكعب حذائه إلى الوراء. ها هي: هذه الموسيقى التي تختلط فيها الآلات النحاسية والناس، فيها شيء ما ملكي! وهو ما يذكر بزمن الإمبراطورية الثانية، إنها لحركة شريرة. ملكية وريفية.

اضاءت ابتسامة وجهه الأسدي ونظر إلى السيد دو رواي من فوق كتفيه.

«تهانينا، عزيزي».

انحنى الجنرال. بالطبع لو التجأ لمختصّين، لما اختار هذه الباليه وإنما مقطوعات للبيانو. هيا إذن أثر اهتمام العسكريين بهذه الموسيقى الرقيقة!

---

(1) Sol السول هو الدرجة الخامسة من سلم «دو».

وبما أنه يمقت هذه الموسيقى الايطالية التي يرددونها من دون توقف، فقد قرر ان يختار روزاماند، الذي لا يعرفه هؤلاء الأغبياء. ضربات قوية من الطبول الكبيرة والصنوج ليقلق وعيهم النبيل وليعلمهم كيف أنهم أرتكبوا خطأ كبيراً. كان بالإمكان عزف «لا مارش أون ري» بالغة التعقيد والدقة كتخاريم الدانتيل. شوبرت يناسب العسكريين أكثر. فخلف الإيقاع الصاخب، وتحت الفخامة، قد يكتشفون يوماً، الرقة والبساطة.

«تحدوني رغبة حقيقية في رفض نقلك إلى الاحتياطي، وتعيينك مسؤولاً عن الموسيقى في أفريقيا. ما قولك؟»).

لم يجب السيد دو رواي. أن نحب الموسيقى، وأن نسمح لأنفسنا بالتعرف على بعض تفاصيلها، والتمييز بين الجيد والرث، فهذا لا يعني أن تتحول سبباً إضافياً إلى الاستخفاف به. لن يضيع وقته في الشرح لهذا الأعمى أنهم كانوا في عائلته محبين للموسيقى، يعزفون بيتهوفن وباخ وشوبرت وهاندل وتليمان وموزارت. رأى المارشال الحاكم الذي كانت يده اليمنى تتحرك تحت ثوبه، وكأنه يحك جلده. عرة[1]. لو تجرأ المارشال الحاكم، لكان التفت ليغمز النساء. فما يجعله يشعر بالحاجة إلى حك جلده، هو وجود مارغريت خلفه على بعد خطوات فقط منه.

بدأت الأوركسترا تعزف فالس لستراوس. توجه الزوار تحت الأضواء إلى مائدة الطعام حيث الشمبانيا تفور.

«عرفينا إليها» قال الحاكم، للسيدة دو رواي، لاثماً يد مارغريت.

لم تعتد مارغريت على أمور كهذه. لم تكن تعرف بعد كيف تسحب يدها من يد مقبلها. ردت بابتسامة آلية. مارشال فرنسي عند قدميها، أو

(1) عرة هي تقلص غير إرادي في عضلات الوجه.

يكاد. كانت السيدة دو رواي واقفة بالقرب منها، مثل حصنٍ، يمكن أن تخرج منه ألهبة النار. وكانت قد وصلت زوجة المارشال الفتية وقطعت عليهم الطريق. فهي تعرف هذا الحيوان! «عليك أن تزورينا في القصر»، قال لها مبتعداً، «يمكنك أن تصطحبيها معك، أليس كذلك؟» مخاطباً السيدة دو رواي بمرح.

«يمكنك الاعتماد عليّ» أجابت في داخلها. هذا الشيخ التافه! فهي تعرف ماذا تخفي هذه الدعوات، وكيف اعتاد أن يطرح على كنبته. في النهاية هذا ما يقال.

تقدمت عبر الحشد، تتبعها مارغريت. أما الملازم أول غربيه فكان يمشي شبه مترنح بالقرب من صف الخدم، منتشياً بفعل الخمرة.

«ما عدنا رأيناك»، قال دنيف. «وماذا عن الأصحاب، هل تنساهم؟ سيدة...» أضاف متوجهاً إلى مارغريت، «يشرفنا أن تنضموا دائماً إلى طاولتنا».

الرباط المقدس بين النقباء بدا وكأنه عاود التحامه. وعدا ذلك، فالضباط المعاونون الذين يتبعون أسيادهم، كانوا جميعاً هنا، حول دينيف الذي بدت عيناه مشبعتين بالشمبانيا، روجيه بوجهه الغدار، بيكار الخجل وقد تورد وجهه خجلاً، والطبيب الصغير المساعد في ثوب موحد يصل حتى الرقبة بأكمام من المخمل الناعم، كل ذلك مع شارة واحدة على الكتف. وحده، القربيني[1] لم يكن لديه شيء، في حين أن النبيل فكتور كان لديه اثنتان. عندما دعي إلى العرس في بوفاريك، كان دينيف ملتزماً تماماً ربما على شرف الانتقال الجديد لرئيس النقباء العازبين.

(1) القربيني، هو فارس مسلح بالقرنيبة أي بندقية خفيفة.

«أيمكنني أن أدعوك إلى هذه الرقصة؟».

رفضت مارغريت. فالسيدة دو رواي تلت عليها الدرس. لا رقص لامرأة حامل في شهرها الرابع. ورغم أنه لا يبدو على بطنها أي انتفاخ، فهذا لا يمنع أنه لا يجب أن تترك للخيالة أن يأرجحوها برقصات بوهيمية، وأن تعاني من دوار بعد الرقص. الجنرال وزوجها، ربما، ولكن رجال مجهولين أو أصدقاء قدامى للضابط المعاون...

- «الآغاوات»، قال الأميرال للجنرال دو رواي، «أتظن أنهم فهموا رهافة ذوقك؟ لقد رأيتهم. لقد بدوا ضجرين. فهم لا يحبون إلا آلتهم «الزكرة»[1]، ولم في ظنّك يشاركون في أعيادنا؟ ألا يمكن أن يكونوا غدارين، مثلاً؟.

- ولكن لا، فهم يحققون التواصل معنا وينتظرون.

لقد أزعجه الأميرال. نظر الجنرال إلى ساعته. خلال ساعة، عند منتصف الليل، ستتراجع الأوركسترا التي قادت العرض الحربي إلى آخر الباحة المرصوفة، في شبه الظل. سيكونون جميعاً بالشعور المستعارة وبلباس أزرق باهت وبجوارب حريرية كما في القرن المنصرم. وستضاء المشاعل فجأةً وحينئذ...

لقد تردد كثيراً. أما كان في وسعه اختيار واحدة أخرى؟ واحدة من سمفونيات موزارت الثلاث التي كتبها في العام 1788 مثلاً أو السمفونية الأربعين التي لا نعرف ماذا علينا أن نعشق فيها أكثر، حيويتها أو هدوءها اللذين يمكن قراءتهما من خلال تفاعلنا العاطفي معها؟ واحدة من هذه

(1) «الزكرة: آلة نفخ تراثية تونسية وتسمى في الشرق الزرنة»، ولكن الكلمة التي استخدمها الكاتب هنا هي Raïta.

الكونشرتو للمزمار والأوركسترا، أم خماسية للكلارينت؟ لذلك كان يلزمه فنانون، وليس في الجزائر سوى بعض العازفين على الآلات. «خماسية لا ماجور» من يمكنه أن يعزفها؟ موزارت الذي ألف موسيقاه للملوك وبائعي الجبنة، لم يعبر سوى عن الرفعة والآلام أو الكآبة، وأحياناً عنها جميعاً.

في النهاية، كان السيد دو رواي يعود دائماً إلى «سينيرال أون سول ماجور»، والتي وبسبب خطأ في الترجمة والتي ترجمت خطأ بالفرنسية إلى «موسيقى الليل الصغيرة»[1]، لانها الوحيدة التي يمكن عزفها من دون صعوبات كبيرة. لا أحد يملك هه اللمسة وتلك النبرة الحميمة، العميقة السرية، معجزة الوجود، عبقرية الحياة والموت. لقد استسلم لفكرة أن يقدم إيقاعاً راقصاً على خلفية موسيقى الظل والغموض. لقد رأت فيه مدام دو رواي مقصداً غير حقيقي. فإن كان لا يزال يتذكر الآنسة جيناتي، فذلك بسبب موزارت، وهل يمكن الظنّ أنه ما زال مغرماً بها. بعد ثلاثين عاماً؟

«هيا، سأتنحى جانباً» قال السيد دو رواي. فكل ما يتعلّق بموزارت يؤثّر بي. أن يكون قد كتب هذه السريناد قبل وفاته بأربع سنوات، سر المينيويت الثانية التي ضاعت... هل اشتاق إليها، ألم تغدو أقل كمالاً؟ وخاصة أني غدوت كهلاً. إنني أجترّ الذكريات». ظنّ في البداية أن كآبته متأتية من خيبة أمل. فقد حسب نفسه آتياً في البداية لتحرير الجزائريين من الأتراك. ولولا فشل الإصلاح، لكان السيد دو بورمون معنياً بعدم

(1) إنها فعلا Sérénade en sol majeur وهي العمل الأخير والأكثر نجاحاً لموزارت والذي وضعه العام 1887، وهو المعروف بالفرنسية بالـ Une petite musique de nuit أي موسيقى الليل الصغيرة.

طردهم من أراضيهم. فهل ترك نفسه يحاصر بزمرة من البقالين البربريين؟ أن يخدع بغباء؟ بيد أنه على الأقل يغادر خالي الوفاض، وليس كالبقية... فالفوضى التي تبعت ذلك، كان سببها زمرة من الجنرالات المتخلفين المتأنقين. لقد حولوا المحررين إلى غزاة. سيطر المال. راح الجنرال كلوزيل يشتري القصور، حتى بلغ ما اشتراه حياً كاملاً تقريباً. بأي ثمن! لقد كان ذلك موضع شك! حاول كثر حوله التغطية على صفقاتهم بتشبثهم بقطعة أرض محددة. ومذ ذاك، ما عدنا مشغولين إلا بالقتل والإثراء. فإذا شاء لو مير، الذي ذهبت إليه مسؤولية القسنطينة، أن يحصل على حصته من قالب الحلوى، فله مطلق الحرية. كان يعلم السيد دو رواي أنه لم يكن الطمع بخيرات هذا العالم ما أثار حماسة صديقه القديم، ولكن الرغبة بتحقيق انتصار جامح.

عندما أصبحت الأوركسترا الخاصة جاهزة لعزف موزارت، نهضت الفرقتان الأخريان وقدمتا وصلة مطولة. دعا السيد دو رواي المارشال للاقتراب من المنصة لتبدأ بعدها السريناد. لقد كان هناك ما يكفي من الآلات الوترية في الجزائر، حتى لا يتم هذه المرة استبدال الكمان بالمزامير؟ هل الذعر الجماعي هو ما شلهم، أم أنها الخمرة؟ لم يبد الموسيقيون على سجيتهم. ربما لأنه كان متوتراً من فكرة ألا تلقى معزوفته المفضلة الإعجاب، لم يرَ دو رواي في العزف الذي قدمته المجموعة، تلك المعزوفة الرائعة المعروفة بعذوبتها ولا تلك الطريقة التي يكتشف فيها المؤلف تيمة ويرددها ويرفعها فاتحاً اياها على عوالم رحبة. فقد كان ينقص عزفهم الشغف والانسياب، هذه الطبيعية التي تتولد من الولع بالفن كما من الحب. على الرغم من ذلك، فقد جرت التمرينات الأخيرة بشكل متقن،

لا يمكن اختراع السحر. فقد أتموا مهمهتم بشكل آلي، يفتقر إلى البراعة والروح. عادت إليه صورته وهو في العشرين من عمره جالس تحت سقيفة، حيث خرجت راقصة بفستانها الطويل من الموسلين، ووردة بيضاء عند ظهرها. يا لتلك البهجة! عندما راح الضباط يصفقون عند جملة المقطع الثالث! الآن ما عادت الدموع تختلط بلؤلؤ المعزوفة وياقوتها، ولا عادت الموسيقى تحمل الأرواح في رحلة مؤلمة ومبهجة، ما عدنا نشعر بإحباط مؤلف كان يعلم أنه سيموت بائساً ويغني بلا مرارة انتصارات الموتى. لاعبا مزمار ولاعبا آلات وترية نجحوا آنذاك، في حين أخفقت أوركسترا كاملة، هذه الليلة. الخطأ يعود للسيد دو رواي. فالسرنادا كتبت لآلتي كمان، كمان أوسط، تشيلو، وكمان كبير، وليس لعشرين موسيقياً.

كان ذلك محبطاً.

4

أُحضرت عربة المارشال، وتجمع عناصر مرافقته، وتبعهم نائب الحاكم والأميرال والجنرالات.

«حسناً»، قال السيد دو رواي لنفسه، بعد مغادرة آخر الجنرالات، «ها نحن أخيراً وحدنا».

نادى خادماً وطلب منه أن يتبعه ببعض من زجاجات الشمبانيا. فمنذ المرة الأولى، ومنذ أن سكن هنا، يذهب إلى المطابخ، حيث سبّب ظهوره هناك إرباكاً. في فوضى كبيرة، كانوا ما زالوا يعدون الشطائر والفطائر. وزع الجنرال الكؤوس ورفع النخب مع مسؤول الطباخين ومساعدي الطباخين وجنود متنكرين بزي خدم.

«بصحتكم، سادتي».

لا يتذكر أنه سمع الكلمة نفسها عندما بدل الجيش علمه في أغسطس 1830، وبأنه شرب النبيذ الأحمر على شرف صغار جنود القيادة العامة. «هل يمكنني أن أكون ديمقراطياً؟» سأل نفسه. فالجموع تضجره، والبذاءة تجرحه، ولكنه يحب أن يتعاطى مع القرويين والحرفيين، الذين تجذبه لغتهم. «هؤلاء يفهمون أكثر موسيقى موزارت».

عاد أدراجه، ثملاً بعض الشيء، ولمح من بعيد ماري مختبئة وراء شقيقتها. الآغاوات غادروا بدورهم مربكين. وقد رافقهم.

«نحن نأسف جداً»، قال أكبرهم، «رجال مثلك قليلون هنا. عد لزيارتنا. لديك بيننا الكثير من الأصدقاء».

في النهاية تسلوا.

الاوركسترا تعزف بقوة أكبر، النساء يضحكن. أنوار شموع بدأت تخفت يجب تغييرها. فقد وجه السيدة دو رواي صرامته، تذبذب واتّقد. كانت تشبه فرساً أصيلة متأهبةً للقفز. بلا هم الحفاظ على المقام، تركت نفسها ترتمي في العاصفة الجديدة التي هبت في داخلها. لم يكن النبيذ هو السبب، فهي لم ترتشف منه إلا القليل، إذن ما الذي جعلها تستمتع في هذه الحفلة التي كانت تتقدم في الليل مثل سفينة مضاءة، والتي دنا موعد انتهائها؟

كانوا يتسابقون لدعوتها إلى الرقص، ولكنها كانت تعتذر بعناد، بالحجة نفسها: «الفالس يدوخني...». في الحقيقة لم تشأ أن تترك مارغريت. حتى إنه لو أمكنها أن ترقص معها، أن تحمل قلبها وسط النجوم... وبما أن النقيب غريبه هو من دعاها بدوره للرقص، ما كان بإمكانها أن ترفض.

على أية حال، هل كانت تأمل بهذه الرقصة؟ فهي تعتبر أنه برقصها مع الضابط المعاون، تبقى بذلك قريبة من مارغريت. ثم أنها رقصة بوهيمية، ليست بالأمر الفاضح. رقصة بوهيمية سخيفة، رقصة للصغار الذين يميلون بأكتافهم كما تميل القوارب في الأخاديد المائية التي تخلفها السفن. بالضبط، هو هذا الترنح القوي ما يطلق الحريات وحميمية لا يمكن للفالس أن يقدمها. الفالس، أليس كذلك؟ يبقى أرستقراطياً، وحالة الدوار التي يخلفها، والتي يمكن إخفاؤها بإمالة الرأس وخفض الرموش. رقصة البولكا البوهيمية، تجبرك على النظر إلى وجه مراقصك، من دون مراوغة، ونظرة النقيب... آه! إنه ليس خجولاً، ويتحدث بجرأة. «يا إلهي»، قالت السيدة دو رواي لنفسها، «إنه على الأرجح يتملق. هل اختبر ذلك فجأة، مع قرب انتهاء الحفل؟ أم أنه أفلت في النهاية ما كبته منذ عامين؟»، لقد شعرت بالطبع منذ وقت طويل أن النقيب... كان منزعجاً منها لأنها غذّت في زوجها الشعور بعدم استلطافه. لو أمضى ليلة في القصر في غياب الجنرال، فإن إحساسه يقول له، إنها ما كانت لتقفل بابها بالمفتاح فحسب، بل النوافذ أيضاً. خوفاً منه؟ ففي سلوك هذا الضابط غرابة وثقلٌ وشيء من الغلظة. «مذاق الجحيم» فكّرت مرتعشة، «ممزوج بهذه الرائحة، الملتصقة بالحزن الذي يثير بعض الرجال... نشعر بالرغبة في احتضان وجوههم بأيدينا، وتمسيد شعورهم - وشعر مثل شعر الضابط المعاون من المفترض أنه يشبه فرو الذئب القاسي - وسؤالهم عن سرّ حزنهم قبل أن يرتموا بين أذرعتهن أو على بطونهم حيث أزرار السترات تجرح مثل عقد جذع شجرة. نقيب عادي، وزوج مارغريت! بسبب هذا ربما: يداه التي عرفت كيف تقطف هذه الزنبقة، هذا القلب الذي يدق بضربات

متتالية، أضراس آكلي اللحوم هذه... حماسة واثقة، وهذا الصمت الذي لا يمكن اعتباره خجلاً، الممسوك جيداً بروابط سرية ولكن محددة، على المرء أن يكون أعمى لكي لا يفهم لغة عينيه هاتين.

لم يعد هذا مهماً على أية أي حال. فات أوان ذلك. توقفت الموسيقى، وقبل أن تبدأ الأوركسترا التالية، انسحبت السيدة دو رواي، وفي اللحظة التي بلغا فيها الرواق عائدين، لماذا ضغط بطريقة خاطفة على أصابعها كأنها إشارة تواطؤ بينهما؟

عندما وجدت السيدة دو رواي مارغريت، كان الفجر قد طلع، وبهتت أضواء المصابيح. من الجهة الأخرى للباحة، حيث تقدمت الكتيبة بالمشاعل البنغالية، يرتفع سياج شجر السرو أمام بحيرة ذهبية. ذهبوا. الموسيقى ما زالت تعزف بسحر مبدّد. مع صوت حوافر الجياد وشتائم السائسين. حشر الضيوف في عربات متتالية.

في الحدائق، ضوء الصباح المتوهج كشف عن عشب خربته الأقدام ورماد وأحزمة منسية وحتى معاطف مقلوبة لجنود افترشوا الأرض لجزء من الليل. انسحبت السيدة دو رواي. نزعت الخاتم ذي الفصّ الياقوتي، ووضعته على منضدتها. أما الخاتم اللماع الذي ورثته عن جدتها أوليفيه، فقد طلبت من مارغريت أن تحتفظ به كذكرى. بادرة كريمة، وأيضاً لكي تجبرها على تذكرها.

كانت في الحمام، شبه عارية، عندما انضم إليها زوجها. سمعته يخلع الحذاء على الأرضية، بعيداً عن السرير، على غير عادته. «حققت حفلتك نجاحاً كبيراً»، قال لها، «وبدا لي...».

كان يريد أن يضيف أنه رآها ترقص مع مساعده وأن ذلك أزعجه.

الوجه الذي كان لها منذ عدة سنوات، هل اختفى؟ «أنك سعيدة».

كان يتكلم بصوتٍ قوي جداً، ومضطرب بشكل جليّ. أهو ثمل؟ ترددت في الإجابة. أمام المرآة، كانت تعض شفتيها، تفتحتهما باستياء بتلك الطريقة التي تفعلها النساء من أجل أن ترى ماذا؟ التجاعيد المخفية؟ أو الشكل الذي تبدو عليه فجأة أمام بعض النظرات أو العينين؟ سابين، مارغريت، من منهما ستضيع في مياه الفجر وضبابه؟

«أنت محقّ»، قالت بعد حين، «كنت سعيدة».

ثم مسحت وجهها بسائل مزيل للماكياج.

«وأنت لا؟».

كانت نبرته محايدة.

«لقد أخفقنا في عزف موزارت».

ابتسمت في سرّها. هذا هو. في لحظة مغادرة الجيش، لا يفكر إلا بموزارت. إنه هو نفسه. ولكنها لا تهتم كثيراً.

دخلت إلى غرفتها حيث بدأ النهار يتسلل من النافذة، وببطء أغفت، من دون أن ترفع اللحاف حتى ذقنها مثلما اعتادت أن تفعل كل كل ليلة. كانت تشعر بحريق في حلقها. أصاخت السمع. لا شيء غير ضجيج بعيد للصحون في المطابخ. أخذ الجنرال يدها.

«عندما قلت إنك بدوت سعيدة، تفهمت ذلك، ليس سهلاً، أليس كذلك؟ كل شيء على ما يرام. نامي سابين».

سكتت. كانت تطفو فوق موجة موسيقى زرقاء، ليست موسيقى موزارت بل شبه غنائية مصدرها النجوم، حيث تغدو الأجساد خفيفة بلا وزن. غنائية وترية وغيتارية صاخبة.

عاد إليها بيت آخر من القصيدة:

أحب من عيونك الطويلة...

ترددت ثم صححت الضمير:

أحب من عينيك الطويلتين خضرتهما،

جمال رقيق، ولكنه يبدو لي اليوم مؤلّم...

تركت نفسها فجأة تغرق في الدموع التي ملأت وجهها من دون تنهيدة واحدة، تقريباً بلا ألم.

الجزء الثالث

الجراد

جراد البلاد النبيل يقضم الشُّعب[1] وحتى الفلاح المسكين.

فرومونتو

أسرار الاقتصاد الفرنسي، 3

الفصل الأول

كيف تزامن مرور الإمبراطور[2] ببوفاريك، في السادس من مايو 1865، مع العيد الكبير.

(1) الشّعب أو بالفرنسية (tiers – etat) تعني القوم من غير النبلاء والإكليروس في فرنسا قديماً.

(2) الإمبراطور نابليون الثالث، الذي اشتهر بسياسة تقرّبه من العرب،. وهو من استدعى بعد توليه الحكم الزعيم الثوري الجزائري عبد القادر الذي كان مأسوراً في فرنسا ويعاني من الإهانة والتضييق، استدعاه وكرمه ورتب له عائداً شهرياً كبيراً وسمح له بالسفر إلى الشرق. كما عرض عليه ان ينصبه إمبراطوراً على المناطق العربية في الشرق بعد تحريرها من العثمانيين. وقد زار نابوليون الثالث الجزائر مرتين في 1860 و1865، وقد اشتهر بسياسته المنفتحة. وحاول إرضاء الجزائريين ولكن المستوطنين اتهموه بالخضوع لأفكار الأمير عبد القادر، والوقوع تحت تأثير مترجمه الجزائري إسماعيل عربان، إذ كان من اصدر قانون المجالس المحلية التي يشارك فيها العرب ولو بنسبة قليلة، ولكنها لم تطبق إلا في العام 1908.

1

كل هذه الطبول الإفريقية التي تقرع للإمبراطور تغيظ المستوطنين. ذلك أن زيارته الأولى قبل خمس سنوات، في 1860، وعلى الرغم من أنها لم تستمر سوى ثلاثة أيام، أحدثت فوضى في النفوس. فبرغبة منه في كسب ودّ العرب المترددين، خلط الإمبراطور الأوراق.

ثلاث سنوات. لزمه ثلاث سنوات لمراجعة سياسته الليبرالية والكتابة للحاكم العام رسالةً مجنونة، عنيفة الوقع: «الجزائر ليست مستعمرة بالمعنى الحقيقي للكلمة، بل مملكة عربية. ويحق لمستوطني البلدين برعايتي. فأنا إمبراطور العرب تماماً بقدر ما أنني إمبراطور الفرنسيين...» فقد حسب نفسه إمبراطوراً عثمانياً. انتشرت العرائض ولم يكف الجنرال الشجاع بيليسيه عن القول: «وقعوا بأيديكم الاثنتين، يا أبنائي، وقعوا، إن لم تفعلوا فأنتم ذاهبون إلى الهاوية...» وبعدها بفترة وجيزة مات عن سبعين عاماً. وعيّن لحكم الجزائر مارشال يحمل اسماً اسكتلندياً، ماك – ماهون و«فوق البيعة» الدوق دو ماجنتا. كان الجنرال دو رواي رجلاً مختلفاً، ومع ذلك لم يبقَ سوى كذكرى، ولكنه أدخل نقيباً إلى عائلة بويشو.

واليوم، وبما أنه يقود جماعة من الزواويين، عندما نرى في الليل أحد سفوح الجبل يشتعل، لا يقال كما في السابق، إن العرب يحرقون الأشواك تحضيراً لتسميد الأرض، وزرع أشجار المصطكة بمستوى الأرض للسماح للأغنام برعي البراعم. بل بات يُقال: «إنه غرييه» فمحمد يلفظ اسمه معرّباً «غريش»، غريش، غرِيش[1]. أورتي – غرِيش[2] تلدغ العرب. مارجول

---

(1) Grieche أي طائر الثرثار.

(2) Ortie – grieche أي طائر القراص.

يسميه، بإعجاب، هكتور الرهيب. ومارغريت التي ما عادوا يرونها كثيراً منذ أن سكنت البليدة، ربما كانت فخورة به. وعندما تأتي إلى المزرعة تلبس كسيدة وتحمل معها عطراً من المدينة. أناقة وسحر طاغيان.

يقول العرب إن السلطان الحقيقي للقسطنطنية هو نابليون الثالث، وإنه هذه المرة لن يجلس تركي على عرش الجزائر، بل سيكون الحاكم عربياً حقيقياً هو عبد القادر. عند هذه الفكرة، كما الحال مع عائلة باري، شعر بويشو بموجة غضب تصعد إلى رأسه. إن لم يكن يعتمد سوى عليه، فلن يجد البادينغي[1] الكثير من المصفقين له عندما سيترجل من يخته النسر، ولا الكثير من أقواس النصر عند مروره، الجيش سيلتزم وبالنسبة إلى العرب الأمر مفهوم. ولكن ماذا عن المستوطنين؟ حسناً سيهرولون لكي يتفرجوا ما عدا أولئك الصعبو المراس كما أن المرحلين في العام 1848 سينفرون قليلاً أيضاً، وهؤلاء لم يبقَ منهم أحد تقريباً لأن من ما زال منهم على قيد الحياة، حجزوا في معسكرات أو هربوا داخل الجزائر، محاطين بالشرطة بالرغم من أنهم ما عادوا موجودين. وفي بوفاريك، المدينة المفضلة، لا يوجد أحد منهم، وإن كان هناك منهم فسيتم الحذر منهم. الحمر[2]، هل تتخيلون! أناسٌ يسخرون عندما يجري الحديث معهم عن بلادهم، ولكنهم كانوا أكثر من يشعر الأب بويشو بالقرب منهم. ليس للأسباب نفسها، أو ربما من يعلم؟ قد يكون للأسباب نفسها. على أية حال، ليس هو من سيزعج نفسه لكي يلقي التحية على الأمير الذي وصل إلى الجزائر على وقع المدافع والموسيقى العسكرية والجوقة الموسيقية، متأبطاً ذراع زوجته الإسبانية.

(1) Badinguet وهو الاسم الهجائي الذي أعطي للإمبراطور نابوليون الثالث وتذكير لاسم بادينغات الذي كان اسم زوجته الإمبراطورة أوجين (اوجيني هو اسم عائلتها).

(2) الحمر يقصد بهم هنا ثوار 1848 في باريس.

دام رمضان من السابع والعشرين من يناير حتى الرابع والعشرين من فبراير. صيام المسلمين يقضي بعدم شرب أي قطرة ماءٍ، ولا كسرة خبز، ولا مجة سيجارة، ولا شيء من الفجر حتى المغيب. ولم يكن هناك مجال لطلب جهد منهم. فهذه المرة أيضاً جاء شهر الصيام في موسم ليس فيه الكثير للقيام به. ولكن الأمر يختلف عندما يكون عليهم إعادة غرز التبغ والبذر والحصاد...

انتهى للتو الاحتفال بعيد الفصح، وبداية الشهر الأخير من السنة لدى المسلمين كان في الخامس والعشرين من أبريل وفي السادس من مايو سيحتفلون بالعيد الكبير وسينتهز الإمبراطور الفرصة للذهاب إلى بوفاريك. مرحى لمن ابتكر هذه المصادفة.

استلّ بويشو الغليون من جيبه وجعل يمصه من دون أن يشعله. استعجلته ماري ألدبرام فخرج. صباح يومٍ حار من شهر مايو، واسع ومشحون بالمشاعر. كانت أشجار البرتقال قد تخلصت من الزهر لكن بقي شذاها، مع ثقل في الهواء ينذر بالعاصفة. في هذه البلاد، لا تخضع السماء لقوانين البلاد الأخرى والفصول فيها تتوالى بتداخل غريب. ليس هناك سوى الطيور التي تحترم مواعيدها لأنها تأتي من الجانب الآخر من البحر أو الجبال. هذا العام، وصلت طيور اللقلق في فبراير، بعد وقت طويل من طيور الحبارى والبط البري، ولكن قبل وقتها المعتاد. أتت من الشمال مجتازة قمم الجبال منزلقة في المضيقات والوهاد، ودارت طويلاً وابتعدت ثم استراحت للحظات وعاودت التحليق، وفي النهاية، وكأنها تستجيب لنصائح ومشاورات، قررت أن تستعيد أعشاشها القديمة وتعيد بناءها لتستقر فيها. لذا أمكن سماعها تنقر بمناقيرها وتجلس لتبيض وتحضن

بيوضها.

ذكرى آل باري تعود إليه بمزيج من المتعة والعنف. لقد خدع بهم. كيف استطلفتهم ماري ألدبرام، وخاصة الولد البكر جان بيار، الذي بعد أن تقدم بطلب يد مارغريت وقع في غرام ماري، هكذا عندما التقاها على الطريق، كما أغرمت به هي الأخرى؟ كيف رتّب ذلك؟ يبدو أنه استغل صباحات الاثنين التي يزور خلالها مارجول السوق، وصار يأتي لمقابلة ماري والأم، في حين مارجول غافل عن كل شيء. وبدأت خلالها الأم تتكلم عن جان بيار لكي تبدل نظرة مارجول إليه، لتخبره ذات يوم بأن ماري مغرمة بجان بيار، وبأنه لا ضرورة للغضب، لأن ماري ستبلغ قريباً الحادية والعشرين، فإذا كان يريدها أن ترحل كما رحل ابناه....

كان الفتى أنطوان الذي سيبلغ السادسة عشرة يساعد محمد في شتل التبغ، ولكن مع الفلاحة ونثر البذار ومع ازدياد متطلبات العمل في الأرض وأشجار البرتقال والتبن بات يلزمهم رجلاً إضافياً.

هذا هو الواقع: لقد فقد الشيخ ضغينته وتنازل وغفر لولديه الصفعات والإهانات. وعلى أية حال لقد أفلح الاثنان. فرنسوا بات يملك مزرعة صغيرة في سوما وعاد بيار في أحد الأيام، فجأة برفقة إحدى النساء. «إنها زوجتي»، قال. يا للوقاحة! غضبوا جميعاً، فلم تبلغ الأمور حدّ أن يتزوج من دون علم والديه. إنها مسألة تهذيب.

في تلك المرة أيضاً، تساءل مارجول إن لم تكن ماري ألدبرام تعلم ولم تخبره. على أية حال لقد تفهمت هي وعذرت: «ضع نفسك في مكانهما». وللحظة، اعتقد أن بيار يرغب في العودة. لكن ها هو عاد فقط لأنه قد تزوج من إسبانية، جميلة جداً، سمراء، مع عجزين منخفضين

قليلاً وجبهة عالية. لا إسبان في بيتنا. ليس لهؤلاء الناس احتياجاتك نفسها، يكتفون كما العرب بالقليل من الخبز والبصل والسردين، وفجأة يشترون مزرعة.

وماذا لو كانت ماري قد أغرمت بواحد منهم؟ فهناك ما يكفي من المشكلات عندما يتحدث الناس اللغة نفسها فكيف بالحريّ حين يتكلمون لغتين مختلفتين. أكانت لتتزوج ماري من غريبٍ يمكنه أن يصحبها يوماً لزيارة بلاده المليئة بالحصى والكهنة والقبعات ثلاثية الكوز؟ وهل يجازف باحتمال عدم عودتها؟ ماري، ابنته المفضلة، لديها طريقتها الخاصة بمعانقته وإغراقه بالسعادة، التي تشعره أنه محبوب، في حين أن مارغريت... مارغريت كانت الجميلة الكئيبة. ماري شمسٌ فكرة خسارتها تفقده توازنه. هذا أمر محسوم.

طرف الشيخ بعينيه. في حاجز أشجار السرو التي كبرت، كان هناك، تماماً قبل أشجار القصب فتحةٌ يمكن منها رؤية جزء من الطريق التي توصل المزرعة بالشارع. اقترب بريك[1] يجره حصانان يمضيان خبباً: وصل حتى أشجار القصب واختفى للحظة خلف أشجار السرو ثم ظهر ثانية. كان ذلك جان بيار، والسوط بيده اليمنى يقود بتركيز كامل، ووالده يجلس بقربه، معتمراً قبعة من اللباد الأسود وواضعاً ياقة وثياب الأحد أو تلك التي ترتدى في مناسبات طلب الزواج. ففي مناسباتٌ كهذه، يجري الاحتكاك بالناس لذا يجب الاعتناء بالمظهر. لقد فعل ذلك جيداً الشيخ بويشو.

(1) بريك، أو كما جاء بالفرنسية break هي عربة بأربع عجلات يجرها جوادان، يكون مقعد سائقها مرتفعاً، وفي داخلها مقاعد طولية.

خفف جان بيار من سرعته وألجم الحصانين. في الخلف عائلة باري بأكملها، متلاصقة وقد غمرها الغبار. ترجلوا جميعهم وهم يتلفتون بتكلّف: الأم، فليبين، الفتاة المتزوجة من شرطي بشفتيها المضمومتين وبعجزها الممتلئ، وأورتنس التي يبدو أنها كبرت بسرعة، والأخوان الصغيران. عانقت الأم باري ماري وماري ألدبرام. يا للعجب، وكأنها تعرفهما منذ زمن أو كأنهما من أهلها.

«يا إلهي، كم مريح المكان عندكم»، صاحت الأم باري.

أما السيد باري فيبدو أنه نسي كيف افترقا هو ومارجول، قبل نحو خمس سنوات.

جان بيار هو الآخر عانق ماري، التي كانت مسحورة به، فهو يكبرها بنحو عشر سنوات.

لقد أعددنا القهوة. تفضلوا.

قهوة. أوه! إذن...

«بالطبع عندهم، ما زالوا يشربون البليحاء[1]»، قال مارجول لنفسه.

«انظري»، قال جان بيار لوالدته. «المدفئة. علينا أن نبني واحدة مثلها. نحن أيضاً».

كل شيء هنا يذهله وقد دلّ أيضاً أخويه وأورتنس على الكلب الضخم المربوط في الباحة. الكلب الذي لم يتوقف عن الكلام عنه والذي يحرس الفتيات عندما يخرجن. كلب شهير.

سكبت ماري الدبرام القهوة في الفناجين فقد بات لديهم فناجين للقهوة، وأيضاً للصبيين الآخرين اللذين كبرا الآن.

(1) البليحاء هو نبات صبغي أصفر.

– وما أخبار مارغريت؟ سألت مدام باري.

– السيدة دو رواي تراسلها باستمرار، وكانت تريد زيارتها ولكن الجنرال مريض. لذلك أرجات السيدة سفرها.

تنحنح مارجول.

– لم نتأخر على الأقل؟ سأل السيد باري في محاولة لتغيير الحديث. حدد وصول القطار عند الحادية عشرة ونصف.

– القطار، قالت السيدة باري، أنتم محظوظون. كم تتطلب عبره الرحلة إلى الجزائر؟

– ساعة وثماني دقائق.

ما زال الأمر يدهشها. يا لرفاهية القرب من العاصمة! بالنسبة إليهم هم الذي لا يبعدون عنها سوى ست فراسخ، تتطلب الطريق منهم نحو ساعتين مع التعب، ودائماً هناك تأخير. في حين أن مواعيد القطار دقيقة،

– أليس كذلك؟

– بالدقيقة، قال مارجول.

– هل تذهبون كثيراً إلى العاصمة؟

– أبداً. ولما نذهب؟... هذا لا ينفي بأن المستقبل هو للقطار. كان يعتقد أن لا بديل عن الحصان، لكن انظروا.

ولكن القطار الذي يجتاز السهل، لديه أيضاً سيئاته. السائل الأسود المحترق يهدد الزرع بالاشتعال. ألم يجرِ الحديث عن مراقبة القوافل في الصيف؟ ألم يمنع تكديس حزم القش والعشب على مقربة من سكك الحديد في الصيف؟ وهذا الدخان الذي ينتشر برائحته الكريهة في الحقول؟

«لننطلق»، قال مارجول.

صعد آل باري في عربتهم محاولين جميعاً اتخاذ المقعد الجانبي للحصول على رؤية أفضل. تسلقت ماري في المقدمة، بين جان بيار وحماها المستقبلي. وانحشرت عائلة بويشو على مقعد العربة ذات الدولابين.

«محمد»، قال مارجول، «تخيلوا. هو أيضاً سيذهب. يريد أن يرى الإمبراطور، في حين ستتولى زوجته عائشة حراسة المزرعة مع زهرة[1]».

لا مخاوف نهائياً. لن يسرقوا أو يحرقوا شيئاً يوم زيارة الإمبراطور، فالخطر الوحيد كان سرقة الأسلحة، التي يطمع بها العرب، لكن المنزل مقفلٌ ومحروس من قبل كلبٍ كهذا... في يومٍ كهذا، لا يمكن التنقل بالسلاح. فالعساكر منتشرون في كل مكان.

2

رفعت الأعلام ابتداءاً من مدخل جادة أشجار الدلب، حيث أقيم قوس النصر، كما علقت اللافتات من شجرةٍ إلى أخرى. حشد هائل من البشر، كل عربات المستوطنين وعدد لا يمكن تخيله من عربات النقل والمركبات، بعضها تجرها الثيران. أما العرب فكانوا يخرجون من كل مكان، على صهوات الجياد أو الحمير بقبعاتهم القش المقلوبة على ظهورهم، لكن معظمهم تدفقوا سيراً على الأقدام. كتلة هائلة خرجت من الأرض وتقدمت حتى عبر الحقول باتجاه المدينة، إذ في العادة، لم يكونوا يشاهَدون إلاّ في سوق الاثنين، أما في الأيام الأخرى فهم مقموعون. فقبل الفرنسيين، لم تكن بوفاريك سوى كومة من الغبار، وبئر مياه نتنة ومربط. اليوم تطورت كثيراً إلى درجة أنه بات على الواصلين الجدد أن

(1) الاسم الذي أطلقه بويشو على كلبته.

يسكنوا في القرى المتاخمة.

سأل مارجول زوجته، أين ينبغي الذهاب.

«إلى المحطة»، رد انطوان.

لقد كان حازماً هذا. إنه بويشو حقيقي. له رأس أبيه وبنيته وعزة نفسه وعينيه، مع حساسية ألدبرام.

سيبقون في العربة حيث يمكنهم الرؤية بشكل أفضل. لذا يجب أن يكملوا السير ببطء. يصلهم من البعيد صوت الموسيقى العسكرية وأبواق الخيالة. عندما سيصل الإمبراطور، سيختلف الأمر.

على بعد مئة متر من المحطة، ما عاد ممكناً التقدم، لشدة الزحمة. تدبروا بالممكن الجلوس عند حافة الطريق، قام مارجول بإشارة إلى عائلة باري قصد بها «هل تمكنتم من الجلوس جيداً؟» فقد طلبت منه ماري ألدبرام أن يكون لطيفاً معهم. وكان كذلك. ألن يشارك زواويو البليدة[1] في الاستعراض؟ في هذه الحالة، هناك خطر احتمال رؤية هكتور الرهيب على رأس سريته. فجأة انتشرت همهمات وصخب وأصوات أوامر. وقفوا وتسلق أنطوان ولاتيتيا فوق المقعد. لجهة اليسار، مع هبة بخار وزعيق مكابحٍ، مرت القاطرة المزينة بالأعلام الغارقة في الدخان الأبيض، إنها مقطورة- صالون، ما الذي لم يخترعوه بعد؟ مقطورات أخرى طليت بالأبيض للمناسبة، مقدّمها فقط. صياح هائل، يكسره صوت أبواق تردد في الحقول وملأ السهل، ودام دقائق كاملة، حتى ظهور الإمبراطور. الصياحات تستحيل هتافاً بهيجاً. هياج. الجياد تحاول أن تشّب صاهلة في

(1) البليدة تقع في شمال الجزائر على سفوح جبال الأطلس إلى الجنوب من سهل متيجة، ومدينة البليدة عاصمة متيجة.

حين يتشبث حشد من الأطفال بالدواليب والعربات ويهزون العربات.

«هؤلاء الرعاع... هيلا، هيلا، هيلا...».

يا إلهي، كان يجب ضربهم بالسوط لإجبارهم على ترك العربات وإلا لكانوا قلبوها. شوهد الإمبراطور يدخل عربته ذات الأربعة جياد ويختفي مع مرافقين يعلوهم الريش. كان أفضل الاحتمالات الوصول إلى ساحة الكنيسة حيث ستجري المراسم الإحتفالية. ولكن حصل تزاحم بدأ بعده العرب بالتدفق من الجهة الأخرى للمحطة.

«اتبعوني» صرخ مارجول لعائلة باري.

بعد أن أخذ احتياطاته، تراجع وسلك قارعة الطريق ووصل بهدوء إلى ساحة مزغران. زينة في كل مكان، صور لبادينغي[1] على كل الواجهات الزجاجية، وفوق كل شجرة دلبٍ مجموعة من الأعلام ترفرف بلافتات موقعة بحرف «ن» كبيرة. وعلى الجدران، ملصقات طليت باللونين الأزرق والأحمر.

كان يمكن ركن العربات في المساحات الشاغرة تحت شجر الدلب، مع نواطير وتبن للجياد لكن المشكلة كانت في معرفة إن كان عليهم أن يحملوا معهم الطعام أم لا. كان الوقت قد تخطى الظهر، إذن يمكن حمل الخبز والمقانق تحت الأذرع. ولكن زبدية لحم البط المحفوظ التي حملتها عائلة باري بدت أكثر لياقة وسيشربون معها القليل من النبيذ الوردي بالقنينة وسيقدمون الماء للأطفال. سيبقون واحدة في المتناول والباقي يخبأونه تحت المقاعد.

---

(1) Badinguet وهو الاسم الهجائي الذي أعطي للإمبراطور نابوليون الثالث وتذكير لاسم بادينغات الذي كان اسم زوجته الإمبراطورة أوجين (اوجيني هو اسم عائلتها)..

– هل تناولت حبتك من سلفات الكينين[1]؟ سألت مدام باري.

– هذا الصباح.

– لأننا جلبنا معنا بعض الحبوب منها.

نوبات الحمى، لم يكونوا في البداية مقتنعين بها. ولكن مع أول أزمة حمى في العائلة تبين أن الأمر رهيبٌ: تلك القشعريرة والارتعاشات واصطكاك الأسنان، حتى يحسب المرء أن روحه ستفارق جسده، وذلك البرد الذي يخترق العظام ويصل لكل الجسم مع شعور بالاختناق.

في عائلة بويشو، كان مارجول الأكثر تأثراً بالحمى، يليه ابنه أنطوان. فالنساء على ما يبدو يتحملن على نحو أفضل تقلبات الطقس، ولاسيما لاتيتيا. لاتيتيا النحيلة، التي ما زالت صغيرة جداً، على الرغم من أن الفتيات في هذا العمر ينمين بسرعة كالفطر، لاتيتيا هذه كانت... كيف يمكن قول ذلك؟ الفتاة المثقفة. في الثالثة عشرة وما زالت ترتاد المدرسة. طيبة، عفريتة، لها بريق في عينيها: إنها من النوع الواثق من نفسه والقلق في آن معاً. تعلم الكثير من الأمور. أحيانا تقرأ في المساء بصوت عال مقتطفات من بوسيه وأبيات من راسين أو كورناي تشبه مطالع فجر ساحر أو أسراب طيور كثيفة. قد تغدو معلمة. على أية حال، ليس فيها أي عيب، فهذا شيء يأتي بالولادة، بالدم.

– انظروا إلى العرب، أضافت السيدة باري، فهم لا يصابون بالحمى.

– لا أعرف، قالت ماري ألدبرام. أطفال العربيّ عندنا مرضوا أيضاً. أعطيتهم من سلفات الكنين. يموت الكثيرون منهم ممن يكونون في أعمار صغيرة.

(1) الكينين هي مادة شبة قلوية تستخرج من لحاء شجر الكينا وتستعمل كدواءٍ للحمى.

– ربما. ولكن من ينجو منهم، يمسي... جلموداً».

أشجار الكينا التي زرعت في كل مكان، تنشر رائحة تطرد الحمى. إنها تأتي من أستراليا، حيث يمضغون أوراقها. في سيدي موسى زرعت على امتداد نصف فرسخ، على قارعة الطريق. يقال إنها تكبر لتصبح ضخمة.

لا يبدو أن الفرقة تتحضر للاستعراض، ولو كان فيكتور هنا، ما كانوا سيرونه إلا بالصدفة. فلن يكون هناك عرض لأنه عادة يسبقه تجمع للعسكريين قبل أربع ساعات. هنا، يبدو أن كل شيء يجري ببساطة. إذ لم يلحق بالإمبراطور سوى مجموعة من الفرسان الجزائريين، بأعداد أقل من تلك التي رافقت الجنرال دو رواي يوم زيارته للمزرعة. ليس فقط يمكن الاقتراب منه وإنما يوحي أيضاً بأنه يدعو الحشد للإحاطة به. حاكمٌ طيب يعرف أنه لن يكون هناك أورسيني[1] جديد يفجر آلة جهنمية تحت أقدامه.

– هل يقنعك ذلك؟ قال مارجول للسيد باري. «(أخواننا العرب)»...

– لا أعلم. أخواننا، هذا يدعو للاستغراب. انظر إلى هذا.

كان يشير إلى العرب الذين تسلقوا الأشجار وجلسوا على الجذوع الرئيسية، في حين تسلق صبية آخرون إلى أماكن أعلى مثل عصافير الدوري.

قلد الإمبراطور رئيس مؤسسة الزراعة[2] والسيد دو فراكليو وسام

(1) Felice Orsini، الرجل الذي حاول اغتيال نابوليون الثالث في العام 1858، ويعرف بـ«قنبلة أورسيني» بقرونها المعبأة بفلمينات الزئبق التي تنفجر عند الارتطام من دون الحاجة لمصهر، وقد كان هو من اخترعها وقام باول التجارب عليها عندما ألقى بها على نابوليون الثالث ولكنه أخطأ الهدف، وقتل ثمانية وأصاب 156 آخرين بجروح، وقد أعدم بالمقصلة في العام نفسه.

(2) هي في الواقع مؤسسة الزراعة والعلوم والفنون في سارت (مقاطعة فرنسية) أسست

الشرف. ما كان بالإمكان جيداً رؤية قبعته المزخرفة. أما المنصة التي جهزت للمناسبة فقد ملأها العرب. ماذا؟ هل انتهى العرض؟ أهذا كل شيء؟ من خلف بعض رجال شرطة مدعين البورجوازية ودرك ومن خلف ضباطه المعاونين، اخترق الإمبراطور الحشد عائداً إلى عربته وسط التصفيق. هذه المرة واجه الجمهور المحتشد غير عابئ بالألغام. جعلوا يلكزون بمرافقهم للتقدّم وسط رائحة العرق وقذارة البرانس. دنا أكثر، مد من فوق الأكتاف يداً ضعيفة كادت تقتلع، يشدون عليها ثم يتركونها، ثم يلثمون السبابة التي لمستها ويضعونها على القلب، آخرون ينحنون، ليقبلوا ذيل ثوبه وكميه. غريب إعجابه الشديد بالعرب. من الواضح أنه لم يكن يعرفهم سوى بالخيال أو من خلال اجتماعاته بعبد القادر. كان يعتبرهم جميعهم أسياداً. في فرنسا يقاطعونه وفي الجزائر يعشقونه. فرئيس الدولة يعتبر دائماً أن كل من يهتفون له من العرب أو غير العرب هم أناس طيبون.

في هذه اللحظة، من كان يعتقد بأنه قادرعلى جرأة كهذه؟ لحق جان بيار بالإمبراطور جاراً ماري خلفه. هكذا يفعل البورغونديون[1]!

صرخ جان بيار «يحيا الإمبراطور!» بأعلى صوته، إلى درجة أن الإمبراطور التفت فرأى بيار وجهه الناعم لا بل الساذج، التعب المليء بالبقع وعينيه اللتين لم يتمكن من تمييز لونهما جيداً بسبب ظل القبعة، بنيتان أم فاتحتان؟ ما كان ملفتاً فيه هما شارباه الشقراوان اللذان نبتت فيهما بعض

في 1761 كمكتب زراعي ثم توسعت مهامها لتشمل التاريخ الطبيعي والفني والأدبي والتاريخ وعلم الآثار.

(1) Burgondes وهم شعب ألماني من أصل نروجي، شارك في الغزوات والهجرة نهاية العصور القديمة وبداية العصور الوسطى ليستقروا في النهاية في منطقة الغول، والغول هو الاسم الذي أعطاه الرومان للمنطقة التي تتضمن القسم الاكبر من الاراضي الفرنسية، وبلجيكا، وشمال ايطاليا.

الشعرات الشائبة، المصفرّة قليلاً فوق الشفة العليا، لأنه مدخن شره كما يحكى، وحده من يملك هذا الحق أمام الإسبانية التي تمقت التدخين. وها هو سيعود بأكياس من شبلي[1] تساعده على الحلم فوجهه يكشفه: له عين رطبة حالمة مستعدة دائماً لذرف الدموع. فقد أذهله مجرد انفجار حماسي من فتى فرنسي، شكره بابتسامة، وعندما رأى ماري حياها بحركة منه وانحنى عليها قليلاً وصافحها وقال لها بعض كلمات لم يمكن سماعها، ثم ابتعد مدفوعاً من الحشد. دارت كتفيتاه المذهّبتان بين الحشد ثم اختفى بساقيه القصيرين.

بدا جان بيار كأنه يريد اللحاق به. لقد تأخر كثيراً. لن يزحف وراءه مثلما يفعل العرب لا لشيء إلا لرؤيته لوقت أطول بقليل.

– إذن، هل كلمك جان بيار، ماذا قال لك؟

– لي أنا لا شيء، كلم ماري.

لم تتذكر ماري، بسبب انفعالها، جان بيار هو من سمعه: «لقد قال لها، ماديموازيل، أنت فاتنة، أتمنى لك كل السعادة.... هذا ما قاله بالضبط».

ما عاد هناك سوى العودة إلى العربات بعد مرور نحو الساعة. عاد الإمبراطور بعربته إلى الجزائر. في بوفاريك، نظم حفل راقص وموسيقى وحفلات جوالة وجرى إطلاق للأعيرة النارية، ولم يشأ الشباب تفويت الفرصة فتركوا العربة للأهل ومضوا.

3

انطلق مارجول بخبو خفيف، مديراً ظهره للجبال.

---

(1) شبلي وهي قرية في منطقة البليدةالجزائرية.

أخذ السيد باري يتأمل السهل والسلسلة المتواصلة من شجر السرو وشتل التبغ الذي ما زال يانعاً وأسياج الصفصاف على طول القنوات ورقع الكروم. إنها منطقة غنية، أكثر ثراءً من سيدي موسى، فهو يرى بوفاريك للمرة الثانية وفندق مزغران الذي لن يذهب إليه يوماً لشرب كأسٍ من الغروغ[1] أو ألأفسنتين أو حتى تناول العشاء، هناك حيث يضيق المكان بالرواد.

– أنت على الأغلب تربّي الثيران، قال مارجول. أما أنا فأربي الأبقار...

– علي أن أوضح لك. لدي بقرتان فقط للحليب. الثيران أكثر نشاطاً، لدي منها ستون بالمجمل.

– وهذا كم يعود عليك؟

– ليس بالقليل، فأنا أتعامل مع الجيش.

يستبقي السيد باري أفضلها للفلاحة والجر، ثيران من غيلما، تزن مرتين أقل من أبقار فرانش – كونتي. أيكون ذلك بسبب التهجين؟ يجب الحذر فالأكثر نشاطاً من هذه الثيران تصاب بالوهن ما إن تنقل إلى مناخ جديد. لذا يجب تصنيفها جيداً.

الجياد أكثر نبلاً. تتصرف كالبشر، ثم إن لروث الحصان جانب نظيف ويكاد يكون أنيقاً. يُعتقد أن الأبقار صلبة حديدية الأبدان. هذا في الظاهر فقط. أو أنه يجب تركها لأشواكها. فما أن نبدأ بالعناية بها يمسي وقوعها في المرض سهلاً، وتقعدها عن الحركة أتفه الأسباب، وهذا ما يفقدها شهيتها وبالتالي تنهار.

(1) Grog وهو مشروب كحولي ساخن وحلو.

«الجياد، أجل»، قال مارجول، «كلمني عن الجياد».

لاسيما الجياد العربية، تعرف كيف تتحمل الجوع عندما يشحّ الطعام، في حين تهزل الأبقار وتصاب بأمراض بشعة كالحمى والإسهال والرعام وما إلى ذلك. الأبقار هي أقذر الحيوانات على الإطلاق، مع آلات صنع الحليب هذه التي تحملها في بطونها! لا يمكنها أن تخطو خطوة من دون أن تمطر روثاً، وعلى الرغم من ذلك تبدو مرهفة كالفتيات الصغيرات فهي لا تقرب مثلاً العشب القذر. يجب أن ننظف طوال اليوم الأوساخ إن لم نشأ أن نراها تتمرغ في القذارة، لأنها ستلوث بها أفخاذها وبطونها وأثداءها وأحياناً ظهورها. اشتم مارجول رائحة الروث، رائحة أفظع حتى من رائحة الخنازير. فالأب باري وعلى الرغم من أنه يرتدي قميصاً وثياباً نظيفة، إلا أنه كانت تنبعث منه رائحة البقر.

غرقت ماري ألدبرام في مقعدها متكئة على المسند. ألن يتوقف هذان الرجلان اللذان تراهما ينحنحان وهما يتناقشان، عن إخفاء الضغينة تجاه واحدهما الآخر، محاولاً كل منهما جسّ نبض الآخر في حين أنهما باتا مرتبطين بأواصر المصاهرة؟ هل أخطأ مارجول بمعاملة آل باري باحتقار. من يمكن أن يحبّ هذا الثور المسنّ الذي تكمن كل قوته وانتصاراته في قرونه وأعضائه التناسلية؟

كانت تبتسم للعرب الذين تمرّ بهم، إنه موسم الأعياد لديهم. «نحن»، قالت في سرها، «لم تعد لدينا أعياد. عيدي الوحيد كان ممارسة الحب مع الزوابع والرعد، إنها حياة حيوانات في المجمل. هل ستكون مارغريت أكثر سعادةً، وماري، حسناً...» ستعيش ماري بسلام. في تربية البقر، أي عارٍ هذا؟

«ثم، اعذرني لهذا التعبير»، قال السيد باري، «لن ينقصنا بذلك الزبل للأرض. وهذا ما يدهش العرب. عندما نفكر في الطريقة التي يزرعون بها...».

«اعذرني لهذا التعبير» لأنه تلفظ بكلمة زبل؟ هل تتكلم عائلة باري أساساً مثل النبلاء؟ أو مثل العرب؟ فمارجول يكره الأسلوب المتكلف للكلام لدى العرب. كل هذا الإطناب والابتهال باسم الرب قبل الدخول في ما يريدون قوله! عليك أن تكون صبوراً حتى لا تصاب بالسأم.

وصلوا إلى المزرعة، فاستقبلوا بنباح زهرة المبتهج. فتح مارجول الأبواب وألقى نظرة على الإصطبل ثم تحسّس البندقية خلف الخزانة. سيعود محمد عند المساء بعد هذا اليوم المجيد. «العرب، أخواننا...» من يعلم إن لن يطلق الإمبراطور نكاتاً أخرى جديدة من هذا النوع؟ حاول السيد باري قدر الإمكان أن يحمي نفسه من الرذاذ الذي يطلقه الكلب عندما يعطس.

– بالمناسبة، قال السيد باري، هل ألدبرام هو اسم نجمةٍ لدى العرب؟

– لا يجب أن تبالغوا. النجوم هي للجميع. ربما لأنك تعتقد أن زوجتي وأنا من العرب؟ الأسماء، كما تعلم، يمكنني أن أجد لك منها الكثير. الجنرال دو رواي أخبر صهري بأن كل ما يبدأ بـ بن أو بو أو آل... وحتى لو شئنا بـ شا، التي تلفظ دجا بالعربية وأخرى كثيرة. بولونجي مثلا، هي أسماء فرنسية جداً. وإن كان اسمنا بولونجي؟ هذا لا يشبه مثلاً أبو خنجر أي صاحب الخنجر الكبير؟

– لقد نبهتني. لدينا أحدهم باسم بينيجان في سيدي موسى.

– وبونشاكور، أضاف مارجول وهو يرمي قطعة من الخبز لزهرة

التقتطها بقرقعة مخيفة في حنكه، ماذا يعني ذلك؟ أبو خنجر. وباري، ماذا تعني؟ مدينة باريس؟ في هذه الحالة...

– لا تتردد، قال السيد باري مبتسماً. هل هذا يعني أننا يهود؟ لا. اسم باري مشتق من اسم باتريس.

– البريك! لقد وصلوا، قالت ماري ألدبرام وهي خارجة، يتبعها الكلب.

– لو سمعت جيداً كيف يناديها ابنك، قال مارجول، أشعر بأنك أطلقت أنت أيضاً أسماء غريبة على جيادك. ألست طريفاً أنت؟ أن تسمي الجياد بعربي وإبراهيم، إنها لوقاحة.

– لماذا؟

– عربي، هذا يعني العربي، وإبراهيم، هو إبراهام. بعض القهوة؟

– القليل فقط.

– ماذا أحضرتِ؟ قال مارجول للايتيتيا. الصحيفة؟

لم تترك ماري جان بيار، لدرجة أن مارجول شعر بالغيرة. عليهم أن يتناقشوا بخصوص الزواج. فهناك حاجة لجان بيار في سيدي موسى وإلى ماري هنا. سنرى.

«اقرأي لنا شيئاً»، قال مارجول للاتيتيا.

فلشت لاتيتيا الصحيفة على الطاولة. توزعوا وراحوا يراقبونها تبحث بين العناوين.

«عشاء على شرف فخامة الإمبراطور والإمبراطورة في قصر مصطفى».

أرجع مارجول مقعده قليلاً إلى الوراء، واستلّ غليونه.

- «حساء السلاحف، ثلاثة أطباقٍ حارة، ثلاثة أنواع من المقبلات: سلمي[1] التدرج، شرائح من بقر الوحش، خبز الحبارى، نوعان من المشاوي، النعام ولحم الخنزير المدخن وثلاثة أنواع من الحلويات شرقية.

- أكملي، قال مارجول.

«كلمة فخامة الإمبراطور نابوليون الثالث للشعب العربي...».

ها هي، قال مارجول، كنت متأكداً.

منذ ثلاثة وخمسين عاماً، عندما وطأت فرنسا أرض أفريقيا..

ذكر الإمبراطور الأسباب التي دفعت بالجيش إلى سيدي فرج. حيا المقاومة العربية وقارنها بمقاومة الغال للجيوش الرومانية. فمن اندماج روما والغال، ولدت فرنسا.

كانت لاتيتيا تقرأ بصوت رتيب، كما في المدرسة، متأتئة أحياناً بعض الكلمات:

«من يدري، قد يأتي يوم يعرف فيه العرق العربي مدموجاً بالفرنسي... شخ - صية فرد - ية وازنة، أعادت لاتيتيا، مهجية الكلمة. تقبلوا إذن الأثمان المطلوبة لذلك، نبيكم قال عن ذلك: الرب يعطي القوة لمن يشاء. والقوة التي استمدها من الله سأوظفها لصالحكم ولخيركم. أنتم تعرفون نواياي....

وذكّر الإمبراطور بإحترامه للقادة العرب والإسلام وحرصه على خدمة الجميع.

«ثقوا إذن بقدركم، بما أنه مرتبط بقدر فرنسا وأدركوا ما يقوله القرآن

(1) سلمي: يخنة لحم الطيور.

أن من يهدِ الله فهو المهتدِ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً...»[1].

هذا لا يعني شيئاً عظيماً، قال مارجول.

نهض السيد باري متثاقلاً.

«فلنعد» قال.

بدأ الطقس يغدو عاصفاً. «أنت فاتنة، ماديموازيل»، قال الإمبراطور لماري... كانت هذه الكلمة تستحق رحلة كهذه، قال جان بيار. يمكنها أن تضيء حياةً كاملة. فهو لم يحب حقاً مارغريت. ليس بهذا الشكل. أما ماري ففكرة الفراق عنها تجعله يشعر بالوحدة، ويشتاق لها. هذا هو الحب.

هيّأ العربة. أين أنت ماري؟ وكل هؤلاء العجزة الذين لا يفهمون شيئاً، يتجمعون حول جريدة الجزائر التي اشتروها بفلسٍ. فلس، ما هو الفلس؟ ثمن بيضة. في السماء، حيث غابت الشمس، وظهر القمر نصف دائرةٍ بالكاد يمكن رؤيته في السماء. ماري، قلبي. ماري، الرقة. «هل غدوت مجنوناً أم ماذا؟ سأل جان بيار نفسه، متعجباً من أنه وصل في حياته للمرحلة التي باتت فيها امرأة تساوي بالنسبة إليه العالم بأكمله. بهدوء، استحثّ الجياد بالرسن وبضربة سوط تحت البطن، جعلها تخبو.

وقفت ماري ويد والدتها على كتفها تنظر للعربة وهي تبتعد حاملةً معها سعادة يومها.

(1) جزء من سورة الكهف، الآية 18.

الفصل الثاني

عند عودتهم إلى منزلهم، يكتشف آل باري أن قطيعهم قد سرق. ينطلق جان بيار للبحث عن الثيران في منتصف الليل.
عودة القطيع وولادة شعور غريب بالأخوة.

1

ما كان مفاجئاً في البداية هو الكلب. يشدّ رسنه نابحاً بقوة، كأنه يريد أن ينطق. وليس بنباح فرحٍ لعودة أسياده. غريب. عندما توقفت البريك، بدا الصمت مريباً. ففي الوقت الذي كانت تنتظر فيه السيدة باري زوجها أمام الباب كي يعطيها المفتاح المخبأ تحت حجر عند أسفل شجرة الجوز، وصلها على شكل مفاجئ، ما يشبه النواح، أو نعيب بوم.

هرع السيد باري باتجاه الصوت.

اكتشف مصدر النواح، هناك في الباحة عند مستوى الحوض، يأتي من كوخ مفتاح، خلف سياج شجر التين البري. نواح امرأة أو طفل. نادى بصوت سيدٍ، حاد وناري.

«زهرة!...».

بكاء في دياره؟ فوضى؟

اقترب إلى المكان مؤشراً لديزيريه وفرنسوا اللذين تبعاه: «فليبق هنا الباقون». مفتاح في المنزل، لا حرج أمامه. حتى إنه بإمكان زوجته أن تظهر من دون حجاب أو بثوب البيت فهم يعتبرون آل باري من أهل المنزل. خلف سياج شجر التين البري، كان هناك أيضاً حاجز من القصب،

ثم وقبل الكوخ المسقوف بالسعف والألواح والصفائح بطريقة عشوائية، ملعب ترابي صغير، تنتشر فيها قطع صغيرة من الحطب والخرق وكسرولة قديمة متكسرة. ثم فجأة، بشعرها المللموم في وشاح قطني أخضر، خرجت زُهرة زوجة مفتاح مخبئة وجهها بين يديها وجثت عند قدمي السيد باري ثم ارتمى أطفالها بدورهم عليها وهم ينتحبون. حسناً، حسناً...

لا يمكنه على أية حال أن يحملها. لا يمكن فعل ذلك. العرب بين بعضهم بعض يتحاشون أساساً أن يتلامسوا. ما بها هذه المرأة تهشم وجهها بأظافرها وتجعله ينزف دماً وهي تجهش بالبكاء؟

ظهر جان بيار بسرعة.

«أين مفتاح، أوارا؟».

لماذا يسأل عن مكان وجود مفتاح؟ هو يعرف جيداً. سيكون مع الأبقار بالقرب من الجدول. وسيعود.

كل الثيران، حتى حيوانات الحراثة والبقرتان ترعى على بعد ربع فرسخ، على ضفاف الجدول الجاف، وقد فضل مفتاح أن يحرسها بدل أن يذهب في هذا اليوم للتهليل للإمبراطور في بوفاريك. يجب اجتياز أشجار البرتقال، والتقدم عبر حزم الشعير باتجاه دوار الزواوي لرؤية القطيع الذي يتحضر مفتاح كي يبيته لأن الليل سيهبط عما قريب.

«مشى[1]...».

هذا ما ظن السيد باري زهرة تقوله. «ماذا؟»، تساءل في سره. لقد ذهب؟ إلى أين؟ ها نحن ذهبنا جميعاً نجعجع «يحيا الإمبراطور»، أسرجنا جيادنا بسبب مخبول كبير سلبت عقله فتاة والمصيبة تنتظركم ما إن تديروا

(1) «مشا» وهي الكلمة التي قالتها بالعامية الجزائرية والتي تعني رحل أو ذهب.

ظهوركم...».

«هل ستتكلمي، هيا؟».

المزيد من الشهقات. حسناً. لقد جاء رجال وأخذوا الثيران وذهب معهم مفتاح. سرقة الثيران لا تتوقف وهذا ما يرعب جميع المستوطنين. فما عاد في المنطقة سوى آل باري يتجرأون على تربية الماشية. ولكن هذا لوجود الشرطة دائماً عندهم...

بدأ السيد باري يرتعش، إنها الحمى. الكينين. «ديزيريه، اذهب وأحضر لي الكينين. نعم مع كوب من الماء، بسرعة». مع جان بيار تأتي ردة الفعل سريعة، لم يفك الجياد عن العربة، وسارع بالذهاب إلى القرية مع فليبين لإخبار الشرطة.

كم هو مرّ مذاق الكينين! وبعده سيكون عليه النوم. القاعدة: عندما يشعر المرء أن الحمّى قد تمكنت منه، عليه اللجوء إلى الفراش والتدثر جيداً. وعلى أية حال، لا يعود المرء يشعر لا بساقيه ولا برأسه ولا بأي شيء.

شعر السيد باري بالبرد. الماء الساخن، أيتها الأم، الماء الساخن! لم تَسخن الماء بعد لوضعها في الجراب. كان الأمر يتطلب مدافئ حقيقية للفراش للتغلب على هذه الموجات الباردة التي يسبح فيها وطرد هذه الكتل من الجبال الجليدية التي امتلأت بها السماء. جبال جليدية في السماء؟ إنه يهذي. ليس لهذا الحد. ليس في بداية المرض. بعد ذلك ممكن، عندما تتفاقم الحمى.

فتح عينيه ليرى أورتنس تضع جرب الماء الساخنة تحت قدميه وعند خاصرتيه. أورتنس يا ابنتي هذا بسببك. لو بقيت في المنزل بدلاً من أن تركضي في الدوار. أي فتاة عجيبة هذه أورتنس! لا يمكن القول إنها

رقيقة، إنها شيء أخر، عنيدة بأفكارها التي من المؤكد ستكون مرعبة، لو تجرأت على البوح بها، والأغاني التي حملتها من هناك: *مول العقودة الحمرا* «خيّال الفرس الأحمر» والتي كانت ترددها بصوت خفيض وهي تصفق بيديها.

لاح ضوء عند باب غرفة الطعام. لم يكن بعد قد هبط الليل بالكامل، لماذا إذن إضاءة قنديل الزيت ما دام هناك قدرة بعد على الرؤيا.

«الشرط...».

كانت أسنانه تصطك، وكلماته مشوشة.

«الشرطة».

انحنت عليه أورتنس: لقد ذهبت فليبين لتخبرهم. سيصلون بعد قليل. والأب بويشو! آه! لقد تغابى هذا بجعله الآخرين يعتقدون بأن آل باري يهوداً... ولكن في المقابل لماذا تحدث هو عن اسم ألدبرام؟ لقد كانت أجوبة الشيخ جارحة. كم تعطي الثيران؟ على الأقل مئة فرنك ذهبي. وحيوانات الحراثة ضعف ذلك والأبقار ثلاثة أضعاف.

دخلت السيدة باري: الأبقار هنا. لقد عادت وحدها أما جان بيار فيركض خلف الثيران. بالطبع الثيران سرقتها أصعب. خمسون ثوراً مسمنّون وأكثر من عشرة للحراسة مدربة، إنها لثروة. لا، لن يدمّر العرب آل باري بهذه السهولة. بأي حقٍ أساساً؟ من يفيق قبل طلوع الفجر لكي يرعى الحيوانات؟ فقد كان من النادر إيجاد مفتاح مستيقظاً عند الفجر، ثم إنه يحتاج خمس دقائق على الأقلّ للصلاة. والمراعي، من يبذرها ويعتني بها؟ هي لا تنبت من دون عمل ومن دون بذار جيدة ولا تسميد، ذكرني بالعبارة. لذلك سيكون أكثر سهولة على العرب سرقة الثيران دون

أن يعبأوا بأمر تربيتها. فهم يربونها في الجبال، ثم يبيعونها الأسواق. دواب آل باري جميعها معلمة بالأحمر بصليب عند الفخذ الشمالية. يمكن تعرّفها بسهولة. وحتى من دون هذه العلامة، فهل يشبه ثور رباه الأوروبيون ثوراً عربياً؟ آه! كم كان ذلك حرفياً: «أخواننا العرب...» من قال ذلك؟ الإمبراطور أم الأب بويشو؟

بدأت الرعشات تخف وتيرها. أورتنس، ابنتي... في السماء، خلف الجبال حيث العرب يربون الثيران، رياح شرقية جافة مفاجئة تهب وتشعل النيران. اللحظة الرائعة الوحيدة في الأزمة: نوع من اللذة السرية. فبعد البرد القاتل، موجات السعادة هذه التي لا تطول. فسريعاً، أحرقتك الحمى. أربعون درجة يقول الطبيب، وأحياناً أكثر. وعندما تعاود الهبوط، يزول كل شيء وتصبح خرقة، ثور يشوى على الجمر، تشتعل الأفكار وتتحول إلى بخار ودخان.

تحسست أورتنس يدي والدها وحاولت تبريدهما بكفيها، إذ تهيأ لها أن يديها أقل حرارة. وعلى شعاع الشمعة الموضوعة على المنضدة جانب السرير، ظهرت على وجنتي الأب اللتين حلقهما ليلة أمس بضع شعرات شائبة، غارقة في العرق.

2

القمر يسوط الجبال بشعاعه القوي فتظهر واضحة كما في عز الظهيرة بسفوحها المتعرّجة وغاباتها المخططة.

لا أثر للثيران في المراعي حيث كانت اليوم. في هذه الفصول، لا تترك الأرض أي آثار، فقط دوس الأعشاب: ستون ثوراً، حتى لو فرقت لا

يمكن أن تختفي بهذه الطريقة. على السارقين أولاً أن يجتازوا مجرى النهر للوصول إلى القرية ثم تسلق وادي جمعة المنحدر أفقياً، لجهة جنوب – غربي الجبل. هناك، حيث عندما تمطر، تتدفق إلى النهر كميات هائلة من المياه.

لم يكن من الضروري سؤال العرب. ويستحيل على أية حال مصادفة أحد منهم يتنشّق نسيم المساء، أم أنه سيكون عليهم الذهاب إليهم حتى المشتى. فمن يمكن اللقاء بهم هم العائدون من لاربعاء لأن شائعة سرت بأن الإمبراطور سيمر من هناك. «هل رأيتم ثيراناً ذاهبةً باتجاه الجبل». سيردون مدعين السذاجة. ثيران؟ أي ثيران؟

الآن، ادعوا الجهل الكامل، رغم أنهم يعرفون جيداً ثيران آل باري. فعلى بعد كيلومترات، يمكنهم أن يحددوا لمن تعود أي غنمة أو أي الحمار. الثيران، يسري الاعتقاد بأنها كلها متشابهة. وهذا غير صحيح. ثمة فوارق في الفرو والحجم والشكل والقرون والبقع والأرداف، هذا من دون حساب شخصية الحيوان إذا صحّت التسمية، إذن يمكن جيداً التمييز في ما بينها. إن كانت عائلة تبحث عن ثيرانها المعلمة بصليب عند الفخذ الأيسر، فهذا لأنها سُرقت. لذلك يصمتون. ولكن يا لهذا الحدث، سيكون محور الأحاديث للأسابيع والسنين القادمة! كان من غير المجدي إضاعة الوقت. هيا فرنسوا، إلى النهر.

بدا الوادي غريباً في بداية هذا الليل، مليئاً ببنات آوى المذعورة الفارة. لن يبددوا الذخيرة على ذلك. ثم لا طلقات نارية. لا ضجيج. انتهت العاصفة بأن انتقلت إلى الجهة الأخرى من الجبال وبعيداً جداً مزق بريقها السماء، هناك لجهة المدية، وبات عليهم أن يصيخوا السمع لالتقاط صوت

الرعد الذي ابتعد. لحسن الحظ، وإلا لكان عليهم البحث عن الثيران تحت المطر... إنهم محظوظون.

لا شيء حتى مرتفعات القرية. لا شيء في المعبر المؤدي إلى طريق روفيغو[1]. «يا إلهي، هل سأخفق في العثور على الثيران؟»، سأل جان بيار نفسه. «في هذه الحال، حبيبتي ماري، لن يكون لدي الكثير لأقدمه لك. عندما سنتزوج، ستكونين زوجة ابن مستوطن مفلس. لن يبقى لدينا سوى حزم حقائبنا. لنذهب إلى أين؟» لو تمكنوا من إعادة الثيران، ستنتقل ماري للعيش معهم في سيدي موسى. إن لم يجدوها، فسيكون على جان بيار الانتقال للعمل في مزرعة بويشو. وفي سيدي موسى سيكمل فرنسوا العمل مع أبيه. سيبذرون الشعير والقمح وسيجربون زراعة الكرمة. فهذه لا يمكن سرقتها.

كان من حسن حظهم أن الأب أصيب بالحمّى الآن، إذ كان سيصّر على البحث عن الثيران في السهل، وتحت وطأة غضبه كان ليذهب ويهدّد آل زواوي. لا لم يكونوا هم، جان بيار بات مقتنعاً أكثر وأكثر. أهذا ما يقصدونه عندما يقولون إن الليل يحمل القناعة؟ وعلى الرغم من العيش تحت سقف.. لكن لا يمكن الكلام عن النوم، فالليل يشبه الوقوف فوق سفينةٍ تميل بك إلى الجهة التي يختارها ربانها. تعتقد بأنها تتوجه إلى الجزائر، ولكنها قد تحملك إلى أي مكان آخر. عندما نكون جالسين تحت سقف ونتكلم مجتمعين حول مصباح، متكئين على الطاولة، يصبح الليل

(1) رفيغو (Rovigo) هي مدينة بوقرة الجزائرية وهي إحدى بلديات ولاية البليدة التي أطلق عليها الفرنسيون خلال احتلالهم للجزائر اسم روفيغو، وذلك تكريماً لدوق دو روفيغو الذي كان رئيس أركان القوات الفرنسية في الجزائر بين 1831 و1833 والذي عرف بعنفه وشراسته. وتجدر الإشارة أن هناك مدينة ايطالية تحمل هذا الاسم نفسه.

حلماً أكثر خطورة من الأحلام الأخرى، لأننا نعي أن الأحلام مجرد أحلام. أما في الحالة الأولى، فنستسلم لثمالة الصمت، ونعيق البوم وعواء بنات آوى، كبار المستوطنين يتذكرون أنهم كانوا يسمعون حتى أصوات أسود، يحملك خيالك للقفز خلفها. لا يمكن لأحد مقاومة ذلك، فالرجال الأكثر يقظةً، يتركون أنفسهم يخدعون. وفجأة، وكونهم مجتمعين حول بندول ساعة كونتية[1] يلمع رقاصها المتحرك، يحتسون البيكولو[2] ويأكلون بعض الجبنة مع الخبز، معتقدين أنهم أقوياء. بسبب البندول ربما، أو بسبب الصندوق الذي حملوه من فرنسا، أو الطاولة والمقاعد المشغولين من الخشب الرديء، الذي مع الوقت ومع طليه وتشميعه بات يبدو كخشب الكستناء. البندول يقطّع الوقت كما أن هناك الصندوق، كما ذاك الذي لدى البدو، يحوي الثروات: كتاب صلاة، بعض العلب، وثائق ولادة، توكيلات، شهادات حقوق، وثائق العسكرية. المال، لا، ليس هنا يخبأ المال. عناوين المالكين القدامى، كل تلك الأوراق وبقدر أهميتها، فهم لا يعرفون أو يكادون يجهلون قراءتها، وصور كبيرة لحفلات القربان الأول. يلف جان بيار وفرنسوا أحياناً السجائر ويشعلانها، فيدور دخانها حول المصباح الزيتي، ثم يختفي في العتمة. هناك دائماً، هذه اللحظة من المساء، بعد العشاء، حيث كل شيء يبدو سهلاً، لأنه تم زرب الثيران في الحظيرة، والليل مع هذه البنادق المعلقة خلف الباب يبدو كأنه يحمي.

في النهر، كانت الأحذية التي لم يكن هناك وقت لتبديلها تسبب الألم، أكعابها تنغرز في الرمال، وتسبب الحصى الجروح. تحت سقف المنزل،

(1) ساعة حائط قديمة جداً وصلبة جداً بدأ تصنيعها منذ القرن السادس عشر في فرانش - كونتي.
(2) بيكولو نوع من الخمر.

وقبل النوم، يحملون البندقية ليقوموا بدورة حول المبنى، وكأنهم يركبون ظهر سفينة: ليل يشبه البحر، يمكن أن يبتلعك في جحيمه مع ولولة ونداءات غريبة. في البداية مع ضوء المصباح الذي يبهر العينين، لا يمكن رؤية شيء سوى جبل من الظلمات، ثم شيئاً فشيئاً تتأقلم العين، فتظهر الجبال الحقيقية وتضاء السماء من الجهة التي سيشرق منها القمر، وفي المنزل، تلمع أشعة عند النوافذ وأحياناً يحلّ ضوء مفاجئ غامر عندما يفتح باب غرفة الطعام. ويأتي الكلب المحرر ليلاً ليلحس يدك ويرافقك. يدخلون الحظيرة من أجل أن يسمعوا الأصوات المطمئنة لاجترار البقر وحركة الجياد في المعلف والفئران في العلية. فهنا يمكن للحيوانات أن تهرب فجأة، آه ولكن يمكن لأضواء الفرنسيين أن تجدها دائماً. محصنّون بالكامل في المزارع أو في القرى، أقفلوا المصاريع للحديث عن زيارة الإمبراطور إلى بوفاريك. في حين أن الليل هو ملك بنات آوى والعرب: بنات آوى لأنها تدور بحثاً عن طريدة نائمة، والعرب لأنهم يحتفلون بالعيد الكبير، ويأكلون الكسكس ولحم الغنم. أضواء عربية في كل مكان في السهل وعند الجبل. لا يمكننا أن نخطئ رائحة الحطب والغنم المشوي...

أما مدينة الجزائر فلا شيء يبدو منها. خلف هضاب السهل، بالكاد يصل شعاع يأتي ربما من إضاءة الزينة على شرف الإمبراطور والإمبراطورة. ستكون رائعة ساحة الحكومة وأيضاً المساجد وجادة المرفأ والكاتدرائية، تلمع تحت القناديل في حين تعزف الموسيقى العسكرية في الشوارع مع المشاعل... هنا، وحسب الأب بويشو الذي يبدو أنه يعرف المكان، فحتى النجوم عربية. ففي حين كان الفرنسيون بالكاد قادرين على تمييز الدب الأكبر وكوكب الجوزاء ونجمة القطب، كان بإمكان العرب الإشارة إلى

الكثير منها بالاسم. لكن بنات آوى وعلى عكس العادة، بدت خجولة هذا المساء وعواؤها أقل حدّة.

يمشي منذ ساعتين، ومن المفترض أن يجد نفسه بين سيدي موسى ولأربعاء، وربما أبعد. بدا مجرى النهر أكثر اتساعاً، ولكن كيف سيعلم أنه لم يبلغ بعد شجر الزيتون عند المعبر حيث تتقاطع طريق لاربعاء – روفيغو مع النهر؟ هذا يعني أنه سيكون حينذاك تقريباً عند أسفل الجبل. وإن أكمل بالإيقاع نفسه، وبعد ربع فرسخٍ أو حتى أقل سيصل إلى أولى المنحدرات. وعند المعبر، سيكون عليه التوقف عن البحث والتوجه إلى الشرطة.

«قف» قال جان بيار بصوت منخفض.

إذ ظنا أنهما سمعا خواراً مكبوتاً. الثيران، إن لم يضع لها العرب كمامات، لماذا لا تخور؟ لا، بالكاد صوت خفيف لمجاري المياه التي تسقط من الجبال وتتلوى بين أجمة الدفلى، وشوشة غناءة تتحول، مع أبسط عاصفة، صوت تيارٍ هادر في الوهاد يحفر الجبل قاذفاً أمامه فقاقيع الزبد. يتضخم الجدول في لحظة، جارفاً معه أغصان متكسرة وجثث حيوانات وسقوف وعوارض خشبية وكل ما يقف في طريقه. عاصفة واحدة تجعل شغل سنوات عديدة يذهب في البحر.

«لا شيء»

عاودا المشي. ثم...

على حين غرة، روث طازج جداً. سلسلة كاملة، وكأنها روث حيوان أصيب بالإسهال. لقد مرت من هنا، الثيران. إذن، هذا يعني أن السارقين انتظروا لغاية نهاية النهار، ليستفيدوا من العتمة. فهمّا إذن على خطاهم. ثم ضجيج نزاع، ما عاد هناك ما يخطئ وانفجار خوار كما لو كان القطيع

أطلق احتجاجاً.

إنها هنا، الثيران، في نوع من أخدود وعر مغطى بأشجار المصطكة والخنشا والعنصل، وحتى أشجار الزيتون التي كانت أوراقها تلمع تحت أشعة القمر المائل إلى الأفق. ما عاد هناك من شك: الليل، لا يخرجون القطيع إلا ليسوقونه إلى مسالخ المدينة. لن يخبئوه في الحفر، من دون نار ولا خيمة للرعاة.

اقترب جان بيار. فقد بات الآن قادراً على تمييز الأصوات، وظن أنه سمع من بينها صوت مفتاح وهذه الكلمة «سالوبار» (أي قذر) التي دخلت اللغة العربية في انحراف مضحك. فـ «قذر» تعني شيئاً آخر غير قاطع طريق، أو اللص وكل ما يمكن وصفه بالوغد، مجرم أو لعين. انها كلمة تنطوي على الاحتقار. على نحو مباغت، قفز، محدثاً اهتزازاً كبيراً في الأجمات. لقد كانوا فعلا آل زواوي ومفتاح، وقد وقفوا مذهولين أمام بورغنديين ضخمين برأسيهما الحليقين، وبسترتيهما وقميصيهما الزاهيين، بدلاتيهما اللتين ذهبا بهما إلى بوفاريك، اللامعتين في العتمة، حاملين البندقية الجاهزة في اي لحظة لإطلاق النار، على بعد عشر خطوات فقط. بندقية في يد مستوطن، هي حق وقوة وعدالة. خاصة عندما ينتمي المستوطن لإحدى الميليشيات.

«يا مفتاح، هل لك أن تشرح لي لما أنت ورجال زواوي هنا. فانا أبحث عن ثيراني لأجدها معكم هنا».

انها بسيطة: لقد وصل مفتاح وآل زواوي ربما، قبله بعشر دقائق باحثين عن الثيران، هم أيضاً، من أجل إعادتها إلى المزرعة.

تقدم فرنسوا، وقف في مواجهتهم، ويده على الزناد.

ولكن انتبه: آل زواوي ليسوا هم السارقون. هم هنا، صحيح، مع مفتاح الذي اعتقدوه اختفى، ويمكن الافتراض أنه وجدهم مع الثيران...

كان ليصوب جيداً، فرنسوا. فالمستوطن الذي يفاجأ بالعرب ينهبون أرضه أو إصطبلاته، لديه الحق بإطلاق النار. ومثله أيضاً الشرطة، التي تتحرك بين الدوار أو التي تنقل المساجين المقيدين. العسكريون في الخدمة، لا يمكن بالطبع المجادلة في ذلك. لا يمكن، يا صديقي، التلاعب مع السلاح. عليك احترام السلاح. أو أن رصاصة سترديك أرضاً. سيحملونك إلى المدفن، وذلك الذي قتلك سيكرم. لقد خلّص المجتمع من حقير.

«من هم، يا مفتاح، أولئك الذين كنت تناديهم بالحقراء؟»

رجال من الجبل هربوا، في اللحظة التي ظهر فيها الأخوان باري. كان بامكانهما أن يشكا بكلام مفتاح. يمكن أن يتساءلا... سفلة من الجبل، أناس ليس لديهم ما يخافونه، لأنهم لا يعيشون في السهل مع المستوطنين، خططوا لضربة. من عليه أن يتهم منطقياً؟ آل زواوي بسبب القصة القديمة لهروب أورتنس.. في المحكمة، سوف يؤكدون أن آل زواوي ينوون الانتقام من آل باري. وسيحكون عن تقاليد بربرية وعن محرمات وطقوس متوحشة وحقد طائفي. وسوف يكشف التحقيق عن تهديد آل زواوي لمفتاح بالانتقام. أو أنهم مارسوا عليه، الـ *أذية*، أي حق التعويض في العادات البربرية والعرب، لمن تعرض للأذى. هناك أذية في كل مرة يأكل لك غريب حقاً. والأخوة باري أكلوا لهم كرامتهم.

أخذ مفتاح يضحك. فالابن البكر لعائلة باري يتكلم العربية مثل عربيٍ ويتكهن بما يدور من أفكار مخفية. ناري، ثقيل الظل مثل جميع الروميين،

ولكن ليس لديه أي خبث. احتفظ أخوه فرنسوا بالبندقية بين ذراعيه، في حين أنه هو، أنزلها إلى ما بين قدميه. ثم سحب فتيل البندقية، ووضع سلاحه في حمالته، كما لو كان في الصيد مع أصدقاء.

«هيا، قال جان بيار، لنعد».

جعل يطرطق بلسانه، ويصدر من حلقه الأصوات التي يلجأ لها الرعاة والفلاحون لقيادة الثيران، وراح رجال زواوي يقلدونه. في البداية عليهم الخروج من هذه الحفرة، اجتياز هذه الأجمات والسير في السهل الذي يبدو أنه يوصل إلى طريق ألبا في سيدي موسى. لا يمكن أن يحصل لها ذلك مرتين، الثيران! فهي لا تنتظر سوى ذلك. يا للفكرة الغريبة، هذه النزهة! السهل، الأعشاب اللذيذة، قش الإصطبل. وبسرعة تسلقوا جميعهم. ولكن بهدوء. يجب على الأقل عدّها، في حال ضاع أي منها. العدد صحيح. ستون. إذن إلى الأمام! ونظرة خاطفة إلى النهر حيث اتسع مفرش الحصى، ومجاري المياه التي تلمع أحياناً مثل صدفة القمر. أين كانت ألدبرام، والدة ماري، نجمة النجمات؟ قريبة من الجوزاء كما يؤكد الأب بويشو بكل جدية. إنها عين ثور.

3

الطريق. اكتشفوا في خطها المستقيم وصولاً حتى القرية صفوفاً من شجر الكينا القزمة وعواميد التلغراف التي تمر عبرها الأخبار. أحد الثيران يجر قوائمه على حافة الطريق، حيث الأرض أقل قسوة. هذه الكتلة التي تتقدم مع الضجيج المكتوم للحوافر والتلويح بالذيول لطرد الذباب وكأن هناك ذباباً في الليل. بيد أن الثيران تحتفظ بعاداتها. لا تقلقوا أيها الأقوياء،

سنقدم لكم ما تأكلونه لأن مسيرة كهذه ستفقدكم وزناً. عند الأطراف ثلاثة رجال من آل زواوي وعلى رأسهم فرنسوا، وفي الخلف ومن أجل الإشراف على القطيع جان بيار مع مفتاح ورجلين أيضاً من آل زواوي، مختار وابراهيم، وهما زعيمان من زعماء العشيرة، يطرطقون جميعهم بألسنتهم ويحمحمون كلما ابتعد أي من الثيران.

في القرية، اتجهوا إلى أقصى الشمال. سيصلون خلال ساعة. التعب؟ لولا هذه الأحذية الضيقة جداً والرفيعة جداً... ما إن دخلوا في سيدي موسى تغيرت حركة القطيع مع أنه لا يوجد بعد الكثير من البيوت، ولكن هذا المكان بتشعباته الخمسة، حيث يقف فرنسوا ورجال زواوي ليسدوا الطريق على الثيران حتى لا تأخذ الإتجاه الخطأ، مقهى الأمل، دار البلدية في مكان أبعد بقليل، البريد، المدرسة والمقبرة في النهاية. رجع صدى الحوافر والأصوات يصطدم بالجدران وسقوف القرميد المستديرة. ليس هناك أي ضوء. أبواب محل الخمور مقفلة مع حاجز حديدي. مصراع نافذة واحدة فتح أخيراً.

«إذن، ها أنتم؟».

بالحكم من صوته، إنه أورفيلا، صاحب مقهى الأمل.

«كما ترى، والشرطة؟».

– لقد مروا للتو من هنا، ربما منذ أقل من عشر دقائق.

«هذه الأحذية، حادث جان بيار نفسه، يا للألم، سأنزعها».

«أنت تمشي مثل العرب»، قال له مختار.

في صوت مختار رنين صداقة. وإبراهيم أيضاً إلى اليمين ينظر إليه مبتسماً. دائماً وبسبب الليل، يمكن قول وفعل ما لا يقال ويفعل في النهار.

دفعة واحدة، ولأنهم أعادوا سوياً الثيران إلى المزرعة، ما عادوا غرباء عن بعضهم بعض، أو بالأحرى لأن جان بيار، وعلى الرغم من أنه يحمل بندقية والثيران هي ثيرانه، فقد خلع زوج حذائه وربطهما بشريطيهما، ورماهما خلف كتفه ومشى كالعرب. ولأول مرة يعملون بحق سوياً من دون أن يفكروا بماذا سيحمل ذلك لهذا أو ذاك. كانوا متحالفين. كان لديه حق الإمبراطور. فإن مشى العرب حفاة الأقدام أو بصنادل خفيفة من الجلد مربوطة إلى الرسغ، فهذا لأن ذلك أفضل في هذه البلاد. أليس لدى العرب حق في أمور أخرى أيضاً؟ ربما، ولكن كيف العيش مع هؤلاء إن بقيت النساء معزولات؟

مع العرب، قد يساء فهمهم. فللاقتراب من النساء، يجب التحول تقريباً إلى مسلمين. في الليلة التي راح يبحث فيها عن أورتنس في الدوار، تذكر البربرية الشابة التي كانت تصفق بالقرب من وجه أورتنس. فتاة شابة؟ إنها بالأحرى امرأة يافعة، بتلك الجرأة التي تضيء وجهها وجدائلها السميكة المسدلة على ظهرها، وتاجها المرصع بقطع فضية، بحلقتي أذنها المرجانيتين، بعينيها المكحلتين، بتلك الماسات والنجوم فوق جبهتها. فربما بسببها هي أظهر كل هذه القسوة. ذكر. إنه عربي حقيقي. لم يتحدث إلى أحد حينها، ولكنه كان ليعود بإرادته إلى الدوار. عند المساء، قبل أن ينام، كانت تتراءى له سابحة في كحلها، بعينيها اللتين تشبهان عيني ألدبرام. استنشق رائحة المعمر[1] والمسك والكهرمان الرمادي. إنهن مختلفات عن هاتيك المالطيات والماهونيات[2] الداكنات السمرة اللواتي يلتقون

(1) نبتة تستخدم كبهار، من صنف الزنبقيات.

(2) Mahonnaises وهم أوائل الأوروبيين الذين هاجروا إلى الجزائر إبان الإحتلال الفرنسي للجزائر، وهم تحديداً القادمون من جزيرة ميورقة الواقعة في البحر المتوسط، والتي =

بهن في سوق لاربعاء واللواتي تشبهن العجول. وهذا ما يثيرك الآن... النساء العربيات، كيف يمكن الالتقاء بهن وهم يتحركون بحذر مثل رجال الشرطة؟

«أنت تمشي مثل العرب...».

«ليش فقط أمشي، يا خوي».

يا خوي، «أوه، يا أخي»... كلمة تستعمل في الحديث هنا. فالرجال يتنادون بشكل عادي كإخوة. غريب.

– ماذا إذن؟ ليس هناك كسكس هذا المساء، ليس من غنم لكم، وماذا عن العيد؟».

– هذا المساء، قال مختار، نعيد الثيران إلى حظائرها.

لم يقل «ثيرانك»، ولكن «الثيران». هنا الأشياء ملك لكل الناس مثل السماء والبحر. ولِمَ لا النساء؟ أه، النساء لا. هناك حاجز الدين.

اسمع، قال جان بيار. اسمع. هذا المساء، الثور الذي يجر قوائمه، ستذبحه وسنأكله. إنه يوم الغنم، أعرف. سنأكل غنم العرب وثور آل باري. ستأتون إلى المزرعة، وسنحتفل معاً.

وهل يوافق أبوك؟

الأب، إذا كانت قد فارقته الحمى، سيكون سعيداً بالعثور على الثيران. لقد تعب الأب وحان الوقت لينقل إليه المسؤولية. تقع المزرعة لجهة اليمين، على بعد ربع فرسخ عند نهاية أجمة شجر الكينا. إنها تحترق أو ماذا؟ ما هذا الضوء الأحمر المتصاعد في السماء؟ ماري، يا قلبي، إنه النهار، إنك

= اتخذها الفرنسيون قاعدة عسكرية في تلك الفترة، كما كانت فيها المستشفى العسكري الفرنسي. والماهونيون هي التسمية التي أطلقها الفرنسيون عليهم، ليميزونهم عن غيرهم، لا سيما وأنهم أتوا بأعداد كبيرة إبان الاحتلال.

لكِ، إنه أنت. لم نتنبه لمرور الليل.

«من، أبي؟ إنه أبانا جميعاً، سيدنا براهيم، سيدنا أبراهام».

ما الذي أصابه، ألأنه عاد مع الثيران مع طلوع الفجر، فهو مستعد لكل شيء وللمزايدة؟ هكذا. «سيدنا أبراهام...».

جياد الشرطة تصهل وتنظر إلى الثيران التي تتقدم بسرعة. افتحوا الأبواب، شكراً لله!

تقدم «السحلية»[1]. كان بإمكانه أن يتحرك قليلاً بدلاً من أن يبلي بنطاله بالقعود، هو الجاهز دائماً للأكل والشرب مع عريفه، واضعين حقيبتهما المليئة بالسلاسل والأغلال والمذكرات، على الطاولة بالقرب من الكؤوس والصحون. وفليبين، ماذا تفعل، حاملة البندقية؟ ضعي بندقيتك، يا حلوتي، ها هي الثيران. كان عليها أن تصل حتى ألبا للبحث عن الشرطة، لأن المكتب في سيدي موسى كان مقفلاً بسبب زيارة الإمبراطور والموظفين لم يعودوا. والميليشيات، إذن، ما هي وظيفتها؟

ارتمت أورتنس بين يدي شقيقها. تبكي مثل والدتها، علام كل هذه الدموع؟ يجب أن يجهزوا العربة ويذهبوا إلى بوفاريك لإحضار ماري، لأنه العيد.

«أي عيد، بني؟».

أنا وماري، خلال ثلاثة أشهر...

كان العريف قد حقق مع مختار. من أين أتى السفلة؟ أشار مختار إلى الجبل الذي كان يستفيق بدوره مع قممه التي لفحتها الشمس. كان الأب

---

(1) وهنا يقصد الصهر واسمه Ezard والذي باتوا يلقبونه بالسحلية لتقارب اسمه مع اسم السحلي بالفرنسية Lezard.

ما زال نائماً. أرسلت الشرطة طبيب ألبا. المصباح مضاء في غرفة الطعام، حيث تنتشر رائحة زيت وشحم.

أصوات الخوار من الحظيرة بدأت تتباعد لأن مفتاح بدأ بتوزيع التبن المذرى على الثيران. وحده الثور الذي سيذبح والذي وضع جانباً، ظلّ يخور، ثم ساد الصمت، وبدأت تطقطق نار الشواء.

الفصل الثالث

أفكار نجار سيدي موسى حول الاستيطان ومناقشة في مقهى الأمل ووصول الجراد.

1

أيام الآحاد يذهب الأطفال والنساء إلى القداس حالياً في أربا. أما الرجال فيتوقفون في سيدي موسى وينتظرون عودة السيارات في مقهى الأمل. وعلى سبيل السخرية يسمونه الجَمعة. يجتمعون، مثل العرب، من أجل الحديث عن الطقس وشؤون القرية ولكن أمام كأس من الأفسنتين.

هذا الأحد، يقيمون مأدبة غداء على شرف الكاهن الذي سيودع أبناء أبرشيته. سيعود إلى فرنسا، في الوقت الذي سيعيّن فيه في الجزائر وبمرسوم إمبراطوري، رئيس أساقفة لا مجرد أسقف عادي. وكل وجهاء لاربعاء سيشاركون في حفل الوداع.

– كل الوجهاء، ردد فيرتو النجار، عليكم أيضاً أن تخصصوا طاولة لسيدي موسى. في بلاد تصلح لتكون مكاناً للأشغال الشاقة، كم ستعدون، ضعني أنا جانباً، أنا لست من علية القوم؟ أنت، بالطبع منهم، الذي سيقدم السوبرساد[1] ولحم الخنزير، ورئيس البلدية والمستوطنون ومسؤول السكك الحديدية والمجلس الاستشاري البلدي، الطبيب الذي تلقى الجائزة الثانية في رعاية الخيول، ولن أحسب المدرّس، لأنه لا يحب هذه الأجواء، ولا الحدّاد المشغول

(1) Soubressade وهي مقانق إسبانية سميكة، مبهرة ورخوة.

بصناعة النعال لجيادكم. كم يعدون، عشرة، اثني عشر؟

– أسكت، أيها الأحمر[1]، قال أورفيلا. لا تجادل في الدين. يكفي القرية كاهن واحد.

– إذن، لماذا لا تذهب أنت إلى القداس؟ أنت تجبر زوجتك على العمل في يوم الرب، بدلاً من أن تشغّل العرب.

– أنا من لا يريد ذلك، قالت السيدة أورفلي، متجهةً إلى المشرب وهي تمسح الكؤوس.

قصيرة وبدينة ونشطة، لها عينان يقظتان تحت غرة سوداء، جاهزتان دوماً للانقضاض.

– لا عرب، قالت. فهم يسمعون كل شيء، ولا يفعلون شيئاً. فقط لو كان ما يزال لدينا رجال من القبائل أو من مدينة بسكرة[2]. فهؤلاء يتمتعون بحس جيد. أما العرب هنا... فحتى أنت، لا توظفهم».

– في مهنتي لا يمكن العمل لغير المحترفين، أجابها فيرتو.

رُحّل إلى هنا برأسه الحليق مثل سجين، مع عمال طالبوا بحقوقهم خلال الثورة الأهلية في 48، لما كان ما يزال في سن جان بيار باري. وإن لم يمت في تلك الأحداث، فلأنه لم يواجه. «سادتي، أنتم حالياً الأكثر قوة، أسرّ لنفسه، سأخضع». إن لم يفعل ذلك، كان سيسجن في تازولت[3] حيث

(1) المقصود هنا المشارك في «كومينة» باريس أي في ثورتها العمالية العام 1848.

(2) بسكرة: مدينة جزائرية عاصمة ولاية بسكرة، تقع جنوب شرقي للعاصمة الجزائرية. وقد جعلها الاحتلال الفرنسي نقطة انطلاق للتوسع في الجنوب، وأنشأ حامية لتكون نواة لمدينة جديدة في المكان المسمى «رأس الماء» باعتباره موقعاً استراتيجياً حساساً، لتنمو وتتوسع تلك المدينة مع توسع المدنية القديمة ويكون هذا الاهتمام منصبا حول تنمية المدينة الجديدة حيث يقيم المستعمرون.

(3) تازولت (أو lambese باللاتينية) مدينة جزائرية بنيت في العصور القديمة لتكون =

كان قديماً الضابط العام للفرقة الرومانية الثالثة، أو في الشمال. فمن كانوا يهتفون ضد بيجو[1] لدى زيارته مخيماتهم، كانوا يرمونهم في الزنزانات. ماذا كان سيحل بعائلته؟ لقد ظنوا بأنهم تمكنوا من قمعه واستفاد من الأحكام التخفيفية.

كان شخصية معتبرة هذا النجار. مسؤول حرفيين، سيد قوي مع دعائمه وأخشابه، واحدٌ من أولئك الضخام القادرين على حمل عوارض خشبية هائلة. له شاربان كتان شائبان وسط وجنتين حليقتين دوماً، وعينان فاتحتان تحت حاجبين غضين. كان طويلاً نحيفاً، ويكاد يكون واهناً، ولكنه شديد الدهاء، ويحصل على الدعم من الجميع في تسيير أشغاله. «مع الكبرياء، يمكننا أن نصل لكل شيء» يقول لهم عندما يثير استغرابهم. الكبرياء، هي تلك الأوتاد الخشبية التي ترفع. «مع الكبرياء والسلاسل...» السلاسل لمنع العوارض الخشبية من الانزلاق، عندما يرفعها الكبرياء.

– لقد قدمت لك السلطات أرضاً...

– غير مزروعة، قال جان بيار.

– من دون شك، ولكنها تعود للعرب. لديكم جنرال لا يتوقف عن حرق الجبل. وانتقاماً منه، يشعل العرب النار في السهل. ليس

= عاصمة الرومان في أفريقيا. في العام 1850 أنشأ فيها الفرنسيون سجناً عسكرياً، لحبس المعتقلين ممن أدانهم القانون العام. وقد عرف السجن بظروفه بالغة القسوة، وضم من قاتلوا ضدّ فرنسا أثناء حرب الاستقلال الجزائرية.

(1) Thomas Robert Bugeaud (1784– 1849) رقي إلى رتبة مارشال فرنسا في 1843 حارب قبل مجيئه إلى الجزائر في أسبانيا واشتهر هناك بالعنف، كما تولى قيادة الجيش في ثورة باريس 1848 واشتهر بسياسته الحازمة تجاه الثوريين الفرنسيين. أما في الجزائر فقد تولى الحكم في 29 ديسمبر 1840 إلى 29 يونيو 1847. اعتمد خلال سنوات حكمه سياسة القهر والعنف والإبادة والتدمير والتهجير والنفي في إطار الحرب الشاملة التي مارسها تجاه الجزائريين.

الإمبراطور هو من يسبب هذه الكوارث، إنه أنت، هذا ما أريد أن أصل إليه. كيف أسمي أورفيلا حانته؟ الأمل. العرب أيضاً يأملون. ولا يتغير بشيء. لذلك هم ينتقمون كلما استطاعوا. يجب أن نعرفهم.

وجعل يردد القول المأثور: العربي بير بلا قاع. العربي بئر بلا قاع.

«فوق كل ذلك، فهم مقتنعون أنه لا يمكن لأحد أن ينتصر عليهم، وبهذا المعنى ليسوا مخطئين».

جسر في الحراش عند معبر القسنطينة على طريق سيدي موسى إلى الجزائر، هذا كل ما جنوه من زيارة الإمبراطور. وأيضاً، وعد.

خرج جان بيار.

كان عليه أن يرافق زوجته إلى أربا. ليس من أجل القداس ولكن لأنه يشتاق لها. قالوا له إن ذلك سيزول بعد الزواج. أبداً. فهل ما زال في شهر العسل بعد ثمانية أشهر؟ ماري هي الشباب، البراءة، الطيبة، لا يعرف ما هو الآسر فيها، فهي لا تشبه بشيء النساء الأخريات. طريقتها في التبسّم، الخدمة على الطاولة، ترتيب السرير، الصمت أو الكلام، أن تختفي أو أن تحضر. هذا الصوت الأجش قليلاً في النوتات الخفيضة للكمان، هذا الدفء الذي ينزلق إلى جانبه مساء ويلتصق به طوال الليل، هذا الصدر الملتهب. «أنت، قلبي...» فمنذ ان أصبح جان بيار مسؤول عائلة آل باري، باتت هي الحاكمة مع أورتنس. ترك الأب والأم غرفتهما وانتقلا إلى الغرفة التي بناها الأب كبديل، كما بنى لهما مدفأة كهدية عرس. أرادت ماري مدفأة أخرى في غرفة الطعام كما في بوفاريك. الجميع أحبوا المدفأة التي تشبه بالكامل مدفأة الأب بويشو، مع جسر يستخدم كأسكفية، يوضع فوقه

سيف جان بيار كضابط في الميليشيات والذي تعرف جيداً استخدامه. وفي عيد الميلاد، أشعلوا النار في المدفأة الجديدة.

وصلت عربة المزرعة. اجتاز جان بيار الساحة. حُفرٌ في كل مكان ورائحة النهر القريب جداً تملأ المكان، وصوت سندان الحدّاد يرن من الجهة الأخرى. خفف ديزيريه السير ثم أوقف الجياد، ونحى جانباً على المقعد مسلماً أخاه الرسن. استدار جان بيار وابتسم لماري الجالسة بالقرب من أورتنس في مواجهة الأم.

– إنه الأحد الثالث، بعد الفصح، قالت ماري.

– لقد أوصانا الكاهن بأن نحب العرب، أضافت أورتنس.

طرطق جان بيار بلسانه وضرب بالسوط على أرداف الجياد. فيرتو وأورفيلا ذهبا ليكملا لعب الورق على رائحة الأفسنتين والنعناع الذي يخلطه البعض مسمين ذلك مارينغو. رأى من جديد الوجه الجامد للنجار وشاربيه الغضين على خديه، المفتولين عند آخرهما كشاربي الإمبراطور. أحبوا العرب، خير ما فعله الكاهن. ففي يوم زفافهما، قرأ مقطعاً من الكتاب المقدس، وعلّق: «إن الأجيال التي تعطونها الحياة، ستحمل لكم النصر...». أي نصر؟ نصر الزرع والبيوت والعائلات الكبيرة؟ هل يفكر المارشال الحاكم، عندما يخلع ثيابه ليندس في السرير يفكر في نصره؟ وعندما ينام، هل يهمه إلى هذه الدرجة لقبه دوق ماجينتا؟ ربما أن مارشالاً يبقي لباسه المقصب وزينته أمام ناظريه. والإمبراطور؟ يقال إن أوجيني دي مونتيهو، يجب لفظها مونتيهو، مع الهاء على الطريقة الإسبانية، امرأة قوية، ذات صدر باهر بارز تزينه الجواهر. فهو يكن الكثير من الاحترام لهذا الرجل الذي عامل ماري برقة بالغة. «ماديموازيل، أنت فاتنة..» كلمة

بسيطة، ربما. لكنها لا تنسى. فلولا زيارة الإمبراطور، أكانوا ليعودون باكراً إلى بوفاريك؟ ولتسرق الثيران، ومن ثم يصبح هو جان بيار سيد المزرعة؟

بزواجه، ضرب جان بيار عصفورين بحجرٍ واحد، لأن فرنسوا، هذا المتقلب المزاج، تقدم للزواج من فتاة التقى بها خلال عيد القرية. فتاة اسمها روز بيزيه، مولودة في تارن[1]، والتي يوحي لون جلدها الأسمر الفاتح بأنها إسبانية، واسمها بيزيه الذي يمكن أن يكون بيزيتا. له ايقاع جميل. أما الباقي... أقيم العرس المشترك في بلدية سيدي موسى، حيث وضع رئيس البلدية، السيد جوزيف غيرين المستشار في المحكمة وشاحه وأتمّ المراسم. شقيقان، أيمكن تصديق ذلك؟ وطوال الطريق إلى الكنيسة في أربا، موكب كبير من العربات المزينة. أما الشهود فكانوا من رجال الشرطة: «السحلية»، الذين نقل أخيراً إلى ميزون – كاريه، وصديقه روزيه من فرقة أربا، الذي كان يسترق النظر إلى أورتنس، مدرّس سيدي موسى بيار بونتيه، وصاحب نزل «الشفاء». الأب الشيخ بويشو وكل العائلة «حاضرة وموافقة»، مع ضابط الزواويين الوسيم، الذي أتى من البليدة مرافقاً مارغريت، هذا الرجل الطويل المهيب بنطاله الأحمر الواسع والحزام الأسود، والحذاء النصفي المطلي، والسترة المخرمة بالحرير. فالنصر ربما هو بأن يكون للمرء صهر مثله.

2

ظهر يوم الخميس الذي تلاه، عمّ السهل ضجيجٌ، جلبة لا يمكن تمييزها

(1) تارن إقليم فرنسي تابع لمنطقة ميدي بيرينه.

عن بعد، نوع من حركة دجاج فزع أو هبوب ريح شرقية مخلفةً زوابع من الغبار، دارت وعاثت ثم خفتت أو عادت من حيث أتت. تقدم جان بيار من جهة الزريبة، تخطى محيط أشجار «مفتاح» من التين البري. كانت السماء صافية والجبال واضحة، حتى من دون ذاك الحجاب البخاري الخفيف الذي يشكله الحر في مثل هذا الفصل. شيء ما يشبه ضربات الطبل الأفريقي تتنقل من دوار إلى آخر. في النهاية، إنه مجدداً أول أيام العيد الكبير. على العرب أن يتحضروا للمشاركة في وليمة الغداء. وفي المساء أيضاً، نيران وغناء مع المزمار ورقص.

مفتاح أيضاً خرج للتو تقريباً من خلف منزله، مضطرباً يؤشّر نحو الجبل.

– «الجراد!».

– ماذا؟ الجراد؟

الواقعي بالنسبة إليهم هو اللامرئي، القوى الخفية، الجن، ملائكة الرب. لا يأكلون من بقرة لم تذبح ووجهها لجهة الشرق، مع تلاوة الصلاة، ولا يصلون ما لم تكن أجسادهم طاهرة، يختارون القطع التي يأكلونها من جسم البقرة، ليس أي قطعة، يعلقون القرون فوق الأبواب، يطوفون بالدمى، لايشعلون النار في المنزل عندما يجب إشعاله في الخارج، وكل هذه الشعائر يمارسونها في موسم الفلاحة، قبل الحصاد، عند دراسة الحنطة، وعندما تغيب الشمس، وتظهر النجمة الأولى في السماء، ومع كل قمرٍ جديد. الجراد، قد يوجد أحياناً بين القش أو الأجمات، أسرابٌ هائلة بلون الرمل، وكأن ارتعاشة في السماء رمتها فوق الصحراء والجبال وما عادت تعرف ماذا تفعل، فتضيع في السهل. يفرح بها الأولاد

ويجعلون ينزعون سكاكينها المسننة، يقصفون أجنحتها الورقية الشفافة، يتحسسون مجسات قرونها والكرات على رأسها والتي تشبه العيون، ثم ينتهون بسحقها تحت حجر.

«أين ترى الجراد؟».

ركز مفتاح سبابته باتجاه فجوة مضيق تابلاط[1]، فوق حقول الشعير التي تموهت.

«انظر».

غيمة مضيئة انفصلت عن الضباب، انزلقت، تكورت، واقتربت من الأرض، تلمع أحياناً مثل درع، تتذبذب، وشيئاً فشيئاً تتمدّد وتحوم وتتقدم بظل مخيف بالتماعات معدنية، مع صوت غطيط الأجنحة الصغيرة، تذبذب عميق، هسيسها ينبئ بفظاعتها. هكذا، بلا أي مقدمات، ولا إشارات تحذيرية؟

حُجبت السماء وبدا أن الهواء غادر باتجاه الجنوب. هل كانت تلك الجرادة، ذاك اليوم بين القش، هي ذلك المصباح الكشّاف الذي رمته ريح كونية قبل وصول الجيش الكامل؟ إننا نحلم، أهي ضربة من العرب، سراب كالذي يظهر أحياناً فوق المستنقعات، واحات ونخل وماء نرغب في لمسها، بحيرات وأنهار هادرة ولكن لا بواخر أبداً. وهذا الضجيج كانسلاخ غصون خضراء، وكالنار عندما تضرم في الأوراق والحطب وترتفع مثل هجوم خيالة، مع لهيب ودخان، ضجة تكبر مع كل الأصوات والقدور التي تضرب والتي قد تبدو في البداية طبولاً أفريقية تقرع لإخافة هذه الغيمة وإبعادها. يتحدث العرب عن عيني الجراد وقرونه ورقبته

(1) تابلاط هي كلمة أمازيغية تعني صخرة وهي أقدم دائرة بولاية المدية الجزائرية.

ورأسه ولكن ليس عن أذنيه. هذا الضجيج هو صلاة العرب. هل يسمعها الجراد؟ لا، لا مفتاح، أنت مثلي لا تعرف ما هو الجراد. أعتقد، إن كانت هذه الحشرات هي جراد بحقّ، فهي لا تعرف أين تذهب. هامت وسط الصحراء، ثم حملتها عاصفة إلى الجهة الأخرى من الجبل. هي لا تبحث عنا، بل عن البحر، الذي سبق ورأته. هذا المسطح الأزرق الأملس يلهمها هي الأخرى، وهنا... أو أنها ستذهب لتحط فوق الجزر، بعيداً في إسبانيا.

لا أبداً ليس ذلك، إذ كان الجراد يتراجع عن الشاطئ الذي وصل إليه وكأن غريزته تقوده لتحاشيه، فتتشتت كتلته إلى مجموعات حمراء تتصادم. ضباب مشؤوم يرتطم بالأرض، يتقدم، في حين أن موجات أخرى أعلى منه، تتخطاه، وتختفي بدورها وسط ضجيج طبول مرعب وأجنحة لا تعدّ.

ركض جان بيار نحو المنزل، صعد الدرج بخطى كبيرة ودخل إلى غرفة الطعام:

«ألم تسمعوا؟ الجراد!».

وأشار باتجاه الحقول المحمومة التي أظلمت:

«سيقضي على كل شيء».

هبط مثل إعصار بردٍ، كجرفٍ فوق السطح وعلى صفائح مظلة الباب، مطرطقاً على النوافذ.

«يا إلهي» صرخت الأم مرتعبةً.

من الأبواب المفتوحة، أمطر في الإصطبل وفي المنزل.

«افعلي مثلي»، قالت ماري لأورتنس، «احملي مكنسةً».

راح الرجال ينظرون باتجاه الحقول، ويتقدمون بين أشجار البرتقال. فلا يكاد يلمس الجراد الأرض أو الأشجار حتى يبدأ بالتهامها. نادى جان بيار أخاه وأسرعا لسرج الجياد.

– إلى أين؟

– إلى القرية.

رفع الأب كتفيه. من سيأتي لمساعدتهما؟ لقد بنوا المنزل فوق علية لأن النهر كان يفيض أحياناً ويغطي السهل ببضعة سنتيمترات من المياه. ومرة وصل حتى النصف متر. وبعد ذلك تنسحب المياه تاركة خلفها طبقة من الوحل. المياه، يعرفون ما هي، تمر، وسارقو الثيران أيضاً يلحقون بهم. أما هذا...

راحت الجياد تشبَ خائفةً، معرضة العربة لخطر الانزلاق، مما أجبر جان بيار على التراجع.

أخفض قبعته حتى عينيه، انطلق مخفضاً رأسه، باتجاه مدخل جادة شجر الكينا عبر حقول الشعير التي كانوا يعدّون العدّة لحصادها. اندفع الجراد باتجاهه، حجب عنه الرؤيا وغط عدد منه على شعره. ما عاد بالإمكان رؤية الجبل. غيمة سوداء تحولت إلى قطرات ذهبية: «إنها النار»، قال لنفسه. هذه النار، كيف يمكن مقاومتها؟ في البلدية، يجب أن يعرفوا كيف. الحكومة تحتاط من خلال إجراءات حسب طبيعة الكارثة، ويلزم لذلك فتح ملف.

البرد عندما تنثره عاصفة ما، يرتطم بالأرض ثم يذوب. وبعد ذلك، فإن لم يفسد الزرع يمكنه أن ينبت من جديد. أما الجراد فتبدأ الكارثة عندما يلامس الأرض. على الطريق، بدا وكأنه يأكل بعضه بعض عندما لا يمكنه

أن يصل إلى عشب الحفافي وشجر الكينا التي يتسلقها. أربعة آلاف لعقة في اليوم، الثيران؟ عند هذه الفكرة، انتابه ضحك جنوني. يا لتواضعها الثيران، وحتى هذا الماعز الذي يقضم لحاء الشجر وصولاً حتى الشوك! الجراد سيترك الأرض جرداء، هذا إن لم يبتلعها هي أيضاً.

3

عند مدخل الباب، كان أورفيلا واقفاً ينظر بحزن إلى السماء. فقد لجأ إليه الكثير من السياح، وبيتوا جيادهم في إصطبله. لجهة الجنوب فكان الوضع اسوأ، هناك ما عادت العربات قادرة على التقدم. «كارثة» كان يردد وهو يمسح بشكل آلي الطاولات بفوطته الوسخة. رغم ما كان يبديه من تعاطف، كان أورفيلا في الحقيقة غير مبال، فالجراد لن يلتهم حانته.

أبرق رئيس البلدية إلى وكيل بليدا. لتنفع بشيء ما كل هذه العواميد المنتصبة على امتداد الطرقات! تدبر المستوطنون أمورهم قدر الممكن مع عمالهم العرب. أشعلوا المجامر ورموا فيها الجراد. بدا أن الدخان قد أبعد الجراد. هرع جان بيار إلى النجار.

«اسمع»، قال السيد فيرتو، «لا أعرف كيف يمكنني مساعدتك، لكنني سآتي معك».

رؤية هذه الحشرات بحد ذاتها صادمة، تتشبث وتتسلق عليك، وعندما تلتقطها كي تنزعها عنك، تشعر في باطن يدك باهتزاز غمدها[1] وسكاكين قوائمها القاطعة، وأجسامهما اللزجة وأفكاكها التي ما تزال تجرش، يا للرعب! وعندما تمشي فوقها تفرقع مثل قرن فول أو عدس،

(1) الغمد هو حافظ الأجنحة لدى عدد من الحشرات.

تفرغ وستتز حلق أنت فوق سائلها المقزز. أخذ جان بيار ينتزعها عن كتفيه ويديه بحركات غاضبة ويرميها على الأرض كي يدهسها. يخبط ويخبط! بالأيدي والأرجل وبالأواني، يدمرها ويهلكها ويسحقها.

«أنت تتعب نفسك مجاناً. أنا سأتركها، إلا إن زعجتني كثيراً...».

بصفعة خفيفة، تخلص النجار من إحداها، بطريقة غير مبالية: فما يفرق الآن بين الرجال هو امتلاكهم أو عدم امتلاكهم الأرض التي يدمرها الجراد.

غير أنه عندما يسقط الجراد عليك سيد فيرتو، يوم العيد الكبير...هل تتذكر؟ في العام الماضي، كان الإمبراطور. هذه الأحداث ستدون في الصحف أو في الكتب التي تقرأها، وسوف ترتاب...

آه! هذا؟... أنا مقتنع بالإشارات، بمعنى ما. ليس إشاراتك نفسها. بل بواحدة من التي ستحسن المرابط استغلالها، فالجراد أرسله الرب للعرب لكي يكون لديهم ما يأكلونه، وإلى الروم لكي يأكل ما لديهم[1]. العرب يقولون: «شكرا، سيدنا إبراهيم...» ونحن، نحن سنتوسل قبعة الأب بوجو.

«الزواويون»، أضاف، «وبدل أن يحرقوا الحقول، ها! لديك هناك أحد من عائلتك أليس كذلك؟ النقيب الذي كان يتبختر في عرسك. انتصارات كهذه تكلف الكثير. الزواويون، أنا أقدمهم لك لتسد بهم النهر

(1) هذا ماخوذ على الأرجح عن رواية أن الحسن (عليه السلام) و إخوته و عبد الله بن العباس كانوا على مائدة فجاءت جرادة و وقعت على المائدة فقال عبد الله للحسن أي شيء مكتوب على جناح الجرادة فقال مكتوب عليه أنا الله لا إله إلا أنا ربما أبعث الجراد رحمة لقوم جياع ليأكلوه و ربما أبعثها نقمة على قوم فتأكل أطعمتهم فقام عبد الله و قبل رأس الحسن و قال هذا من مكنون العلم.

الذي أفسد لي ثلاثمائة قنطار من زنود الخشب عندما فاض. اليوم نستعين بالجيش لضرب العمال أو العرب في حين أن لدينا بروسيا. سترى. ولكن لا، أنت لا ترى شيئاً لأنك تفكر في ثيرانك وأرضك، كما أنا بألواحي الخشبية. وفي انتظار أن يهجم الجراد على ألواحي، فإنه سيهلك زرعك، أؤكد لك. ومع من ذلك آتي معك لأني أحبك كثيراً. بالنسبة إلى العرب، العيد الكبير هو ساعة الرب وربما الحجة: إنه يلعننا، أتسمعه؟».

على امتداد السهل، فوق هدير الضباب المشؤوم الأصم، يتردد قرع الطبول والقدور العربية وصرخات النساء الحادة، وزغاريد الحرب أو الفرح.

في المزرعة، انتشر الجراد حتى فوق الأسرة، متسللاً من تحت الباب، أو غازياً المكان بمجرد فتحه، متسلقاً الستائر ومقتحماً الخزائن ومتكوماً في الزوايا. ماري وأورتنس ملأتا طاسات كاملة من هذه الحشرات ورمتاها من النافذة. خطرت للأم فكرة إشعال النار في المدفأة حيث رمي الجراد. خلف ذلك رائحة كريهة قوية جعلتهم يتخلّون عن الفكرة. في الخارج، أخذ الكلب يلتهمها قبل أن يصقها بقرف. كان جان بيار يراقب أشجار الليمون مرتعباً. يتقدم وسط الأشجار ويهز الجذوع فيسقط الجراد. يسحق عشرة، عشرين، ثم ماذا بعد؟ هناك آلاف أخرى تتسلق على الجذوع، تكشط الفروع وتنقض على حبوب الثمار الخضراء، الملايين والملايين منها، ما زالت تتقافز بين الجبال وتتدفق من الصحراء. شرح النجار للأب ولماري كيف أنه لا يجب أن يحبطوا، فقد سبق للجراد أن أتى وبقيت من بعده ميتجة أرضاً مثمرةً. فإن تشكلت عاصفة وهبت ريح الشمال فسوف يغادر الجراد.

«وماذا سيبقى لنا؟»، قال الأب.

لم يكن يحق لهم بهذه السهولة بهذه الأرض. لذا ستدافع عن نفسها.

«والثيران؟».

إنه يفكر دائماً بالثيران، التي أقفل عليها، والتي تطلق خواراً حزيناً، ولو لم يجدوا الثيران العام الماضي؟

– في العمق، كنت ستكون مطمئناً. ها قد بدأنا نفكر إن كان فعل الامتلاك يفيد في شيء. هناك أساساً «الفالانستير»[1] في فرنسا التي تخيلها فلاسفةٌ يتحدرون من فرانش – كونت مثلكم. ألم تسمع بها أبداً؟

– لا

– يتجمعون من أجل العمل معاً، يعتاشون من ثروات العامة، ولكنهم لا يملكون شيئاً لهم. انا أؤمن بمستقبلٍ كهذا. بقدر ما يقل لدينا... في حين أننا...

– المنطق، فالحكومة أوحت لهؤلاء الفقراء بخصوبة أرض كنعان التي لا يعرف العرب استغلالها والتي تقدر حالياً بألف فرنك للهكتار الواحد، من دون جراد. ولكن بوجود الجراد من ما زال يرغب فيها؟

مع اقتراب الليل، حلّ نوع من الهدوء. ويبدو أن الجراد استكان أو توقف عن الطيران. ويبدو أن الرطوبة خدرته. أضاءوا قنديلاً.

– ستشاركنا الطعام، سيد فيرتو، وتنام هنا. لن يمكنك أن تذهب.

---

(1) phalanstère هي تجمع انتاجي دعا إلى إقامته الفيلسوف الاشتراكي فورييه، يعيش فيه العمال عيشة مشتركة.

– زوجتي تنتظرني، وسوف تقلق. لا أملك أرضاً لأدافع عنها، ولكن ابني آرتور، لا أريد أن يقضمه الجراد في سريره. فقد بات رجلاً أساساً. سأعود.

اختفى في الظلام، في خطوات كبيرة، على وقع العواء الكئيب لبنات آوى.

في اليوم التالي، ومع أول شعاعٍ للشمس وما إن جف الندى، حتى استأنفت جيوش الجراد حراكها. صباح مجيد من دون أي نسمة هواء. آه! تشعر بأنها بخير في متيجة، هاذي النهمات! لا تبدو عليها أي رغبة بالعودة إلى صحرائها. عصابات من الزرزور تدور، تحط، ثم ترحل.

تُسمع أبواق وطبول الحشود. صيادون يمشون في طوابير ثم يتشكلون في جماعات ليتوزعوا بعدها لقنص أسراب الجراد. يطلبون هراوات ومذرات وماشط ويشعلون النار في الهشيم. وعلى امتداد السهل، تتردد صرخات النساء العربيات الحادة المنظمة، ويرتفع الدخان الذي يبدو وكأنه يسد الطريق على الأسراب باتجاه الجنوب الغربي. وفجأة يكتشفون أنه على ارتفاع سنتيمتر ونصف سنتيمتر من الأرض، كانت الأرض مزروعة بعناقيد من البيض، شبيهة بحبوب القمح، مغطاة بمادة بروتينية، صفراء بداية ثم رمادية، وضعتها الحشرات في الليل في حفرة أقفلت بمادة مزبدة. واكتشفوا أن الجراد تغلغل في التراب. فكما تتحول بيوض الفراش إلى يرقات، فإن بيض الجراد يتحول بعد أربعين يوماً إلى جراد، وبالتالي فكل ما نجا من أمهات الجراد سيقضي عليه الجيل الجديد منه.

إنه الخراب.

طلب الضابط جرارات أو حواجز ثقيلة، تجرها الجياد لتمشيط الأرض. يبدو أنه يعرف جيداً عنها ويحكي عن تفاصيل مرعبة. الخليفة عمر، الذي أحرق مكتبة الإسكندرية[1]، قرأ على جناح جرادة سقطت على طاولته: «سنبيض تسعين بيضة، ولو فقسنا مئة، سندمر العالم». «في النهاية إنه عدد تقريبي»، أضاف الضابط بصوت متقطع. في الحقيقة، فإن الجراد لا يبيض سوى اثنين وثمانين بيضة، ولكن بالنسبة إلى العرب فإن التسعين هو رقم أفضل. رقم سحري. فمسبحتهم مؤلفة من تسعين حبة، ويطلقون على الله تسعة وتسعين اسماً». من الواضح أنها بالنسبة له هي أرض آخرين، معتبراً ذلك تجربة مهمة. يكفي إعادة فلاحة الأرض لدورٍ واحد، من أجل إخراج البيوض إلى السطح وتعريضها للشمس: فتبدل الحرارة والطيور يقضيان عليه. لفلاحة الأرض حسنات! إذن لن يكون هناك حصاد؟ بالنسبة إليه ما عاد هناك أساساً من حصاد. لقد كان محقاً. فما عاد هناك شعير. لقد جز، وبات قصيراً جداً... كيف يمكن فلاحة عشرين هكتاراً من الأرض، في مثل هذا الوقت الضيق؟ «لديكم أربعون يوماً» أجاب. مما سنعيش هذا العام؟ آه، هذا... «الحكومة ستساعدكم،

(1) يقصد الرواية التي تم نفيها، والتي أتت على لسان بعض المؤرخين من إن مكتبة الاسكندرية دمرت تماما إبان فترة حكم عمرو بن العاص لمصر بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب.[18] في حين ينفي مؤرخون آخرون أي صلة للمسلمين وعمرو بن العاص في حريق المكتبة ويقولون أن عمرو بن العاص دخل الإسكندرية في العام 642 في وقت لم تكن مكتبة الإسكندرية موجودة حتى يحرقها ويقولون انه ثبت أن مكتبة الإسكندرية تم إحراقها عن آخرها في زمن الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر الذي قام عام 48 ق.م بحرق 101 سفينة كانت موجودة على شاطئ البحر المتوسط أمام مكتبة الإسكندرية بعدما حاصره بطليموس الصغير شقيق كليوباترا بعدما شعر أن يوليوس قيصر يناصر كليوباترا عليه، وامتدت نيران حرق السفن إلى مكتبة الإسكندرية فأحرقتها حيث يعتقد بعض المؤرخون أنها دمرت.

هناك تواقيع تجري. فقد علمنا عبر التليغراف، أن الإمبراطور خصص ثلاثين ألف فرنك للمتضررين. هذا ليس بمبلغ صغير...» مبلغ كهذا، حتى لو ضوعف ثلاث مرات، سيبدو هزيلاً للتعويض على عشرين ألف عائلة من المستوطنين، وكم من العرب؟

عاد جان بيار إلى المزرعة ليربط الجياد بالمحاريث. الأم تبكي، وماري ظلت ترتجف طوال الليل وهي تسمع خفق أجنحة الحشرات، التي نجت من المكنسة. تلوثت الآبار، فطلب الضابط عدم الشرب منها. غطت النيران السهل حيث أحرقت أكوام الجراد. نيران في كل مكان. تلوث.

يوم السبت قررت الأم الذهاب إلى القداس في اليوم التالي. رمقها زوجها بصمت.

«إن لم أتمكن من قيادة العربة، فسأذهب مشياً على الأقدام» قالت.

الفصل الرابع

كيف شعر مفتاح بأنه منفي في بلاده. ماري تساعد امرأة عربية جاءت لتموت في الإصطبل.

1

في اليوم الأربعين بعد العيد الكبير، الخامس من يونيو بالتقويم المسيحي، اليوم العشرين من عمر القمر الجديد للشهر المحرّم في بداية العام 1283 الهجري، بدأت بيوض الجراد تفقس.

بعد العز الذي كان، بالكاد تبقى في المزرعة ثلاثة محاريث لم تتوقف عن الفلاحة. جان بيار على محراث، وديزيريه على الثاني، والأخير وهو الأقدم والأسوأ لمفتاح. وقت الراحة الوحيد هو لتبديل الثيران، كل أربع ساعات. زوجان من الثيران خصصا لفلاحة عشرة هكتارات خلال عام، الزويجا. في عام وليس شهر. هنا يجب العمل بسرعة، بسبب هذه الأيام الأربعين البائسة التي سيولد خلالها الجراد، نحو قمر ونصف. لا يجب الفلاحة عميقاً، فقد عدلوا انحناءة سكة المحراث لكي لا تنغرز عميقاً، كما عدل عرضها لشقّ أثلام أكثر سماكة.

بالنسبة للجراد، يكفي أن تشقّ الأرض بعمق كف يدٍ واحدة. ليس لدى الثيران الكثير لتجره، ولكن لا يمكنها أن تذهب أسرع من خطواتها، أو أنه سيكون عليها أن تنتقم من أصحابها بأن تصاب بالمرض. في قلب الثلم، يجب الإنحراف كما في مركب شراعي وإمالة المحراث جانباً، وحث الثيران على الدوران من خلال طرطقة اللسان والصراخ ونقلها

إلى الثلم الجديد، وهوب، تركيز المحراث في المكان الجيد الذي يجب أن يكون فيه. مجموعة جيدة تتوقف حيث يجب، وتنطلق حيث يجب أيضاً، ولكن يكفي أن يكون هناك حيوان واحد سيء كي تتعقد المهمة. على الفلاح أن يتمتع بالصبر ويمتلك فن قيادة الحيوانات، إذ يحتاج في هذه الحالة إلى وقت مضاعف. لأن الثيران مثل الرجال: هناك الجيدون والأقل جودة والسيئون. مفتاح هو من ورث السيء. أمر طبيعي. فهو يعرف كيف يُفهم الثيران العربية، المضطرة للعمل على الطريقة الفرنسية مع نير يضغط على الرقبة والكتفين – طريقة إخوتها الثيران بمعنى ما – بأن عليها أن تعمل لأن هذا هو القانون. ليس هناك ما يحث على التفكير كما تفعل الفلاحة. يمشون ببطء وفي خط مستقيم وأحياناً يتطلب الأمر عشر دقائق لاجتياز طول الحقل. إن كانوا سعيدين سوف يطلقون عقائرهم بالغناء. على أية حال، لا يمكنهم إلا أن يفكروا في قانون العرب الشبيه تقريباً بقانون الثيران، بالصلوات التي لم يكن لديهم وقت لتلاوتها مع هذا التراب الذي يجب قلبه لاستخراج البيوض إلى الشمس، من الفجر وحتى الليل، والذي يعتبر بالنسبة إلى العرب بداية يوم جديد.

هذا أيضاً، ما بدله الفرنسيون. بالنسبة إليهم يبدأ اليوم مع الضوء، بالنسبة إلى العرب مع عتمة الغسق.

إذن، يجب تبديل الثيران كل أربع ساعات في حين لم يعد هناك سوى محراثين بدل ثلاثة.

أحياناً، عندما تكون الثيران جيدة، يتركون مفتاح يرتاح، وهذا يعني أن يصحب الثيران التعبة إلى الزريبة ويعود بثيران جيدة، ثم يعود لتأمين الطعام لها من السماد الذي ما عاد يستعمل في الحقول وتبديل مفارش

الجياد ونقل بقايا المداخن وملء المرشات وكنس الساحة وتنظيفها من الجراد المتبقي. وبعد ذلك، يجب أن يبدأ من جديد، يأكل قطعة كعك ويمشي خلف المحراث، يد على مقبض المحراث وأخرى على المهماز. فمع هذه المحاريث الفرنسية، والأرض غير القاسية كثيراً أو غير الرطبة جداً، يمكن للحراسة أن تكون ممتعة. ولكن في هذا الموسم، يتسبب العمل في الأرض بإثارة الكثير من الغبار، وسكة المحراث، المعدلة لتقلب التربة على عمق قليل، قد تنزلق أحياناً وتخرج عن مسارها، وهذا ما يزيد المشقة.

ما كانوا ليعتقدوا في البداية أن الخراب سيكون بهذا الحجم. كان على الضابط أن يخبر عائلة باري بذلك. فهؤلاء الناس الذين يتعاملون ببالغ الإهتمام والدقة، لحد أنهم قد يرفعون التراب لوزنه، يفتتونه بين أصابعهم، ويفحصون الأوراق بالعدسة المكبرة، ساق السنبلة، والبراعم الجديدة في الحقل كما لو كانوا يفككون أسرار كتاب مقدس، هؤلاء بدوا مرتعبين. قرآنهم هو أرضهم. ليس لديهم غيرها سوى النساء، وآحاد الكنيسة، حتى من دون أن يفهموا شيئاً من هذه السطور على الأوراق الفرنسية، والتي لا دخل لها بالكتابة العربية الفاخرة الأنيقة والتي لا تكتب في أي حال بالاتجاه نفسه، والاعتقاد بأنهم يمتلكون هم والعرب القلب والعقل بطريقة متعاكسة.

شرح لهم الضابط بأن الجراد يتوقف عن القضم ما إن يضع البيوض، وبأن هذه الحشرات تغرز بطونها في التراب، تودع فيها بيضها حبة حبة، وهنا تنتهي حياتها، تموت. وبهذا، يفكرون خلال فلاحة الأرض: الجراد في الصحراء كعسلوج مذهبٍ بأجنحة وسكاكين مسننة، متعايشة مع

الشمس والرمل والحشرات الأخرى، أو الشوك، تتغذى من لا شيء، وربما ببساطة من نفحة إلهية، وعلى حين غرة، تنهض مع ملايين وملايين الأخوة، تترك الهواء يحملها في دوران طويل ثم تأتي لكي تغزو السهول في الشمال. هنا تتفتح شهيتها وتتحول إلى فك مفترس أكانت أنثى أم ذكراً، في حمّى التزاوج وزرع البيوض. وفجأة يتوقف قدر الجراد. نجد جثثها الجافة المطقطقة، نصف المقروضة من النمل الأحمر، هنا وهناك، وتحتها أكوام البيض المزروعة كالسنابل. يقول آل باري إن المحاريث لا يمكنها أن تقضي على كل شيء، ولكنهم رغم ذلك يأملون.

ابتداء من اليوم الأربعين، عندما لم يفقس أي من البيوض، ابتسموا.

على جذع جوزة، ولأنه يعتني بهذه الأشجار أكثر من غيرها، اكتشف السيد باري أوائل الجراد. صرخ منادياً أولاده ولاحظ أن الأرض كلها بدأت تموج. كيف كان سيكون الوضع إذن من دون الفلاحة؟

ابتداء من اليوم الأربعين، يبدأ الجراد بالتفقيس ولكن لا تمكن رؤيته. تحت بقايا جثث الجراد الذي لم يتمكن النمل من أكله، كان هناك الكثير، الحياة أضرمت، توسعت وانتصرت. بدأت الحشرات التي لم تكن أكبر من حبات العدس بلون رمادي مسودّ، تتقدم بحثاً عن الطعام، تتقاطع، تمتطي بعضها بعضاً أحياناً أو تجتاز بعضها الآخر. فما تركه الجراد أو قرف منه قبلهم، يصبح قوتهم: بقايا قش وروث ثيران وجذوع نباتات وحتى إنها أكلت النمل الكبير الأحمر. اليرقات الرمادية كبرت تحت مرأى النظر وبدلت ألوانها، الأصفر للذكور والبنفسجي للإناث. أخبرهم الضابط أن الجراد يبقى ستة وثلاثين يوماً على الأرض قبل أن يستأنف طيرانه ويعيد الدورة نفسها. في ستة وثلاثين يوماً تكشط منطقة كاملة، تتقلب مثل

حمم البراكين، في طوابير نشطة ومن دون نهاية.

أسرجوا من جديد الثيران وعدلوا النير للحفر بأكبر عمق ممكن، وصنعوا حفراً حيث تجمع صغار الجراد. يسكبون الكلس ثم يسدون الحفر. أحد لم يتوقعها بهذه الكمية. لم يعد هناك ما يكفي من الأوعية. كانت صغار الجراد تخرج من كل مكان. في المساء تتوقف أبسبب التعب أم الرطوبة؟ تتجمع تحت أكوام العشب التي ما زالت حية بأعجوبة، أو في حفر، تتكدس في مجموعات متماسكة لا تتحرك، تنتظر عودة الشمس. ولذلك، فهم يسحبونها في الليل، إلى تحت أكوام القش والهشير ويضرمون النار فيها. يشتعل السهل كله، وتنتشر رائحة كريهة جداً.

هكذا كان الحصاد هذا العام.

فخلال ست وثلاثين يوماً، نبت لصغار الجراد أجنحةً وهبت أسراباً، تسقط في مكانٍ أبعد بقليل ثم تعاود الطيران، في حين أن حشوداً أخرى تعود. ولذلك فإن المستوطنين الطيبين الذين فلحوا الأرض للقضاء على البيوض، تلقوا الأفواج المتوالدة فوق أرض الفاسدين. على الرغم من طلقات البنادق والأسهم وبخار الأسيد والصرخات والأعلام المرفرفة، فقد قضى الجراد على ما تبقى.

«انظر»، صرخ السيد باري لمفتاح، مشيراً إلى طرف الجبل. فالجراد الذي يأتي من هنا هو جراد العرب. يصعد فوق الأرض التي لم تفلحونها. فأنتم غير معنيين بأن يلتهم الجراد القمح والبرسيم والثيران! آه، حسناً العرب، لو كان بإمكاني لفعلت هذا».

وبقدمه، سحق بعض الجراد بغضب.

«لأن هذه الأرض هي لمن يعرف الدفاع عنها. أنتم، أنتم تنامون فوقها.

وتنتظرون أن تعطيكم. فإن متم سيكون ذلك عادلاً».

السيد باري هو من لم يكن عادلاً. لقد قال لهم الضابط إن الجراد يبحث عن أرض سهلة الحراثة لكي تضع بيوضها، وحتى إنها تفضل الشواطئ، وأرض العرب قاسية.

كان السبيل الوحيد لمقاومة الجراد هو ترك كل شيء على حاله. أهو خطأ مفتاح إن لم يحمل الجيش ما يكفي من الكبريت؟ أو فرضاً لو أكد لهم طبيب من الجزائر أن الجراد يمكن أن ينفع كغوانو[1]، هذا السماد الذي يصنع عادة من العصافير والسمك؟ بالنسبة إلى مفتاح فان سماد الجراد سيحرق الأرض. فهل سيجمع الجراد الذي طلبوه، وينثره على الأرض؟

لا مزيد من التبغ، ولا الكرمة، لا بساتين ولا لفت، وما عدا القمح الذي نجا إلى حدٍ ما، لا مزيد من الحبوب. وأيضاً لا أوراق على الشجر. كل السهل حقل ميت. لا شجر كينا. على طريق سكك الحديد، مادة لزجة تدور فوقها دواليب القاطرات. وحده شجر الزيتون أنقذ: غصونه لم تكن طرية كفاية ولا جذوعه حديدية.

وبشكل مفاجئ، وفي الثامن من أغسطس، حركة، نوع من اهتزاز مسعور، ثم هزة شاملة كبيرة عالية في السماء، الجراد وصغاره حاولوا مقاومته لكنه حملهم باتجاه الشمال واختفوا بعدها كما جاؤوا، تاركين خلفهم شجراً محترقاً، سقوفاً من القرميد المغطى بالأجنحة المتكسرة، ورجالاً محبطين. لم يأسف على رحيله سوى العصافير التي أخذت تدور، فاقدة الاتجاه.

بعد ذلك، بدأت المأساة.

(1) غوانو هو سماد من ذرق الطيور.

2

في الخريف، أذاعت الشرطة بياناً لعمل الخير عبر جمع الثياب والحبوب، إذ هناك في بسكرة[1] جموع جائعة تحاول الاستيلاء على التمور المعدة للبيع، وبأن البدو يموتون من الجوع.

حسناً، العرب، لسنا مضطرين إلى إغاثتهم. ففي أوقات المحن، يتكافل من هم من نفس العرق والدين. أو تعتقدون أنه لو احتجنا إلى الخبط لكان العرب قدموه لنا؟

إنه ليس الأمر نفسه، قالت أورتنس. فقد أخذنا من العرب أرضهم.

الثامنة عشرة. سيحتفلون ببلوغها الثامنة عشرة. وهي ما زالت تحمل هذه الأفكار الغريبة. أحياناً يقولون إنها من عائلة أخرى، من جهة نساء بويشو مثلاً، ما عدا مارغريت التي يعرفونها بشكل أقل. زوجة الضابط هذه، التي تعيش في كوكبٍ آخر: ما عادت قادرةً على رؤية الأشياء كما نساء المستوطنات. أورتنس وماري، وعلى الرغم من اختلافهما بالشكل، فهما متشابهتان. ماري أكثر استدارةً، ممتلئة، مشعةً، بحيوية صارخة. وأورتنس، بقدر ما تطول وتنحف، تغدو أكثر هشاشة. السيد باري كان يقول إن ماري شجرة حور وإن أورتنس كشجر البتولا[2] بجسد واهن ولين، مكسو بحراشف فضية وأوراق تهزها أصغر نسمة، تتبدل في الربيع والخريف لتصبح أكثر لمعاناً. تمتلئ عينا أورتنس بالضوء وعلى وجهها يرتسم شيئاً كالجرح. ما هو يا إلهي هذا الجرح؟ عندما نفكر بفليبين، نسأل أنفسنا كيف يمكن لفتاتين مختلفتين إلى هذه الدرجة أن يكون لهما

(1) بسكرة هي مدينة جزائرية تقع جنوب شرقي العاصمة الجزائرية.

(2) البتولا هي شجر من الفصيلة القضبانية تتمايز بجذعها الضامر والممشوق.

الأب نفسه وأن تخرجان من الرحم عينه. لا شيء مشتركاً. بالكاد الأنف وبالتأكيد ليس الفم. فمن المعروف أن فم فليبين صنع لكي يأكل، ويلوك ويضحك. أما فم أورتنس فلترتسم عليه ابتسامة حزينة، أما الطعام فهي تكاد لا تلمسه. ربت طائر سمان صغير وجده جان بيار في الحقول. في البداية وضعته في قفص ثم دجنته، وهذا الطائر الذي شُذّب جناحاه كبر بات في كل مكان مصوّتاً.

أحياناً، تحسد أورتنس ماري لحصولها على رجل مثل جان بيار. ماذا عن الوقت الذي كانت تتخيل فيه نجماً مذنباً، كذيل فستان عرس؟ قالت لنفسها إنها لن تتزوج، لأن الصبيان الآخرين كانوا دميمين جداً، أو ساذجين جداً، أو متوحشين جداً، وبأنها ستصبح آنسة عجوزاً. ما أهمية الحب؟ ما هو الحب؟ صَدَفةٌ نشعر بأن القلب يخفق داخلها، كساعة تتعجّل لتحسب ثواني السعادة؟ كل صباح كانت ترى ماري تخرج من بين ذراعي جان بيار بوجه سعيد.

– لن يكون هناك البتة فارس يحملني فوق فرسه الأحمر، قالت.

– مارغريت كانت مثلك، أجابتها ماري. كانت تعتقد أن الرب نسيها، ثم جاء هكتور.

– لم تكن دميمة مثلي.

– أنت جميلة، أيضاً. مثل المياه. لو كنت رجلاً، لكنت امرأتي المفضلة ولشربتك أنت. سترين.

كانت أورتنس تحيا على هذا الأمل الذي اضطرب منذ مجيء الجراد، والذي كانت ماري تعاود إشعاله عندما ينطفئ. يلزمه مناسبة. العام القادم، في عيد البليدة.

طأطأت أورتنس رأسها. «من سيرغب بي؟»، تفكر، «فقط شرطي أو عربي...». عربي، ثم لو كانت لديه فرسٌ حمراء وعيناه تبرقان كالنجوم؟

انتعشت المزرعة.

أعادت أمطار الخريف الخضرة للسهل الذي حسبوه مات. وعاودت الثيران الحراثة، ما عدا أرض الرعي. قدمت الحكومة البذور للمستوطنين وتمكنوا من بيع نصف القطيع للجيش.

إنها النهارات الأقصر خلال العام، لكن ومنذ عيد الميلاد، ارتفعت الشمس من جديد. في هذه الأيام يخفت عواء بنات آوى. عند الفجر، عندما يكون الضوء قد بزغ للتو، ولرؤية القمر الذي يختفي من شباك المطبخ، يجب الخروج لمشاهدته من الجهة الخلفية. مساء السابع من يناير، ومع بداية رمضان، يبدأ العرب صيامهم. ومن شباك المطبخ، يشرق هلال جديد.

هذا الصباح، سادت وللحظات حركة غريبة، ساحرةٌ أيضاً. مرعبة

نظرت أورتنس إلى بندول الساعة الذي كان يشير إلى السابعة وربع. ما هذا؟ وكأنها صرخة حيوان. أهي ثيران تتعارك؟ هل انهارت أرضية المَتْبَنة مثلاً؟ السيد باري الذي ثقل سمعه، تابع شخيره، ولكن جان بيار وضع زبديته على الطاولة. نهض ونزل إلى الباحة. كانت السماء رمادية، ومن بين الغيوم برزت الدائرة الحمراء للقمر. مفتاح يبدل مفارش القطيع، والثيران مهتاجة وقد حاول أحد الجياد أن يشبّ.

ارتعشت ماري. وكأن العالم يحمحم، كرعشة الحمى، أو حتى هذه الولولات أو الزمجرات غير الأكيدة، التي بالكاد يمكن تقفي أثرها، لا يمكن

معرفة من يطلقها أو من أين تخرج، في الظلمات، حتى إن المرء قد يسأل نفسه إن لم تكن تخيلات، ولكن ما الذي أسكت بنات آوى. بنات آوى يعرفن. فهي لم تعاود العواء إلا بعد لحظة صمت. نعم، هي، ارتجاجات من أعماق السماء مؤلمة مثل ضربة رجلٍ، ولكن أي رجلٍ!

– هذا يأتي من الجبل، قالت أورتنس.

– أنت غبية، قالت الأم، هل تعلمين عمَ تتكلمين؟ إنه بعيد الجبل.

عاد جان بيار. أشارت أورتنس إلى مصباح الزيت المعلق الذي لم يكن مضاءً والذي كان يهتزّ فوق الطاولة مثل سفينة.

«يا إلهي، صرخت الأم، اخرجوا».

دفع السيد باري بصحنه، وتوجه نحو الدرج، هرول إلى الحظيرة وفتح أبوابها.

«الثيران، أخرجهم! بسرعة».

لماذا على البؤس أن يصيبه وحده؟ تنهار الأسقف، وما نجا من الجراد سيتدمر. ولكن نعم، يا إلهي هزة أرضية في هذه البلاد! عليه إخراج الثيران أولاً. الأموال ثانية، التي تخبئها الأم تحت الملاءات في الخزانة.

استدار باتجاه مفتاح الذي كان يركض.

«هل سبق أن رأيتَ شيئاً كهذا؟».

كما كل الناس، كان مفتاح قد سمع بأن البليدة دمرت قبل مجيء الفرنسيين، ولكن مذ ذاك، لم يحدث شيء، فقد قارب الخمسين، وهو أساساً يجهل بالضبط عمره لأن ليس لهؤلاء أحوال شخصية.

«إنه أسد الأرض يهزّ عرفه»، قال مفتاح.

هراء. عائلة باري تؤمن بهذا التسلسل: الجراد، الحرائق، الحمى،

الهزّات الأرضية، كما في بعض المناطق في أمريكا وإسبانيا وإيطاليا.

«الجراد»، قال السيد باري، «إن كان ربكم هو من أرسله لكي يلتهم الفرنسيين، فالجراد لم يوفر العرب. إذن وبالنسبة إلى الأسد سيكون الأمر نفسه».

وافق مفتاح. فقد كان العرب دائماً أول من يعاني.

أخرجوا الأسرة، والصناديق، البندول، الطاولة، المقاعد، أواني المطبخ والمؤن، وخيموا في الخارج. هنا لا خطر. ولكن لم يحصل شيء، لا بل إن رجال الشرطة جاؤوا لزيارتهم، إنه لمشهد مضحك! «إذن، سيد باري، هل سمعت أصواتاً؟...». في الحقيقة، سيد باري لم يسمع شيئاً.

كانت الطريق خالية سوى من بعض العرب العابرين الذين لم يعلموا شيئاً، أما القرية فكانت أشبه بالمخدّرة. أورفيلا عند عتبة خانه مثل قائد على بوابة سفينته. بطل حقيقي. لقد كانت حقاً هزة أرضية. كيف لا تعرفون؟ بالطبع، في القرى لا يعانون من هذه الأمور كما في المدينة. لو كنتم هنا! كان أورفيلا في الصالة يحضر القهوة لأحد المسافرين، عندما بدأت القناني تتلاعب فوق الرفوف. يمكن القول ترتج. استدار، حاملاً بيده إبريق القهوة. من هو هذا المنحرف الذي يلعب بهز الحائط؟ «ما هذا باكيتا؟» صرخ؟ وعلى حين غرة، بدأ يتأرجح فبات مفهوماً من هو المنحرف الذي يهز الحائط. هو نفسه الذي يسكن في الجوار، في المقبرة.

«انظر إلى السقف، سيد باري. لقد تصدّع من أوله لآخره. وهذا من سيعوضه عليّ؟ وهل تعتقد بأنهم سيوزعون علينا البذور مثلكم؟ ثم لا يمكنكم أن تقنعوني بعكس ذلك: سلسلة المصائب هذه سببها الإمبرطور.

فهو لم يخرج من تولون[1] إلا حتى أصابته ما عدت أذكر ماذا، عارضة خشبية، خلال عرض بحري، وقد سقط قتلى. عندما يبدأ الأمر بهذا... لم نصل بعد إلى المجازر، ولكنها آتية».

كان النجار في مشغله، مأخوذاً بالمنشار الدائري الجديد، دولاب حقيقي مسنن من صنع حدادٍ، يشغّله بدواسة في الرجل وبحزام، ليقص به ألواحه الخشبية من دون تعب وبشكل مستقيم. وفي الباحة، أقام خيمة لابنه أرتور.

– أنا لا أخاف شيئاً. التخشيبية قوية. ما نخافه في الحقيقة، سيد باري، سأقول لك ما هو: الحرب. وذلك منذ أن هزمت بروسيا النمسا، العام الماضي، واستولت على هانوفر، فرانكفورت، إلبا، هسن، ولا أعرف ماذا أيضاً، سترى. ستلحق بنا المأساة هنا، وأنا أخشى الحرب في أوروبا، لأن بروسيا لا تريد ان تتوقف هنا. إنها تريد الألزاس، وهو ما لا يخفى على أحد. هذا ما يجب أن نتقصى عنه بدقة. إنهم ينيموننا، سيد باري. الملايين من العمال يشتغلون في ظروف بائسة وبعض الرومنسيين بدأوا يتحدثون عن بؤس الشعوب في خدمة التقدم. في حين أن هذا الشعب، الذي أنت جزء منه، هو من يجب أن يكون السيد الأوحد، فإن نظامنا لا يفعل شيئاً سوى كبت حريته. وحدها حرب عالمية يمكنها أن تخرجنا من هنا.

– بالنسبة إلي، أنت تعرف...

– نعم، أنت مثل الآخرين، سرب جراد أو هزة أرضية تخفي عنك ما هو أهم. ليس هذا الجراد هو الخطير. سيمر. هناك من يقون في قصور

(1) Toulon مدينة فرنسية تقع جنوب البلاد.

الحكومة ويلتهمونكم من دون أن تدروا. ليست هزة أرضية صغيرة هي التي ستسبب لكم الألم، فإمبراطورنا الشجاع أقام المحاكم العادلة للمسلمين، وكان محقاً. كيف يمكن لهؤلاء أن يفهموا شيئاً من قانوننا؟ فنحن هم البرابرة. فلماذا على الرغم من كل الكوارث التي تصيبنا، لماذا لا تتوقف الحرائق؟ فغابات شرشال[1] باتت كومة رماد، خمسون عاماً يلزمنا من أجل الحصول على شجرة سنديان جديدة. إننا ندفع غالياً ثمن هذا الخشب، ولا يمكن لأحد بناء منزل مع كل هذه التكاليف. أهي صدفة هذه الحرائق؟ قبل وصولنا، لم تكن الغابات تحترق».

«إنه مجنون»، قال السيد باري لنفسه، «يخلط الأشياء ببعضها».

هياج في المزرعة. هزتان أخريان بفارق دقيقة واحدة.

«مثل انفجار رعد غير متوقع»، قالت الأم.

أورتنس ذكرها ذلك بالطريقة التي تهز بها الجياد أكتافها أو صدورها عندما يغط عليها الذباب. فالعالم هنا يفعل الأمر نفسه. ولكن ما هذا الغضب والحقد المفاجآن! هذا الهدير الذي يشبه عاصفة متفجرة في أعماق الأرض وليس في السماء، ينشر الهلع: يمكننا أن نحتمي من عاصفة، ولكن ليس من هذا. فالمدفعية التي نسمعها أحياناً في الجبل، أي مزحة! الفيضان والحرائق وحتى الجراد، لا تعد شيئاً أمام هذا الزئير الذي يسود العالم لثوانٍ، يمكنه أن يسحقكم ويخترقكم من جهة لأخرى. ثم لا شيء. تعاود الأرض تنفسها، ويعود الرجال ليفكروا بثيرانهم وبيوتهم وزرعهم.

(1) هي غابات تقع في مدينة تيبازة الجزائرية.

تسقط نقاط مطر، متباعدة في البداية ثم تتحول إلى فيضان. تشد أورتنس طائر السمّان إلى قلبها بعد أن تجده متكوراً تحت المقصف، حيث تسارعت دقات قلبه. «يا إلهي، إن كان سينتهي كل شيء... حسناً سنعيش مثل الطيور. أنت تبحث عن حرارة الشمس وها قد وجدتني. وأنا عن حرارة الوصل، وليس لديّ سواك...». مربكاً بالحرية التي حصل عليها، كان الكلب سيزار يتنقل من سيد إلى آخر. فكلب حراسةٍ لا يحق له بالدخول إلى المنزل، يتساءل كيف يمكن أن يعمل، ويتوسل الأوامر عائداً بعناد إلى جانب أورتنس التي كانت تدفعه من أجل طائر السمان.

اكتشف جان بيار سحليتين: واحدة على حائط الإصطبل مقابل الباحة، تحت السقف الرئيسي، وأخرى في الخلف، قرب المخزن.

إنه يبدأ بشكل جيد، العام 67!

منذ فبراير، لم تهطل أي نقطة مطر. أراضٍ مهجورة في الجانب الآخر من الجبال، يحاصرها الجوع والكوليرا. يعيدون ذلك إلى قلة نظافة السكان الأصليين، والجفاف المستمر وحمى المستنقعات القاتلة التي تخرج من الدوار. انتشرت على الطريق من لاربعاء إلى أومال[1] جثث الجمال التي أكلتها بنات آوى.

في غضون ثلاثة ايام، وصلت الكوليرا إلى حدود مدينة الجزائر، في كوليا، وتسببت بموت ستين شخصاً من بينهم الكاهن. واستسلمت المستوطنات للملاريا والتيفوئيد. بدا وكأن الكوليرا هي واحدة من نتائج إهمال العرب. ففي فرنسا لم يحصل الأمر نفسه. كانوا يرفعون النخب

(1) Aumale مدنية جزائرية سماها الفرنسيون على اسم إحدى مقاطعاتهم، ولكنها استعادت اسمها الأصلي بعد الاستقلال، وهو «سور الغِزلان» بكسر الغين.

للكوليرا: «بصحتك، أيتها الكوليرا!» كان يقول السكارى ويلعب الأطفال. فهذا المرض الذي يفرغك بالكامل، جاء من الخارج، حملوه معهم من حرب القرم، وأصاب حتى مارشال فرنسا[1]. في الجزائر، كان عليها، وبكل إنصاف، أن تُحصر بالعرب. فهل يمكن أن نلوم العرب على أعيادهم وعاداتهم؟ وألا نتركهم يمارسون دينهم. آه حسناً فقد دسوا لكم الكوليرا. رد رئيس الاساقفة على الهجوم ضد رجال الدين باللجوء إلى المؤسسة مدعياً على العرب: صوّرهم شبه عراة، يتصارعون على عربات النفايات، يذهبون لحد نبش الجيف ليأكلوا ثم يرتمون على جنبات الطريق، متدثرين بأسمالهم، منتظرين ساعتهم الأخيرة وهم يرددون اسم الرب...

لقد بالغ، رئيس الأساقفة! كان يمكن أن نرى ثقب أذنه من تحت القلنسوة. فهؤلاء الأطفال المساكين الذين نجوا من الجائحة، آلاف اليتامى الذين استقبلهم، رشهم من أجلكم، بحجة أنه يحممهم، وينثر عليهم الماء المقدس ويعمدهم باسم الآب والابن والروح المقدس. لا يمكن الحكم عليه لشهر سجن مع الإرجاء، مثل صحافي مبتذل، عندما نكون مجبرين على توسل الموافقة على قرض بمليونين لنجدة الجزائر وعندما يكون هناك نساء تبيع أطفالها بفرنك واحد. وبالطبع فقد استغل جول فافر[2] المناسبة ليلقي من منصة مجلس النواب خطبة نارية.

«يقال إنهم يموتون من الجوع»، قال السيد باري للرقيب، «هذا مجرد

(1) المقصود هنا المارشال الفرنسي توماس روبير بيجو الذي مات في فرنسا بسبب الكوليرا التي حملها من القرم العام 1849.

(2) Jules Gabriel Claude Favre (1809 – 1880) ابن تاجر كبير، محامٍ ورجل سياسة فرنسية وكاتب مقالات، لعب دوراً في مختلف الحقبات.

كلام. الموت من الجوع. هل شاهدت ذلك أنت؟»

مسّد الرقيب شاربيه اللذين بات يقصهما اليوم أقصر، حسب الموضة. في المقابل أصبحت لحيته الإمبراطورية مروسة كلحية التيس، ومنتصبة، مما كان يعطيه أحياناً هيئة إله أغريقي. هذا معروف، أن الجوع يقتل. فالصحف مليئة بهذه الأخبار. وحتى إن ثمة قراء طالبوا المخابز بالتوقف عن بيع الحلوى، وآخرون اقترحوا إطعام الجياد الخروب لتوزيع الشعير على الفقراء. فالجياد بالضبط، كانت تتغذى أفضل من العرب. ما كان ينقص سوى هذا! الأنظمة، إذن، ماذا لو خُفض مكيال العليق إلى ثلاثمئة غرام؟ فهناك أكثر من عشرين ألف حصان أو بغل في الجيش. ثلاثمئة غرام في اليوم ليست بالشيء المهم، من أجل إنقاذ ستة آلاف عربي من الموت.

في إحدى المرات، اقترب زهاء عشرة من العرب من المزرعة. آه، لا ليس هذا. منع كامل. في هذا اليوم، حرر جان بيار الكلب الذي هجم غاضباً على العرب... لم يعضهم. بل أسوأ من ذلك: طردوا وأهينوا ودفعوا إلى الطريق مع كل التقريع. لقد بالغ سيزار! إنه تركو[1] حقيقي. لقد استعاد صوته الأجش لكلب مشتى مهجّن، هذا الناقوس القوي العدواني الذي يبدو وكأنه يتقيأ الشتائم، لا بل بقي مهتاجاً حتى الليل. عربٌ هنا، شحاذون كانوا سيأتون ليلتهموا له صحون طعامه المعدنية، آه! لا. لاحقهم حتى مسافة بعيدة! رهيب سيزار. لولاه ماذا كانت فعلتا ماري وأورتنس؟ لكانتا وزعتا كل ما لديهما. فالزواويون كانوا فقراء، جان بيار ليس جحوداً، ولكنهم لن يموتوا من الجوع.

---

(1) التركو هم طائفة الرماة الجزائريين والتونسيين الذي كانوا جزءاً من جيش أفريقيا الذي شكله الفرنسيون، ما بين 1842 و1964 والذين شاركوا في حروب الفرنسيين وأهمها حرب القرم مع البروسيين.

3

خبط الرقيب بقوة على حقيبته اللماعة. في داخلها، من المعروف أن هناك إلى جانب الصحيفة، دفاتر المحاضر، السلاسل، قطعة بسكويت أو وجبة خفيفة، رسائل شخصية، فرشاة للشاربين، أدوات نظافة شخصية، في حال لم يتمكن من العودة إلى مركز الشرطة أو في حال اضطر لحلاقة ذقنه. لا يمكن إرسال قادة كتائب للاستكشاف من دون إعلامهم بما يحصل، وقد أثار مؤخراً تقرير سري من قائد شعبة سيدي بلعباس[1]، الجنرال لاكتريل، وهو مسؤول مكتب عربي قديم، ضجة كبيرة. وفيه أن العرب، المعدمين في كل مكان، أمسوا كالحيوانات المتوحشة، لا يتغذون سوى على الجذور والقذارات. وقد توقع أحد المستوطنين هلاكهم في ظرف عامين.

«الكلام بيننا»، قال الرقيب، «يمكنني ان أعترف لك بذلك، فنحن نعرف ذلك من خلال معلومات أكيدة. لن تعانوا معهم بعد ذلك: إنهم في طريقهم إلى...».

تردد، هل يمكن قول ذلك للمدنيين؟

«الانهيار بالكامل».

ومن أجل ألا يترك لدى آل باري أي شكٍ حول الكلمة، خبط بيده على حقيبته ثم قلب راحتها إلى الخارج، مثل حيوان سقط، وانقلب على بطنه.

أدار السيد باري وجهه المنهك بذقنه الرمادية إلى الرقيب. فهو ما عاد يحلق ذقنه سوى مرة واحدة في الأسبوع، يوم السبت. وما زال اليوم

---

(1) سيدي بلعباس: مدينة تقع وسط غرب الجزائر.

الأربعاء. اغمض جان بيار عينيه نصف إغماضة، وتجعد جبينه من شدة التركيز.

«إلى هذه الدرجة؟ ولكن ما يقال عن أنهم سيأكلون بعضهم بعضاً... أليست قصصاً خيالية؟»

تنهد الرقيب. لقد ذكر الجنرال ذلك في تقريره.

– لقد حدث ذلك.

– مستحيل؟

لم يجب الرقيب. فالشرطي يعرف أن كل شيء ممكن. فالصحف تكلمت عن آكلي لحوم البشر في جبال النمامشة[1] في منطقة الأوراس[2]، بلاد ليس فيها سوى الحجارة والهواء. ليس غريباً.

يجب تغيير الحديث سريعاً. فقد التوى وجه ماري. وأورتنس، بيديها الشاحبتين على الطاولة، أخذت تنظر في الفراغ أمامها. لم تكن أورتنس بخير. فقد انتهى الأمر بأن استدعوا الطبيب. قال إن ليس هناك من أمر فظيع ولا حرارة، إنه التعب. كان من المفترض بالتأكيد تزويجها، وشغلها بما يناسب عمرها. دائما في المزرعة، الأفق نفسه، هذا القلق الذي يعيشونه، أمطار مع رياح جافة، ثم ريح شرقية. ورغم ذلك يبدو الحصاد جيداً. ولكن ماذا عن حصادها هي، أورتنس؟ ماري أيضاً هي الأخرى ما عادت مشعةً واسودّ محيط عينيها، كما أنها لم تحبل بعد. وبمعنى ما، فهذا أفضل. ماذا كان يمكن فعله مع طفل؟ في وقت كهذا، كانوا ليموتوا جميعاً مثل طفل فليبين. حسب الطبيب، لم تكن الكوليرا، وإنما التهاب في الأمعاء

(1) النمامشة هم قبيلة شاوية أمازيغية منتشرة في أقصى الشرق الجزائري بالمحاذاة مع الحدود التونسية.

(2) جبال الأوراس هي جبال عالية القمم شمال شرق الجزائر.

الدقيقة. فالكاهن الجديد لم يتوقف عن دفن الموتى.

وفجأة، أصاخ الرقيب السمع. فقد أعتقد انه سمع جلبة، بعيداً، استدار باتجاه المدفأة. هل هي عباب الهواء داخل المنزل؟ رفع جان بيار قنينة النبيذ الوردي.

– ستشرب معنا، أليس كذلك؟

– القليل فقط.

نهض الرقيب وخرج إلى ناصية الدرج. لا لم تكن المدفأة. هناك شيء آخر. ضجيج أصوات مكتومة. يمكن ملاحظة حراك ما على الطريق ما بين شارع الجزائر ودوار الزواويين.

«جوزيف!».

حمل الشرطي الشاب قبعته ذات الكوزين، وهرول. مدّ الرقيب ذراعه:

«اذهب وتقصَ الأمر».

اقتربت عائلة باري، ما كان هذا؟ فوج كامل، لا يصدق، قبيلة عربية.

تناول جان بيار بندقيته ولحق بالشرطي الشاب الذي ذهب باتجاه الطريق، في خطوات بطيئة كما أوصي إليه، اليد اليسرى على مقبض السيف. هذا يتيح له أن يفكر وأن يكون خادعاً. فمن يراك تتقدم بهذه الطريقة، سيشعر بأنك حازمٌ وأن القانون إلى جانبك. والقانون لا يحتاج للتعجل، فهو قادر دائماً القبض على المجرمين.

عصيان؟ في العصيان لا يغنون بل يصمتون. هنا يغنون. في النهاية، إن كان بإمكاننا أن نسمي ذلك غناءً. إنها بالأحرى صلوات حزينة. على الرغم من أن ليس هناك أعياد، ولا احتفالات دينية متوقعة. فالعيد الكبير

يقع في أبريل. لا شيء في مارس. وليس عرساً، ما عاد أحد يتزوج، فماذا سيأكلون إن تزوجوا؟ فقد فقدوا الراحة.

«حسناً»، دمدم الرقيب، «سأقول لكم ما هو، إنها جنازة».

عجيب، هذا. لا مؤشرات. من أين يأتي هذا الميت، وكم من الناس في رفقته إلى المقبرة، تحت أشجار الزيتون، على بعد خمسمئة مترٍ من هنا؟ إنهم نحو المائة، نظراً للغبار الذي ارتفع في المكان. نظر الرقيب إلى البندول ثم إلى ساعته وسجل التوقيت.

مشوا، أمام الشرطي وجان بيار، مثل قطيع ثيرانٍ يدفع دفعاً مع ذلك الشعور بالذنب عندما لا تلتزم بالمسير، كما مثلاً عندما ترعى في المكان الذي لا يجب أن ترعى فيه فتعض لها الكلاب بواطن قوائمها. واقفون مثل الظلال بعيونهم المنخفضة، يتكئون على بعضهم بعضاً كي لا يقعوا في الحفر، بوجوه طينية خارجة من فجوة من الجبل لحظة هزة أرضية أو لحظة نهاية العالم بذاك الشعاع القوي للشمس تخترقه غيمة سوداء، أو كأشباح ترتدي أكياساً رثةً بسيقان عاريةٍ وجذوع هزيلة. أشبه بالعميان وعلى الرغم من ذلك يبدون مضائين بشيء ما داخلي شبيه بالغضب. غضب ضد من أو ضد ماذا؟ المجاعة، دائماً كان هناك مجاعة في الجزائر. ضد الرب الذي عليهم أن يثورون ضده، هؤلاء الملاعين، بدلاً من أن يحمدوه. فالآن تُسمع تمتماتهم «لا إله إلا الله... لا إله إلاً الله ومحمد رسول الله...» سيرددون ذلك حتى النشوة، في نوع من الثمالة المخيفة.

لا مجال لإلقاء التحية عليهم ولا القيام بأي حركة. وماري ستقول بالتأكيد إنهم رجال كما كل الرجال... لا. إنهم متوحشون، متعصبون. في مواقفٍ كهذه، وعندما تكون رومياً، يجب أن تسكت وتحاول ألا

تكون مرئياً. لا تتحرك. ولماذا عليهم أن يستعجلوا مصيرهم؟ فالموت لديه كل الوقت. ولكن لا. دينهم. «اللهم، هذا عبدك نزل بك وأنت خير منزول به، فخذه[1]...» فهم لا يصدقون أن شخصاً مات حتى يسارعون لرميه في الحفرة، فالقرآن يوصي بدفن الموتى بأسرع وقتٍ ممكن كي يُفتح له بسرعة باب السعادة الأبدية، أو للتخلص من كائنات ذاهبة للنار إن كانت قد أنهت حياتها في السوء. لا شيء مشتركاً مع الاحتفالية والاعتدال في المسيحية. مشهد الدفن... آه! كان يجب رؤيتهم يتسابقون، هؤلاء، ويرمون بأنفسهم، كل بدوره من أجل أن يلصقوا أكتافهم بالحمالة. فمن يحمل ميتاً مسافة أربعين قدماً، سيغفر الله واحداً من ذنوبه. يتنافسون، يتنازعون مقابط الحمالة، يهزون الجثة. ىه ولكن أجمل شيء هو مفتاح، الرفيق مفتاح، الذي كان قد حسم قديماً موقفه للحفاظ على مصدرعيشه، مفتاح الذي يمكن اعتباره أميراً، انزلق مثل ابن آوى بين أشجار البرتقال والسرو والتحق بحشد الجائعين وركض بدوره باتجاه الجثة...

لكز جان بيار بكوعه الشرطي. هه، أهناك خطب ما؟ ماري كانت قد حكت له كيف وصل الجنرال دو رواي إلى مزرعة بويشو في بوفاريك، وتلك الأمواج من البرانس الحمراء التي لاحت في السهل، لمعان الضباط والسيوف، وذلك الرجل الضخم الضابط المساعد الذي بات صهراً، أبواق... ما عاد يتذكر إن حكت له عن أبواق. هذا كان عن الفرنسيين. أما العرب فها هم على مرمى النظر. أن تكون عربياً، أي مصير!... لا إله إلا الله... وها هم الآن يتعدون، بينهم كسيحٌ يجر ساقه.

«وأنت من هو ربك؟».

---

(1) من صلاة الميت عند المسلمين.

التفت بسرعة إلى الشرطي، الذي بقي جامداً.

– ماذا تقول؟

– أنا؟ لا شيء.

لم يكن هو من حكى، لكان عرفه من لكنته الغريبة ورائحة الثوم التي تعبق من فمه على بعد خمسة عشر قدماً. فربما أنه يحلم بالكروم ويتخيل نفسه ملاكاً في متيجة. على أية حال، ليس زوجاً لأورتنس. ولكن لا، إنه هو نفسه، جان بيار باري، الذي كان يكلم نفسه، لأنه رأى العرب يمرون أمامه وقد التحق بهم مفتاح، مثل الورشان[1] المدجّن الذي يفر فجأة مع سربٍ من فصيلته إلى الجنوب. الذرة التي تقدم له في برج الحمام والأمان، كل ذلك يصبح فجأة بلا معنى. شيء ما يتحرك في أحشائهم وها هم يسطون أجنحتهم ويرحلون مع الريح. بالنسبة إلى مفتاح، هذا مفهوم، فالعرب هم دائماً العرب، ولكن بالنسبة لبرغوندي[2] ماذا يعني سؤالٌ كهذا: «من هو ربك؟».

«أين ماري؟»، سأل جان بيار.

لقد اعتادوا سماع هذا السؤال. هذا ما يعنيه أن يتزوج الرجل في سن متأخرة، فهم يعتقدون أنه سيضيع إن لم ير زوجته. كان قد سمعوا ماري تبحث عن شيء ما في المطبخ. فهرول إلى المنزل منادياً إياها، ثم خرج، وكأنما قادته غريزته نحو الإصطبل الفارغ، فدخل.

«ماري! ماري!...».

ضاع صوته بين معالف القش والجدار المثقّب لإدخال الهواء من جهة

(1) الورشان هو نوع من الحمام البري.

(2) Burgonde هم شعوب من أصل إسكندنافي ويقصد به هنا جان بيار.

الجنوب، عندما رأى في نهاية الإصطبل، تقريباً في الروث، ماري محنية فوق جسمٍ ممددٍ، والجياد تخور، تشمّخ آذانها وتصهل. امرأة، نعم امرأة عربية تختنق، وقد التصقت على شفاهها حبوب الشعير والشوفان النصف ممضوغة، تشد طفلاً إلى ثدييها، نوع من جنين مجهض أسود وعارٍ، بجبهة متغضنة وعينين ملتصقتين بخليط مريب، يتنفس بسرعة وفمه مفتوح مثل العصافير المجروحة.

– ما هذا، ماري؟

– ساعدني.

الطفل يلفظ أنفاسه وقد مزقت أظافره واحدة من ثديي أمه، والمرأة... يجب حمله وفتح فمه كي يشرب الحليب.

«أحمل الطفل».

كان متشبثاً بأمه، كما يتشبث قط بمزراب ماء. كان عليه فك ذراعيه الواحدة تلو الأخرى ووضع الجسد الصغير على مفرش الجياد. مثل الطفل يسوع. «هيا، بلا تجذيف»، قال جان بيار لنفسه، «نحن في صراع مع المسلمين فهم لا يؤمنون ببيت لحم. ولكن إن خطرت لي هذه الفكرة فلأن الله هو من أرسلها لي».

وقد توجهت ماري في المقام الأول إلى الإصطبل لأنها سمعت الخوار المرتعب للجياد، في اللحظة التي كانت تجمع فيها بعض الطعام: كرة خبز، قنينة زيتٍ، سميد وتين مجفف كانت ستطلب من الشرطي أن يحملها إلى آل زواوي، الذين ولمرة كانوا ليرونهم بكل سرور. فوجدت المرأة محنية على عليق الجياد. إنهم يكذبون، جميعهم يكذبون. لقد بات قلبهم ومن دون أن يعلموا، كالحجر.

«والدك لم ينه صحنه من حساء الذرة[1] هذا الصباح، اذهب واحضر الباقي أسرع. هذه المرأة...».

كان عليها أن تردد أنها امرأة كي يصدق: شعر طويل مضفر بجدائل، ثديان مترهلان فارغان يسيلان دماً عند الأطراف، يكشف عنهما المزق في الثوب الرث. هذا الوجه الداكن لملكة بربرية، أين رآها؟ يا إلهي! يوم العيد، عندما اقتحم القبيلة، إنها الشابة البربرية التي كانت إلى جانب أورتنس تصفق بيديها، والتي حلم بعينيها المكحلتين وبالنجوم على جبهتها...

هرول إلى المنزل.

«حساء الذرة الذي بقي...».

ماذا سيفعل به؟ إنه مجنون؟ رافقته كل عائلة باري ورجال الشرطة وعلى رأسهم الرقيب مردداً «حذار، حذار». ألم يقم الدفن أساساً بهدف تبديد ريبة المستوطنين، في حين كان آخرون ينهبون مخازن الحبوب؟ يده على غمد المسدس، كان ينظر من ثقب باب الإصطبل. لا. ليس هناك عرب حول المزرعة. في البستان، ربما؟ الفاصولياء والبازيلاء لم تنضج بعد وما زال بالإمكان أكل. في البعيد، خلف الغبار، يبدو أن الموكب الجنائزي البائس اقترب من أشجار الزيتون، هناك حيث لا أغطية ولا حصراً، لا شيء لدى العرب.

«هذه المرأة، أعرفها»، قال جان بيار.

انحت أورتنس على الملعقة والصحن نصف الملآن.

«ليس بالضرورة، قالت ماري، أعتقد أنها...».

(1) البليحاء هو نبات عشبي صبغي.

لم تتجرأ على القول. لم تكن قد رأت ميتاً من قبل. هذه الاستكانة، هاتان العينان اللتان تحولتا زجاجيتين، هذا الشحوب، هذه الخطوط التي تعمقت وارتخت فجأة، وكأن بخاراً سماوياً سحبها...

«تحسّس نبضها»، قال جان بيار للرقيب.

أرادت أورتنس أن تستلقي فوقها لتتأكد إن كان قلبها ما زال يدق، ولكن أخاها منعها وأمسك أيضاً بماري. لا يجب لمس العرب. ثم إننا لا نعرف أبداً، في وجود الكوليرا. عادت الجياد لمضغ العلف ملقية بين الحين والآخر نظرة قلقة. أسند جان بيار ماري التي كانت ترتجف. انفعالات كهذه يمكن أن تسبب الحمى. ماذا سيحصل له إن مرضت ماري بسبب فتاة جاءت لتموت تحت نظره كي تجده ربما وتتوسل إليه؟

«هيا بنا»، قال وهو يجر ماري وأورتنس، «ما عاد بإمكاننا فعل شيء».

كانت المرأة ممددة بين الجياد. وبطرف سيفه، غطى الرقيب فخذي المرأة بخرقة من حجابها وجر الطفل إليها. حدد الطبيب سبب موتهما وعليه الآن كتابة التقرير. بدأ الذباب يتكوم على الجثتين وعلى صحن حساء الذرة البارد الذي نسي بين القش.

الجزء الرابع

طبول الحرب

الفصل الأول

النقيب غربيه يتأمل في الحرارة التي أبدتها البليدة في وداع الزواويين الذاهبين إلى حرب العام 1870.

1

نصبوا تحت أشجار الدلب خيمة مفتوحة من كل الجهات، على شكل منصة كبيرة، وبسبب الحرارة التي تضرب بقوة في البليدة خلال شهر يوليو رشوا الأرض بالماء.

عندما وصلت الموسيقى إلى اللازمة، بدأ الجميع بالغناء:

إلى الحرب، مواطنيّ!

هيا فلترصوا الصفوف!

هذا النشيد الوطني الفرنسي التحريضي، والذي رفضت الفرقة الموسيقية للطابور الثاني والثلاثين في الـ48 عزفه في ساحة المجلس والذي طالب به الشعب ومنعه الإمبراطور عشرين عاماً، يُنشد اليوم في كل مناسبة، كأنهم يريدون الشبع منه.

انتهى رئيس البلدية من ترتيب أوراق خطابه، فهو يتقن فن الخطابة.

الكثير من الكلمات الرنانة ولكن المختارة بعناية. «في اللحظة التي يتمرد فيها الوطن على البروسيين وينهض من الذل، يتحرق الجيش صبراً لمواجهة أولئك الجنود المدّعين جداً. آه، سادتي، أتمنى لكم...».

كان ذلك موجهاً للعرب الذي حضر الحفل بعض الممثلين عنهم، إذ بات هناك اليوم ممثلون عن السكان الأصليين في المجلس البلدي، تم اختيارهم من بين الوجهاء وكبار التجار، ولكنهم في النهاية عرب، وأحدهم، ذاك الذي يشغل منصب المعاون الثالث لرئيس البلدية، بات بإمكانه أن يلبس الوشاح[1] ويقيم الزيجات. ها إنهم يُعتقون! ها هي الليبرالية تطبق! هل سبق ورأيتم مهزومين يزوجون منتصرين؟ عندما تكون عربياً ليس عليك أن تنسى من كنت ولا أن تبالغ باستغلال الكرم الفرنسي. ولذلك فقد استهلّ رئيس البلدية خطابه بالإشارة إلى البروسيين، «أولئك الجنود المدّعون جداً»، لأنه في عيون الجميع، لا يعني العرب الشيء الكثير، ما عدا التركو، أفواج التركو التي تشكلت إحداها من البليدة من متطوعي السكان الأصليين.

أكثر من مرة، تساءل النقيب غريبه إن لم يكن عليه أن يختار السترة بالياقة النرجسية الصفراء، والصدرية، والقبعة العسكرية اللازوردية والبنطال الأحمر لضباط الرماية. فبزة الزواويين الزرقاء الداكنة وتكاد تكون سوداء، أقلّ جاذبية. ولكن أيضاً قيادة عرب فقط تبدو ساحرة، إذ يمكن فعل كل شي مع فرق كهذه.

فلننطلق... فلننطلق...

---

(1) الوشاح الذي يضعه عمدة المدينة والمساعدين لإتمام مراسم الزواج، وفي مناسبات رسمية أخرى

ولتروي دماؤهم القذرة[1]...

دوى التصفيق من كل اتجاه وأعاد الحشد ترديد اللازمة. سنروي بدمائهم أرضنا! هيا، لا أسف. التركو، لا يمكن معرفتهم أبداً، فمع القليل من الثلج والمدافع ينهارون، أما الزواويون[2] فهم صلبون.

في يوليو 66، وقت معركة سادوفا[3]، كادوا يتحركون. كل صباحٍ كان يقال لهم إن ذلك سيحصل عند المساء، ولكن الأوامر المنتظرة لم تصدر. فالإمبراطور المريض بقي في بياريتس[4] ولم يتلقوا سوى الخطابات. لم يكونوا جاهزين بعد. ثم وفجأة، كل شيء تغير. ففي مارس، وفي حين كانوا مشغولين بتجميع البواخر ووسائل النقل عندما حصل الحريق الأكبر والإهانة بخصوص وراثة عرش إسبانيا. أمير من هوهينتزولِرن[5] يرث شارل الخامس، في حين أن الإمبراطورة إسبانية والزوج الإمبراطوري الفرنسي لديه وريث ذكر! تظاهر الملك غيوم وبسمارك بالانصياع، ثم كان لـ«برقية إمس»[6] وقع الشتيمة على

(1) حزء من النشيد الوطني «فلنطلق، فلننطلق ولتروِ دماؤهم القذرة أرضنا...».

(2) تجدر الإشارة هنا، إلى أنه وعلى الرغم من أن كلا الزواوين والترك يتشاركان في كونهما يعملان مع الجيش الفرنسي ويتشكلان من الجزائريين إلا أن التركو هم فرق رماة والزواويين هم جنود مشاة.

(3) معركة سادوفا هي المعركة التي دارت رحاها بين نهر الألب وبستريتز في ألمانيا، في الثالث من يوليو 1866، في إطار الحرب البروسية النمساوية، والتي انتهت بانتصار البروسيين، وقد جاءت أيضاً بعد انتصار البروسيين على حلفاء النمسا في 28 يونيو 1866، والذين كانت فرنسا جزءاً منهم. ولذلك طالب الشعب الفرنسي بالانتقام مما اعتبره إهانة لذا اندلعت في 1870 الحرب الفرنسية البروسية.

(4) بياريتس: مقاطعة فرنسية تقع في منطقة البيرينيه الأطلسية والجنوب الغربي من فرنسا.

(5) Haus Hohenzollern من أهم الأسر الحاكمة في ألمانيا.

(6) برقية «إمس» (إمس هو نهر في شمال غرب ألمانيا) هي إنذار رسمي واستفزازي بروسي تجاه فرنسا، وهو سبب الحرب الفرنسية الألمانية في 1870. إذ ان ترشيح الأمير =

الديك الغالي[1]. في باريس كانوا يصرخون «إلى برلين!» وعزفت الموسيقى النشيد الوطني، الذي تردد في الطرقات والمسارح والمقاهي – الملاهي في الجزائر. ودفعة واحدة، وضعت خطة التحرك موضوع التنفيذ، وباتت السفن جاهزة عند المرفأ.

الزواويون سيكونون أول المبحرين.

«ثم، أنت تعرف، سيدي النقيب، بالنسبة إلى زوجتك، لا تكن قلقاً. سنسهر عليها».

مستشار بلدي، كان يمر بين المقاعد، ويرفع نخبه مع الضباط الحاملين كؤوس البنش والجعة والعرب الحاملين كؤوس الليموناضة. تعرف النقيب غرييه إلى صاحب مقهى باريس إسبوزيتو المرح. وجه أحمر تحت رأس مرقط ببعض الشعر الأشيب عند الصدغين.

فكرة مغادرة مارغريت، ما كانت لتحزن هكتور لولا هذه السرعة المباغتة. الفتاة الأجمل في العالم، أليس كذلك، عندما تنام معها منذ عشر سنوات، أليس كذلك، حتى لو بدأ ذلك بإعصار، فإن الإحساس يتبلد مع

= الألماني ليوبان هوهنتزولرن لوراثة عرش إسبانيا الذي كان شاعراً، أثار اعتراض فرنسا، سحب بعدها الأمير الألماني ترشيحه. وعندما طلبت فرنسا تأكيداً لذلك في مدينة باد إمس (التي يمر فيها نهر إمس) رد غيوم ملك بروسيا بترو وأكد على الانسحاب مع إضافة كلمة «ليس لديه اي كلام آخر يضيفه للسفير». وأرسل البلاغ لبسمارك (المستشار الأول للرايخ الألماني والذي كان ذات تاثير كبير والذي شغل منصب رئيس ووزراء بروسيا من سنة 1862 حتى سنة 1890) الذي كان مدركاً لقوة بروسيا وراغباً بتوحيد ألمانيا، فأعاد كتابة البلاغ على طريقته بشكل أكثر قسوة وكان يريد بذلك «إثارة الثور الفرنسي» كما كان يقول. أرسل البلاغ للسفراء الألمان والذي نقلوه بدورهم إلى الصحف الالمانية والفرنسية التي بدورها أيضاً بدلت في نص البلاغ ليصبح أكثر تحقيراً وعندها اكتشف الفرنسيون البلاغ بصورته النهائية في الصحف كانت الحرب الفرنسية البروسية.

(1) Coq gaulois أي الديك الغالي وهو رمز فرنسا.

العادة. على الرغم من الغياب المستمر والقفز في الجبال وحرق المشتى وأحياناً... دائماً المرأة نفسها عندما تعود إلى منزلك وهذا يعطيك بعض الإحساس بالاستقرار. مارغريت تبدو أنها ما زالت مغرومة، ولكنه نوع من خرخرة يومية لقطةٍ لا تعرف أنها سعيدة من دون ضرب أو تعنيف.

لقد جاءت الحرب في وقتها.

من هنا، يمكن الافتراض أن مارغريت ستترك لآل إسبوزيتو أن يتقربوا منها. عندما يترك الضباط في البليدة زهوراً مثلها، سيفرح الرجال لرؤية الزواويين يلتحقون بالمارشال بازين وجيش الرين. «نعم، يا فتى تمتع. الحرب، نحن نعرف ماذا تعني بالنسبة إليك. يمكنك أن تتقشف...».

«أنت محظوظ»، أضاف إسبوزيتو.

في البداية، اعتقد النقيب غربيه، وبسذاجةٍ أن إسبوزيتو يتحدث عن الحرب، من غير أن يكون أكيداً. الحظ بامتلاك امرأة كمرغاريت، إلى جانب كل هاتي الزوجات السمينات لكبار الضباط والمستوطنين.

2

«حسناً، غربيه، تبدو شارداً...».

ما زال قائد الكتيبة يدور رافعاً نخبه. رجل هزيل نحيل وبالأحرى رقيق حذر وحزين، يحسبه المرء متزوجاً من أخته أو نسيبته، امرأة أنيقة جافة. أنهى فترة قيادته بتقدير القيادة العامة. ولكنه ليس بأي شكل قائداً عظيماً. وخلال ثلاثة شهور عليه أن يخلي المكان لشخص آخر، وها هي المجازفات تبدأ. لا تهاون معه أبداً، وأيضاً لا أسرار بالتأكيد. محافظ بالكامل على صرامة وغموض. لكن فجأة يضيء وجهه ويبدأ بالتبسّم. إنه

البنش ربما، هو الذي لا يشرب؟ فهذا الحرّ الذي يهب من الجبل والنشيد الوطني الذي ما زالت آلاته النحاسية والصنجية تطن في الأذن يمكن أن يولدا شعوراً خفيفاً بالثمالة. والنقيب غربيه ماذا يفعل هنا واقفاً مع كأس روم خفيف ودافئ استقرت في قعره قشرة ليمون؟ كأس بين يدين كيديه، ماذا يشبه؟

بماذا كان يفكر، قائد الكتيبة؟ إن أجابه النقيب هكتور غربيه بأنه رأى هذا القوي إسبوزيتو يداعب مارغريت ويقبلها في عنقها؟ آه الخيال. إنه لغباء. لا. ليس هذا. مارغريت عند أمها في بوفاريك، هناك أيضاً موقع عسكري لرماة أفريقيا الذائعي الصيت ببذاءتهم. وعندما يعلمون أن امرأة بهذا الجمال تشعر بالضجر، سيبتكرون ما يمكن أن يسليها. يدعونها إلى قداس مخيم أرلون، وفي هذه الأثناء... هيا، يا إلهي! «فلننطلق، فلننطلق» حياة جديدة تبدأ. ما يجب الأسف عليه، هو أن رجلاً مثل المارشال سانت – أرنو ما عاد هنا... لكان أظهر قدراته.

اقترب الضباط من رتبة ملازم أول من قائد الكتيبة.

«بالطبع، هذا سيغيرنا. شكل آخر من المعارك. أسهل، أصعب؟ سنرى. الغريم هنا... علينا مراجعة الكثير من التعليمات».

كان بالطبع يسخر من المعركة إذ يتكلم عنها بهذا البرود. في النهاية، إن شعر أنه ليس قادراً على المهمة، أو إذا تبين أن البروسيين يصعب القضاء عليهم، هل كان ليعقد صفقة ويرتضي بقيادة عامة لشعبة. إنها الكفاءات؟ أليس كذلك؟

«هل تعتقد، سيدي القائد؟ مع سلاح كهذا، لدينا...».

لقد قلبت بندقية الشاسبو[1] التكتيكات. فقد وضعت في الخدمة منذ عامين وتم تصنيعها في المصنع الوطني لسانت- إتيان بإيقاع رمي فَتَن كل الكتائب. انتهوا من تلقيم البندقية بالمدفع: الشاسبو باتت تلقّم كالقطع الجديدة للرماية. بعد التصويب يفتح المغلاق، وتسحب صنارة معقوفة العلبة الفارغة، قاذف يدفعها، وتدخل خرطوشة جديدة ويصوبون من جديد. خمس طلقات في الدقيقة، في حين أنه كان عليهم سابقاً أن يقوموا بألعاب بهلوانية من أجل طلقة واحدة. ومن دون حراك، وحتى من دون لمس السلاح تتضاعف القوة خمس مرات. المساوئ: هو أنها تتعطل.

تغطي الموسيقى في هذه اللحظات على صوت استعراض الزواويين، ما عاد بالإمكان سماع بعضهم بعض. بد الجمع مهتاجاً. في كل المدينة يتردد قرع طبول كبيرة ونغمات أبواق مرحة. ما عاد ضرورياً أن يفكروا. تقدم الضباط الشباب، حاملين الكؤوس، غامزين نقيبهم مقدمين التحية بخبط أرجلهم:

صرخة ندا- ا- ء من الأم الأر- ر- ض

من الشمال تطير لتتحدى الصعاب

بان، بان، العربي[2]

بنات آوى من هنا، من الهضاب..

سيهاجمونهم من الخلف، البروسيون! فهم متحمسون إلى درجة أنهم لا يطيقون كونهم ما زالوا هنا تحت أشجار الدلب. يجب الانتظار حتى يوم غد بعد الظهر، للصعود في القطار مع البغال وكل العدة. في مدينة

(1) Chassepot هي بندقية وضعت في الخدمة في العام 1866 وتحديداً خلال الحرب البروسية - الفرنسية في 1870.

(2) Arbi وهم من يقصد بهم الفرنسيون عرب شمال أفريقيا

الجزائر، المحطة حالياً هي عند رصيف الميناء، عند نهاية الأرصفة وبولفار الإمبراطورة: لن يلزمهم اجتياز أكثر من خمسين متراً لصعود السفينة. السفينة ستقلع المساء نفسه إلى مرسيليا. ومن هناك القطار إلى ميتز[1]. من يدري؟ ربما أبعد من ذلك، لو تقدم بازين[2] باتجاه ماييس، بين الموزيل والرين...

المؤكد أن الحرب بدأت وسيشارك فيها بروسيون وعرب. هل سيعود ربما الجنرال دو رواي إلى الخدمة؟ من المفترض أن زوجته منعته من أن يشيخ. وعلى الرغم من ذلك، فإن السيدة دو رواي وفي كل رسائلها إلى مارغريت، تخبرها بأن الرحلات بين زُورِغ وباريس تتعبه. فهي لا تفكر سوى بالعودة إلى البليدة: «أنتِ أغلى ما لديّ...» وفي كل مرة تخبرها بالوضع الصحيّ لزوجها. في عيد الميلاد يرسل النقيب أمنياته لكن الجنرال لا يرد ولو بكلمة صغيرة في ختام رسائل زوجته. «الجنرال تأثر بكلمات النقيب، وهو يشكره من كل قلبه ويشجعه على المقاومة بكل قواه عقلية الاستسهال التي تتحكم بقيادات الجيش في أفريقيا...»، كانت تكتب السيدة دو رواي مع الكثير من الانحناءات[3] الحادة. وتضيف أنه مستبعداً بالكامل أسفه على ما قام به، لا يتوقف عن تهنئة نفسه بترك صفوف الجيش. هذا التحدي هو جزء من طبعه، ولكن معه كل شيء ممكن. ويمكن

(1) Metz مدينة شمال شرق فرنسا، عند الحدود مع بلجيكا.

(2) Bazaine مارشال فرنسي (1811 - 1888). خدم في الجزئر وإسبانيا والقرم والمكسيك ولكنه اشتهر خاصة بقيادته جيش الرين ومشاركته في هزيمة الفرنسيين خلال الحرب الفرنسية الألمانية في 1870.

(3) هناك ما يعرف بالفرنسية بالـ jambage وهو الكتابة بطريقة تجعل للحروف سيقاناً او عواميد، ويكون الخط فيها عامودياً مائلاً بعض الشيء إلى اليمين، وذلك بقصد تقديم النص بشكل أجمل وأكثر فخامة

للحرب أن تقدم له فرصة الانتقام. من يعلم؟ عصا مارشال...

كان النقيب يراقب ببعض الشفقة أكبر الملازمين سناً وهو يلقي خطابه الطويل. وعندما ابتعد قائد الكتيبة، أفرج الضباط عن أوهامهم. يا لهذا الكم من الحماقات! وماذا لو اندلعت ثورة خلال مشاركة الزواويين في حرب بروسيا؟ حسناً، ستكون الفرصة المناسبة لتلقين المستوطنين درساً، فهم لا يتوقفون عن المطالبة بنواب وحكام مدنيين. آه، هل تريدون الفلاحين ليحكمونكم؟ إذن تدبروا أمركم. سوف نرى هؤلاء الثرثارين يركعون أمام العسكريين، يتوسلونهم كي يتولوا الدفاع عنهم، لأن ميليشياتهم لو شئنا وصفهم: زمرة من الرجال البيتوتيين على شاكلة إسبوزيتو، ليسوا أقوياء سوى في الزعيق واستلال السيوف الاحتفالية. مع كتيبة من الزواويين وأربعة رشاشات، يمكن للنقيب غربيه الإمساك بالجزائر كلها وحده. سنراهم ينتحرون، «البيكو!».

من أين يأتيه كل هذا الفرح المتوحش عندما يفرغ الجبل، وتحترق البيوت الفقيرة وتهرب مذعورة قطعان الماعز والثيران المسكينة؟ لو علم بذلك الجنرال الطيب دو رواي... لقد عوض النقيب مع العرب مغامراته العاطفية القديمة التي كان قد توقف عنها مع الزواج إذ كان عليه أن يدفع حينها ثمن عفته. لا مزيد من معارك الزمالة[1] لا مزيد من مداعبة أثداء لا يعرفها وهو يتأمل أضواء السفن عند المرفأ: «سنذهب إلى بيتي، فمنظر الخليج من هناك رائع جداً»، بالطبع! كم مرة لو أراد لحظي بفرصة اللهو في المرابط مع الشابات البربريات؟ كم كنّ يشعرنه بالقرف

(1) الزمالة: دوار تابع لدائرة برج الغدير في ولاية الجزائر ومعركة الزمالة هي المعركة التي خاضها االفرنسيون ضد الجزائريين للقضاء على مقاومة الأمير عبد القادر.

حينها هاتي القردة! ثم، شيئاً فشيئاً، بدأ يراهنّ في الجبل بطريقة أخرى: شهوة المحارب، سلوك المنتصر شبه العطوف. حدث ذلك في المرة الأولى بشكل عادي جداً. هذه الفتاة الممددة في الكوخ، نصف المصعوقة، أراد بالأحرى أن يحميها. كلب شارد، ماذا... من الأفضل أن يفعلها هو من أن يفعلها أحد الجنود المتوحشين الذي قتله لاحقاً حتى يحتفظ بصمته. ففي الشمال، كانت السلطات العسكرية في بوفاريك ما زالت تشتري آذان المتمردين بعشرة فرنكات للزوج، وكان الرماة يعودون برؤوس البدو فوق أسرجتهم، كما في زمن قائد إرلُن[1]. لقد استملحوا ذلك. لا أهمية لهؤلاء النساء، فلن يكن مداناً عند اعترافه أمام الكاهن بأنه ضاجع جزائرية: إنها مثل شوربة مبهّرة يتناولونها على طريقهم وهم مارون. هؤلاء النساء الشهوانيات لم تكنّ مؤهلات. فبهار الاغتصاب والقذارة التي امتلأت بها الأحياء الفقيرة، ينبغي تذوقه، ولكن حذار من الحشرات الطفيلية التي تتكاثر بسرعة، إذ يتطلب التخلص منها أسابيع كاملة. عند وصوله إلى المنزل، حمام على الطريقة الإنكليزية في حوض غسيل مع غلي لكل ثيابه. ومع كل هذه التدابير الوقائية، مراهم مبيدة للحشرات... إذن، ربما أن هاتي النسوة لا تقدم له شيئاً، ولكنه سيطر عليهن جنسياً، لحد أن تقليداً درج بين عصابته: ينتقون له الأجمل، ويعرضونها له، لا بل يكادون يقدمونها له على طبق. بعد هذا، يشعر بنفسه خفيفاً، نبيلاً. للعصابة حسنات. يتركون برضاهم الشيوخ والأطفال يهربون إذ لم يكن يحب هذه السلع. بالطبع كانوا يضرمون النار ومع ذلك لم يقترفوا المجازر من دون رحمة ولم يطلقوا النار انتقاماً على راع. لقد كان للمتعة

(1) Erlon منطقة في مقاطعة إيسن الفرنسية.

مكان كبير في حساباتهم وربما أنه بات للنقيب ذرية في الجبل. لقد كان بعضهم محقاً بتسمية الزواويين ببنات آوى. فخلال جيل، ستتشكل من البليدة سلالة من الأطفال غير الشرعيين، وسيكونون هم تلك الصلة التي ستتشكل مع المستوطنين!

وقع نظره على إسبوزيتو وهو يتباهى على الجانب الآخر من الطاولة. ونظراً لكونه مستشاراً بلدياً، كان عليه أن يقدم البنش الفاخر. عليه أن يضع خطط تبادل المساعدات بين الزوجات. لماذا ليس أيضاً بين الأرامل؟ مارغريت إلى المزرعة، بسرعة! وماذا لو لم ير مارغريت من جديد؟ الأطفال ننجبهم وننجبهم مرة أخرى، لا شيء أكثر سهولة من ذلك. فخيار الملك[1] يكفيهما: ألكسندر، الذي سيبلغ العاشرة، وسابين الثمانية، غسقونية[2] حقيقية مثل أبيها. حتى الآن، وفي كل مرة كان يعود فيها، يجد مارغريت هنا، ممدة بجسدها الطويل ووجهها المشتعل رغبة، وأحيأنا ملامح قريبة من الحزن لأيام عديدة. هيا حاول أن تفهم مما تعانيه المرأة... لن يخبر على أية حال أصدقاءه الضباط بأنه حزين لأنه مشتاق لمارغريت؟ الوطن، الأصدقاء، الفوج، بعض وجبات دسمة، هذا حسناً. ولكن ليس الحب. رجل يحب امرأته، ويحكي عنها طوال اليوم ويكتب لها الرسائل، إنه لأمر مضحك.

في البداية، أبلغ أوامره للملازم أول، بطريقة خشنة، فمراجعة الاستعدادات للحرب ستكون عند الرابعة بعد الظهر. أراد ان يرى الزواويين مصقولين من رأسهم حتى أقدمهم ومقصوصي الشعر. الحقيبة

(1) «خيار الملك» تستعمل للإشارة إلى إنجاب الزوج لولدين فتاة وصبي.

(2) Gasconne هي سلالة بقر فرنسي.

المحشوة بثلاثين كيلو، المعطف العسكري ملفوفاً مع الغطاء، جعبة الأدوات العسكرية منظفة، المطرة ممتلئة ماءً، الفرشاة والملعقة مثبتتان على شكل صليب، في عروة الجعبة، حزام الخرطوش مكتملاً، الشاسبو مشحّماً، الحذاء ملمّعاً والحزام الأزرق مع البزة.

«يجب أن يكون ذلك لافتاً، لامعاً، براقاً!».

وإذ به يشعر بغثيان غامض مفاجئ، فيتسلل بين الحشود ويذهب من دون أن يلقي التحية على أحد، حاملاً سيفه بيده اليسرى، من تحت مقبضه. الشمس قوية منخفضة. جعل يهرول باتجاه بيته، وارتقى الدرج الذي يؤدي إلى شقته بخطوات كبيرة، كأنه يقتحمه.

«مارغريت!...»

ظهرت وقد بدا محياها القلق. الولدان ليسا في المنزل، ولكنهما لن يتأخرا بالعودة. عانق زوجته وراح يقبلها حتى كادت تختنق. «حسناً، حسنا!...» فكرت. ماذا جرى له؟ تفوح منه رائحة الرّم ولكن هذا أمر آخر. حتى عندما يعود مليئاً برائحة الدخان وبنفس منتن، لم يكن يبدو متحرقاً إلى هذا الحد. ستروضه الحرب. كم ستبقى مارغريت من دون رؤيته، تنتظره، تبحث في السرير عن جسد يضمها؟ من يعلم؟ قد تحصل تسوية بين حكومتي البلدين؟ فقد يتنازل البروسيون، فيلغون انطلاق الزواويين. كان قلبها يخفق بقوة، ولم تكن قادرة على الكلام بفمه المطبق على فمها. الحرب، يا إلهي...

رفعها وحملها إلى غرفتهما.

الفصل الثاني

بعد شهرين، تعود ماري ألدبرام إلى المزرعة مع مارغريت والولدين، لتجد زوجها يجلس حالماً أمام الموقد. هذا الأحد يصل خبر النكبة.

1

كلاك، كلوك، كلاك، كلوك... الوقع الرتيب لحوافر الجياد يسبب الخدر. لقد أعيد تعبيد طريق الجزائر مباشرة قبل بداية الحرب. وما عاد هناك حفر ولا غبار والعربة موثقة جيداً بالجياد. فقد كان بإمكانهم أن يتركوا أنفسهم يتهدهدون لولا هذين الولدين اللذين لم يتوقفا عن التدافع. المدرسة لن تبدأ إلا بعد ثلاثة أسابيع. فمنذ أن انتقلت مارغريت للعيش في بوفاريك، وهما يشكلان عصابةً مشاكسة عدوانية، وألكسندر، الولد الأكثر شيطنة، الذي جلس في المقدمة يبدو مكبوتاً بين أنطوان الذي يقود العربة وبين أمه...

شعرت مارغريت، للحظة، بأنها استعادت عاداتها كشابة. مرّ الوقت. غرفتها القديمة، رغبت لايتيتا بقوة أن تتقاسمها معها، ويمكن القول أن تتركها تحتلها، لأنه مع الأولاد، ماذا يبقى من حميمية الماضي؟ بيار انتقل بعد زواجه من دولوريس، أنطوان كبر وغدا رجلاً، ومارجول بدأ يتضاءل. لا، المزرعة ليست هي نفسها التي كانت منذ عشر سنوات. ما عادت تتنزه مع أمها في المساء متحدّثتين عن الحب.

يجب فحص حوافر الحصان، قالت ماري ألدبرام، هناك واحدة...

نعم، قال أنطوان، سمعت.

كان في وسع الحداد أن يبدلها خلال القداس أو كان بإمكانهم تغيير الحصان من عند بيار الذي سيعود في وقت لاحق، بعد انتهائه من لعب الورق في المقهى. سيكون عليهم العودة غداً إلى القرية. مارجول كانوا ليحسبونه في عمر ابنه أنطوان. ماري ألدبرام تقول إنها لم تره يوماً بهذا الشباب. احتفظ بهذه الرقبة الناعمة الملمس، مع التجاعيد التي حفرتها سنيه الطويلة. ما يصبح عليه المرء... على الرغم من سنواته الخمس والسبعين، بقي مارجول فتياً، لاذعاً، شرساً. لقد شاخ كما يشيخ الخشب. في حين هي... مأساة النساء. مارغريت، لا تتخيلها والدتها تخسر جمال كتفيها العاريتين وصدرها البهي وقامتها تحت فستانها الكتان الأبيض. أكانت لتشكّ أن لهذا التألق نهاية؟ «آه صغيرتي، عندما أعتقد أن دورك سيحين، وأن الأيام ستحفر التجاعيد على وجهك، كلَ يومٍ تجعيدة، ومثلها الدموع، وأن جلدك سيصبح رقيقاً مليئاً بالنتوءات، كمياه عكر صفوها الهواء، وأن فمك سيرّق وسوف تهبط وجنتاك ويصبح أنفك كمنقار صقر، مثلي أنا، توخزين عند العناق، ولا يبقى من عينيك سوى أنهما علبة ذكريات، ستبقين انتصاري الأبدي، صور عشقي، كما عشتها وأكثر...» بالنسبة إلى ماري ألدبرام لكل شيء نهاية. كل هذا، يا إلهي، مرّ مثل لمع البرق، منذ ذلك الصباح الخريفي عندما ضاجعها مارجول على كتف الغابة. حصل ذلك بالأمس، مع نديف الثلج عند قفا المنحدرات، كما أنها تتذكر صوت العصافير.

ذلك هو الماضي. المستقبل، حمله أنطوان إلى المزرعة، مربتاً الحصان بضربات السوط ما بين الفخذين. مع الأولاد، نشعر ببعض الاستمرارية.

من قداس الأحد العشرين هذا بعد عيد العنصرة، لا تتذكر سوى كلام الكتاب المقدّس الذي بدأ به الكاهن: ذهب قائد جند لدى الملك لمقابلة المسيح. «سيدي، تعال معي، ابني ينازع». فأجابه المسيح: «اذهب، فقد شفي ابنك» وكان ذلك صحيحاً. منذ أشهر يتحدثون عن التجنيد الإلزامي للفرنسيين في الجزائر. ألا يكفي إذن إرسال ضابطٍ من العائلة إلى الحرب؟ فالجميع جنود؟ الرحمة. ما زال بالإمكان رؤية الكثير من الجنود في القداديس. شبان، رجال في الثلاثين ما زالوا يتسكعون. على هؤلاء أن يغادروا قبل أن يأتي دور أنطوان وينتزعوه منها. وكل ما يقولونه هو أن الإمبراطور، يرافقه الأمير الإمبراطوري[1]، وصلا إلى سيدان[2]، وبأنه سيجندون جيشاً من مائة ألف من القبيليين[3] الذين سيلبسونهم فقط البرانس، وحتى أنهم سيكونون حفاةً، سيذهبون ليأكلوا طعام البروسيين عند خطوطهم، وسيبنون هرماً بالرؤوس التي سيعودون بها.

أبطأ الحصان سيره، على طريق سيدي عياد.

كم أنه حارٌّ شهر سبتمبر هذا! أم أنها الحرب التي تحرق كل شيء؟ ولا حتى نسمة هواء واحدة، وعند الجبل، موجة ضباب تنذر بريح شرقية حارة. ماري ألدبرام قالت لدولوريس إنها صلت لأجلها. فهذه الفتاة تحمل دائماً ذنب ولادتها في جزر البليار[4] وهي من تقوم بكل أعمال السخرة. على مارغريت أن تذهب إلى القداس: بما أن زوجها مع المارشال

(1) ويقصد بهذه التسمية تحديداً في فرنسا، الابن الوحيد لنابوليون الثالث من زوجته الإمبراطورة أوجيني واسمة لويس نابوليون، وأحياناً كان يسمى بنابوليون الرابع.

(2) Sedanid مقاطعة فرنسية، قريبة من الحدود مع بلجيكا.

(3) القبيليون هم سكان المنطقة الجبلية في الجزائر.

(4) جزر البَلِيَار (وكانت تعرف أيام الحكم العربي للأندلس باسم الجزائر الشرقية) هي جزر تقع في جنوب شرقي إسبانيا في البحر الأبيض المتوسط.

ماك– ماهون، أليس كذلك؟ وبيار، زوج الإسبانية، التقى أصدقاء له خلال تناوله كأس أفسنتين في بوفاريك. مارغريت تمقت دولوريس، هذه الفضولية، ولا تخفي مشاعرها تلك. ما العمل؟ من دون دولوريس، المنزل، خاصة وأن الأم الآن باتت تتعب... لا يجب الاعتماد على لاتيتيا، كسولة كصرّار الليل. آه، من سيتزوجها لن يكون خاسراً. رقيقة، شديدة الحساسية، ولكنها لا تملك أي حس في المطبخ أو شغل المنزل. في الخياطة والتطريز والقراءة والنقاشات نعم: يلزمها رجل ليس بشهية أنطوان ومارجول. فيا لشهية مارجول على الرغم من سنه! وخاصة مع رجل نزق مثله. في بعض الأيام لا يأكل شيئاً، في أيام أخرى...

لماذا لم يظهر عند وصول العربة؟ فقد تكون ماري ألدبرام محملةً بأخبار جديدة.

وجدته ماري جالساً أمام المدفأة تحت الصليب المعلق في أعلاها، مديراً ظهره للطاولة، مشعلاً غليونه.

«ها، مارجول، بمَ تفكر؟»

رمقها سريعاً، وبحنان غامض وحزين، معطوف على لا مبالاة كبيرة؛ نوع من البعد المتعالي. ومذاك لم يترك المزرعة، يمضي وقته شارداً بملامح ساخرةٍ أحياناً. لمَ الذهاب إلى القرية؟ فالناس الذين سيرغبون برؤيته سيسبب لهم الإزعاج. الآخرون... أمسك عصاه المصنوعة من غصن زيتون وصفر للكلبة زهرة التي وصلت واللعاب يسيل من فمها، تقدم حتى أشجار القصب وهو يتحدث مع كلبه الضخم ويتأمل السهل ملقياً نظرة سريعة باتجاه سيدي موسى، كأنه قادر على رؤية قرميد آل باري الأحمر، ثم استدار ومشى باتجاه شجرة الحور، وبقي متسمّراً أمام

الشجرة بجذعها السميك المهشم بالندوب، ينظر إليها وهو يشع قوة وشغفاً، يقيسها ويعاينها. لا شيء أكثر روعة من خشب الحور، وهذه القوة التي عرفت كيف تواجه كل شيء وتتحدى السنين والعواصف، والجفاف أيضاً بفضل الآبار! ثم مر بالقرب من كوخ محمد، ونادى عائشة وتبادل معها السلام. ولكن عن بعد، لأنه رغم كل هذه السنين، ما زال محرماً عليه الدخول إلى منازل العرب. فعائشة تزورهم في منزلهم أما هم فلا. هكذا تجري الأمور.

«بماذا أفكر؟ بالشتاء».

يا له من رجل غريب! إنه حقاً يعاني في الصيف، ولا يستفيق إلا إذا شعر ببعض ملامح الشتاء في متيجة. ولكن ماذا، دائماً كانت الأمطار في مثل هذا الوقت عواصف وأعاصير مصحوبة بالأمطار، ما عدا المرات النادرة التي يسقط فيها الثلج ليذوب مباشرة، ما عدا فوق رؤوس الجبال حيث يبقى لأيام وأيام، لامعاً تحت الشمس التي تعاود الشروق. بالنسبة لألدبرام، لم تفتقد الشتاء لهذه الدرجة. أما مارجول فهذا ما كان تواقاً له. سماء مكفهرة، طرقات مقفلة، بيوت مكسوة حتى السقوف، الجبل المذرّى، المقطّن، المتفتّح، المدفون تحت الثلج، الغابات المتجمدة في الصمت والبياض، الغيوم الواطئة المتكورة في العتمة، وديان دفنت أشجارها، نتوءات صخرية سوداء، ألواح من الجليد بتصدعاتها وبريقها، أجمات النفل القاسي، جياد لم تعد إلى المزارع، تضجرها المروج الميتة، واقفة على قوائمها المشعرة، تشتم بقوة العشب المغمور. ولكن خاصة أثار الأقدام. في الأوقات العادية، قد نعتقد الغابة مقفرة. يكفي عصفة ثلج، لكي تترك كل الحيوانات التي تسكن الغابة آثارها: حوافر أنثى الظبي، قوائم ثعالب،

مخالب فئران الغابات أسفل شجرة البندق، قفزات أرانب أو سناجب. يسمع صرير نعله على الثلج المذرى، يغرز يديه، يفرك به وجهه ثم يعبّ منه. أميرٌ، وحده. كل هذا ملك له. من أعلى قمةٍ، ينظر إلى الثلج المهيمن على كل شيء، هذا المزار الملوكي، هذا الأسطول من المراكب الذاهبة إلى الأبدية يعلوه عند الظهر ضجيج الأجراس المصحوبة بصوت البرونز المكتوم كصوت المدافع. تخيلات وأفكار جريئة ما كانت لتخطر على البال عند العودة، عندما يشتم في القرية رائحة النساء. لا شتاء أبداً هنا، إلا بعض النفحات التي قد يحملها أحد المساءات، والتي تهب في السهل، هذه الرطوبة التي تجعل المرء يرتجف. إذن يغلق على نفسه، يشعل النار في المدفأة، ينظر إلى الخشب الذي يشتعل ويحركه بحذر، لأن الخشب هنا يشتعل بسرعة، بلا جمر، بلا ذلك التنوع في ألوان اللهب الذي للخشب هناك، بلا ذلك الدخان، بلا إلتماعات وفخامة روح الخشب. غير أن الشتاء هناك، لم يكن بهذا الجمال، تذكر يا مارجول. الشتاء، يحرم دائماً ماري ألدبرام من النوم بالقرب من زوجها. حرارة تشع من هذه الجثة الضخمة المددة في العتمة، بكل آلامها وتوهجها المتوحش.

والخريف؟ لا خريف، ما عدا في المستنقع مع وصول الطيور المهاجرة وعندما ترديها طلقات النار، يأتون يقلبون صدورها الغضة عابثين بريشها.

«هذه الحرب»، فكر مارجول، «إنه دوركم، أيها الفتية». هكتور سيعود بعد ستة شهور، أكثر عجرفة من أي وقت مضى، مع إشارة كبار الضباط أو اثنتين إضافيتين. لديه كل ما يلزمه ليصل إلى رتبة جنرال. ليس من صنف رواي على أية حال... هؤلاء الناس، عندما نتوقف عن ضرب

التحية لهم، ينتهون. تراهم يضمحلون ثم يغرقون في الموت. هم بحاجة إلى أن يحكموا. مارغريت، السيدة دو رواي؟ هذا إذن...

النساء، لقد أقلع عنهن. في النهاية، تقريباً. ماري ألدبرام تعرف ذلك. في العمق، لطالما أضجرته النساء، ما عدا واحدة، اخترقت قلبه كنصلٍ، امتلكته وبسطت سلطتها عليه. نصف قرنٍ بعد مراسم الزفاف في الجبل، يجتمعان كل مساءٍ، يضطجعان بالقرب من واحدهما الآخر، بصمت، كل مع أفكاره التي من الأفضل أن يحتفظ بها لنفسه. يضطجعان، ليس لديهما ما يحكيانه، وبذلك، فما توقف الحب عن ضخّه، يجعله الصمت يحلق فوق رأسيهما.

رجل وامرأة في القبر، كأولئك الذين نراهم في الكاتدرائيات، منحوتان في الصخر في شواهد القبور، سيف يفصل بينهما، يد الرجل على السيف، ويد المرأة على يد الرجل، يواصلان حديثهما الذي لا يمكن لأحد أن يقطعه أو يفسده.

نعم، لقد هجرته النسوة والنجوم، على الرغم من نظراته الغريبة السريعة لابنة محمد أو دولوريس أو استسلامه لنكاتٍ من النوع المريب. أوه، في النهاية لم يرتكب شيئاً فظيعاً! في المناسبات الكبرى، عندما يكون كئيباً ويكون هناك الكثير من الزوار، يلعب دور المصور كما يقول، على سبيل المزاح والتحرش. عندما لا يعرفونه ولا يرون عينيه تبرقان، من يمكنه أن يرتاب من هذا الجد الذي يلاعب أحفاده قفزاً على ركبتيه؟ يقول: «أريد أن أصوركم». يخرجون إلى الضوء، يتجمعون، ثم ينادي امرأة «تعالي هنا عزيزتي». يمسكها من كتفيها، يضعها في قبالة المجموعة، ثم فجأة، ينخفض ويحاول أن يندس تحت تنورتها، على طريقة المصورين تحت

الغطاء الأسود، خلف صناديق الفرجة. تهرب المرأة مقرقرةً بالضحك. يضحك الجميع. في زفاف ماري، الذي بكى فيه قليلاً، ثم بالغ في الشرب لكي ينسى، ولأنه لا يحب آل باري، أراد أن يقوم بمحاولة تصوير، لكن زوجته منعته. ليس في يوم كهذا، وليس أمام بناته. يجب أن يتماسك. وأيضاً عندما جلسوا إلى المائدة، سحب قميصه من تحت بنطاله، وجمعه، بكل سماته البريئة، بطرف منديل المائدة الذي يتدلى من عنقه، ومسح به فمه. وقد لاحظ حينئذ المجتمعون بما مسح فمه.

فانفجر الجميع بالضحك.

باستثناء هذه الحركات الهزلية، فقد انتهى في الواقع. ما الذي يمكن أن يصيبه أكثر من ذلك؟

بعد إعلان الحرب مباشرة، في العشرين من يوليو، وعندما بات معروفاً أن إنكلترا وروسيا وقفتا على الحياد، خرج ليتأمل شجر الحور، وعندما مرّ بالمنزل الذي كان قد بناه بيار في أرضهم المشتركة، دخل كالعادة، ليتحدث عن الطقس أو ليسأل إن كانت الدجاجات قد حصلت على حبوبها. لم يكن هناك أحد في غرفة الطعام. ها هو... يتقدم، يدفع باب المطبخ، وهنا كانت الصدمة التي سمّرته في مكانه. امرأة شابة، تدير ظهرها وتستحم، عارية بالكامل، من دون أي شيء في حوض استحمام وهي تدندن. دولوريس. الرائعة القوام مما ينسيك أن ردفيها واطئتين قليلاً. روعة. أطول مما كان يمكن تخيله. يمكنها أن تقتلك بطعنة في المعدة وتتركك بهذه الحالة. باحتشام، أقفل الباب، بصمت، وابتعد على رؤوس أصابعه، مشدوهاً، كما الخارج من كنيسةٍ لحظة القربان، ليجد في الخارج كلبته زهرة أمام الباب مقعية بهيئة غريبة.

كان ما يزال تحت الصدمة، لم يفه بشيء، إلاَ أنه بعد حين، بدأ يحدّث الكلبة: «قولي لي إذن، يا صديقتي، منذ متى لا تقفل النساء أبواب الحمام بالمفتاح عندما يكون الزوج في الجهة الأخرى من المزرعة؟ أسبق ورأيت ذلك؟ فأنا محظوظ لأن محمد لم يكن هنا ليتنبه لي... ثم إن الإسبانيات لا يتهاونّ مع هذه الأمور، إنهن بالأحرى بالغات الإحتشام. بيد أن راقصة النقيب دو رواي...». لقد أكد النقيب دو رواي بقوة أنه لم يضاجعها، لا يمكننا أن نعرف. كان على مارجول أن يسأل الجنرال في وقت لاحق. إنها انتصارات لا يخجل بها الرجال. لم يتجرأ. في النهاية، أن يضاجعها أو لا، فإن الآنسة جيناتي لم تخجل من الظهور بملابس الباليه أمام جيش بأكمله. يمكن لدولوريس أن تكون من هذا الصنف من النساء، بعينيها المنخفضتين دائماً، ومتحفظة دائماً في النقاشات، تتورّد خجلاً ما إن يعبر لها أحدهم عن بعض الحماسة تجاهها. براكين لا توحي بشيء، غير أنها تثور على حين غرّة، قاذفةً بحممها ونيرانها، وعليه هو أيضاً، لَمَ لا؟ من يدري، إن لم تكن، ومنذ أشهر، تنتظر فرصة دخوله لتتصنع المفأجاة. ولو صح ذلك، فقد بدا هنا ساذجاً. «في كل الأحوال، يا زهرة، ليس علينا أن نتوهم. دولوريس في الخامسة والعشرين، وأنا...».

والآن وفي محاولة لفهم ما جرى، يحاول مارجول مراقبة دولوريس. ولا إشارة انتباه، أو ابتسامة، ولا حركة. وأكثر من ذلك: فبالنسبة إليها، عمها ليس موجوداً. حول هذه النقطة، لا يمكننا القول إنها تدعي. فكرة حمقاء، كما في الأحلام. لقد هجرته النساء وهو شعور عاد يؤلمه.

«أنت تفكر في الشتاء، مارجول، وإنها الحرب التي...».

يفكر في الحرب أيضاً.

الحرب، بسيطة: عند أول سقوط في معركة غرافلوت[1]، فهم. لقد كانوا متيقنين من النصر لدرجة أنهم كانوا يناقشون في مجلس الوزراء إن كانوا سيطلقون مدافع مركز إينفاليد العسكري ويضيئون الأبنية العامة، ثم وعند إعلان الكارثة... جميعهم، خونة: بداية بالإمبراطور هذا الكهل، ثم لوبيف، بازين، ماك– ماهون، ما عدا ربما الجنرال تروشو. على أية حال جميعهم يفتقرون إلى الكفاءة. عندما قامت حملة الجزائر، كوّن فكرته عن كفاءة هؤلاء الرجال.

العرب؟ كانوا الأفضل، لو عرفوا كيف يكسبونهم. الأكثر كرامة. بعد معركة غرافلوت، عندما قال مارجول لمحمد، على سبيل الدعابة: «ربما سترحل إلى فرنسا، لتعمل عسكرياً مع ابنك». رد محمد بابتسامة: «إن شاء الله». في النهاية هما متفاهمان. لقد حملت لهم فرنسا ما يعتاشون منه. هل عانى محمد الجوع؟ بالتأكيد يمكن التساؤل حول نظرة محمد إلى هكتور الذي كان يضرم النار في الجبل. وألكسندر، ابن هكتور، هو أيضاً بالغ كثيراً عندما كان يلعب متخذاً أولاد محمد كجيادٍ، مع رسن وسوط في يده. يجب تهدئة ألكسندر، وإفهامه أن العرب ليسوا بهائم، ويحق لهم ببعض الاحترام، وأنه على الرغم من كونه ابن نقيب... بيد أن العرب أيضاً يردون على طريقتهم. عندما يلقي مسيحي عليهم السلام بلغتهم، يردون عليه أحياناً، وبدلاً من «وعليك السلام» بـ«وعليك السِّلام[2]»

---

(1) معركة غرافلوت (بالألمانية) أو معركة سانت بريفات كما يسميها الفرنسيون، التي قامت في العام 1870 في إطار الحرب الفرنسية البروسية، على بعد نحو العشرة كيلومترات من غرب مدينة متز التي تقع شمال شرق فرنسا.

(2) السِّلام (بكسر السين) هي الصّخر الجَلمد: الحجارة الصغيرة الصّلبة، التي تستطيع أن تحملها بيدك. والسُّلام (بضم السين) هو عرقٌ في ظاهر الكفّ.

أو «السُّلام»، أي عليك حجر جهنم لتتكسر به عظامك. فوحده من يصيخ السمع، يمكنه التقاط الفارق بين الكلمات. وقد تعلم مارجول هذه الصيغة، وبات يستعملها لغاياته الشخصية.

2

حسنا، ماذا يفعل هذا البليد الذي ينتظرونه على الطاولة منذ الثانية عشر ونصف؟ عندما رفعت دولوريس غطاء الطنجرة، عبقت الرائحة. في يونيو، يكون الطقس حاراً ولا يمكن توقع غير ذلك وأيضاً في يوليو وأغسطس، ولكن يهب دائماً هواء من الشرق عند الصباح ويختفي مساء، ينتشر في كامل السهل، يقيم في أشجار القصب، يستفز غناء الزيزان ويمر على أغصان شجر الحور، أما في سبتمبر... فالكثير من التعب والكآبة وشعور بالاختناق.

«يبدو أن هناك بعض النسائم، افتح النافذة يا أنطوان».

رأوه يصل، الحيوان. لم يضع في الطريق. على الرغم من هذا الحر، فهذا لا يمنع أن طماطم دولوريس المحشوة... أيها السعدان، بمَ تفكر؟ إنها تتقن الطبخ، هذه الإسبانية. موهبة خارقة: الأعشاب التي تضيفها ومقادير المحتويات والطريقة التي تعجن بها اللحمة المفرومة، لن تعرفوا كيف ولكنكم ستستمتعون. ماري ألدبرام ومارغريت تجيدان أيضاً تحضير أطباق طيبة، الكسكس الذي تعدّانه لذيذ جداً، لكن تبقى الطماطم المحشوة فخر دولوريس.

«ها هو»، صرخت لاتيتيا.

ألقى مارجول نظرة على العربة.

«غير معقول، لقد شرب حتى يتمكن من تدمير حصانٍ بهذا الشكل. هيا! هؤلاء الصبية الذين يتضورون جوعاً وما عدنا قادرين على ضبطهم. ضعي القدر على المائدة دولوريس».

دخل بيار مسرعاً كقذيفة، أقفل الباب وأسند إليه ظهره. ما الذي دهاه؟ هه، قل، إنهم يعانون من الحر، أترك لهم متنفساً. ماذا، هناك؟ بوجه شاحب وذقن نبتت كأنه لم يشذبها لدى الحلاق، منهك، أشبه ببومة مثبتة عند مصراع باب، مضمخاً بالعرق، متحلّلاً.

– ما بك؟ مريض؟

– .... رهيب.

رهيب، هذا ما يقولونه هنا عن كل ما لا يبدو جيداً، ولن يكون عليك سوى تمييز درجة هول الأشياء من طريقة لفظ الكلمة فقط. حريق، جراد، حصان يعرج، طفل لم يطع، مضخة توقفت عن العمل: كل هذا يُعدّ رهيباً. وهي أمور ليست رهيبة حقاً، ولكن هذه المرة....

– ماذا هناك، يا إلهي؟ سأل مارجول.

– سيدان[1]...

كانوا بعيدين جداً عن سيدان، حيث هكتور، ومن خلال رسالة بعثت إليه، التحق بجيش ماك – ماهون. أمن أخبار سيئة؟ ليس بعد. ما زال الوقت مبكراً جداً. وهذا الكلب المقيت الذي أثارته رائحة الطماطم،

(1) Sedan – معركة سيدان: معركة وقعت خلال الحرب الفرنسية البروسية بين الجيش البروسي والجيش الفرنسي في 1 سبتمبر 1870. أسفرت عن القاء القبض على الإمبراطور نابليون الثالث. كان الألمان دحروا الفرنسيين بعدة معارك فرعية صغيرة. بلغ قتلى الفرنسيين 1700 جندياً وأسر 82 ألف مع الإمبراطور. وتقدمت القوات الألمانية باتجاه باريس وحاصرتها. وأنهت هذه المعركة الإمبراطورية الثانية في فرنسا، ومهدت لقيام الاتحاد الألماني.

يشخر ويترك لعابه يسيل. دفعه مارجول بمرفقه.

– اقفل بوزك، زهرة.

– هناك أربعون ألف سجين في سيدان. كل جيش المارشال ماك – ماهون. الإمبرا...

تلعثم. يبدو أنه شرب كثيراً. على أية حال كل ما يقوله صحيح، لو تمكن من الكلام.

– الإمبراطور أيضاً.

– اعتقل؟ أهذا ما تريد قوله؟

هزّ رأسه موافقاً.

«وقد جرح المارشال. وهناك جنرال قتل. اتفاقية استسلام...».

مارغريت، الواقفة بيضاء مثل الثلج، جعلت تسخر من الجنرالات ولكن ليس من نقيبها... إن كان الجنرالات قد قتلوا وجرحوا وسجنوا...

– وفي باريس، الجمهورية. فيكتور...

– ماذا، فيكتور؟

– فيكتور هيغو، عاد منتصراً...

إنه لخبر جيد، هذا. ولكن لا، إنه ثمل. الجمهورية؟ سيكون أمراً رائعاً. فهذا صحيح، أن هذا النظام من الاستغلاليين والمتفاخرين لا يجلبون سوى المآسي. جاءوا إلى لاربعاء ليزرعوا شجرة الحرية، أية شجرة؟

– أين علمت بهذا؟

– في بوفاريك. هناك تجمعات في كل مكان. ورجال يصرخون: «إلى الجبهة!» ونساء ينتحبن.

تقدم. قال بصوت خفيض، لكي لا يسمع محمداً الذي كان يجول في

المكان، وكأن العرب لم يسمعوا بعد بالأنباء. هذه المرة، صمت الأولاد مذهولين. سيدان، لا تعني الشيء الكثير. تقع بالقرب من فرانش-كونتي. عائلة باري تعرفها ربما. أما دولوريس فكانت شاردة في طبقها من الطماطم الذي لم تسكبه بعد.

مد الشيخ طبقه.

«هذه هي حدود تأثرك بالمسألة يا مارجول؟».

ها، حسناً، لن نقتل أنفسنا لأنهم سجنوا الإمبراطور. سيد فيش – تونغ – كانغ كما يسمونه منذ الحرب مع الصينيين، خير خلاص! فليهلك أولئك المارشالات التفّه أنفسهم، لأنهم لم يعد أمامهم عرب. لقد كان جميلاً، جيش أفريقيا! فبالكاد بعد شهر من رحيل الزواويين، لتحل الهزيمة! هذا ما لا يصدق. سيقولون إنهم فوجئوا بعدوٍ مراوغ ولكن مهلاً! بيار يتكلم عن جنرال من وينبفن حلّ مكان ماك-ماهون. إنه يأتي أيضاً من الجزائر. استدعوه على وجه السرعة وعينوه قائداً. ليس سوى كلام وثرثرة، فقد عُلم لاحقاً أن البروسيين كانوا قد وصلوا إلى بوابة باريس، مدينة النور، مكة الاستخبارات.

أشارت ماري ألدبرام إلى دولوريس لسكب الطعام للأولاد، وهي تنظر إلى مارجول بينما يرطب الخبز بالصلصة ويفتك بالطماطم. هل كان أكثر ذكاءً من الباقين، أم أنه غير مكترث؟ الإستسلام، لا يمكن معرفة كل نتائجه، ولكن الكلمة تسحق بالعار. هناك كلمات، كهذه، تقتل، كلمات تشعر بها النساء أكثر من الرجال لأنها تصدعهن من رؤوسهن حتى أقدامهن بضربة فأس. أما مارجول، فلا يبدي أيّ عاطفة، إنه يأكل.

«اجلس بيار»، قال له.

دفع أنطوان طبقه. بدا شاحباً. نهض بغتة وأدار ظهره للمائدة. اقتربت منه أمه دون أن تتجرأ على لمسه. أدركت. ابنها البكر...

يا إلهي، يا إلهي، مستحيل. يعيشون هنا، فوق هذه الأرض الموعودة، تركوا الجبال حيث ولدوا جميعاً، ما عدا الأولاد ودولوريس. زرعوا أشجار الدلب والبرتقال هنا أيضاً، وباعوا القمح، لن يصبحوا يوماً أغنياء ولكنهم يملكون سماء رحبة، فتيات جميلات وأولاداً يمكن الاعتماد عليهم، بني، بني، ألن تذهب؟ وإلا لن يبقى سوى البؤس، وإن ضربت النساء كما تسحق الصاعقة الأشجار، فسوف يلسع الرجال بضربات سوط الكرامة الجارحة.

في مواجهة مارجول الذي كان يلوك طعامه، أسند بيار رأسه بين كفيه ناظراً في الفراغ.

كل هذا بسبب عرش إسبانيا، من أجل إمبراطور بالغ الطيبة، أو لأن هناك فريقاً متلهفاً للحرب ضجر على الرغم من حروب الجزائر وإيطاليا، الصين والمكسيك؟ بيار قال إنه في بوفاريك رجال يلوحون بأسلحتهم صارخين: «نريد أن نموت»... لو يتكلم أنطوان... الرجال خطرون عندما يصمتون. بما ينفع أن تكون أماً، أن تحب رجلاً عليها أن تزعق له وتذهب للقائه في الغابات وتنتظره وتصبح زوجته وتنجب له أبناء من كل قلبها وعليها أن تنام بقربه نصف قرن، رأسها على صدره، أن ترى عينيها في عيني مارغريت ورقّة مارجول في رقبة أنطوان؟

في الصمت، هبّت بعض النسائم على أشجار الدلب فاهتزت قليلاً مصاريع الأبواب والشبابيك. إنه وقت الريح الشرقية الجافة، بعاصفة تهب

أعلى بعد من قمة موزاية[1]. ضجيج أطباق مارجول والأولاد، ثم على سطح الحظيرة ضربات منقار اللقلاق. عادة في الخامس عشر من أغسطس، تعود اللقالق باتجاه الجنوب. ما زالت هنا، هذا العام. شدو الشحرور، متى إذن ستسمع ماري ألدبرام شدو الشحرور؟ ما زالت تتذكر تلك العصابة من المغامرين، الذين راقبوها في الغابة، مصفّرين لها، في ذلك اليوم الذي التقت فيه مارجول، حتى إنها اعتقدت أنهم يعلمون من أين أتت وأنهم رأوها شبه عارية تحت الأشجار وسخروا منها.

«هذه الطماطم»، قال مارجول وهو يطرطق بلسانه. «دولوريس...».

ظلت دولوريس واقفةً. كان اسم سيدان يوحي لها بشيءٍ ما عبري، ولكن كان يكفيها كي تفهم أن تنظر إلى وجه بيار ومارغريت، وأنطوان الذي يبدو وكأنه قد تأبط أساساً بندقية وحمل حقيبة على ظهره، أما الأم فمتجمدة مثل بياتا[2]. إنها إذن قضية شرفٍ وطني سيدفع الأبرياء ثمنها.

استدارت ماري ألدبرام، لكن مارغريت وكأنها لم ترها، بدت وكأنها أرادت ان تفتح لها ذراعيها. كل الأشياء تتضارب. الهزيمة، ماذا يعني ذلك؟ هكتور من دون قبعته العسكرية، برأسه المدمى، يمشي بين صفوف الألمان المسلحين؟ أنطوان يندفع إلى المعركة صارخاً مع كتائب جديدة من الزواويين؟ المستوطنون مهددون بالجوع بعد العرب؟ لا شيء، لا عودة للرجال، لا حفلات غداء عائلية، لا حب؟

أفلحت في النهاية بالجلوس بهدوء على الكرسي على رأس المائدة

(1) موزاية هي مدينة في دائرة البليدة الجزائرية.

(2) Pieta مصطلح فني من علم أيقونات الرسم الديني المسيحي، يمثل السيدة العذراء، تبكي ابنها وهي تحمله على ركبتيها.

حيث يمكنها رؤية الجميع، في مكانها المعتاد كأم. أمامها، ومن جهتي الطبق، وضعت يديها الطويلتين، التي تتلوى فيهما العروق تحت حرير جلدها المتعب.

التسلسل الزمني

قرنان من الزمن من الحكاية الفرنسية – الجزائرية

وضعه غوي دوغاس (جامعة باريس 12)

1770– يؤسس الأخوان ميشال كوهين ويعقوب بكري، مع يهودي جزائري هو نفتالي بوجناح الملقب ببوشناق، مؤسسة بكري أخوان وبوشناق.

1794– بأمل التجارة مع الجمهورية الفرنسية الفتية، أوصى داي الجزائر حسن باشا، وهو تحت وصاية العثمانيين، أمام مجلس الأمن الوطني، بيعقوب بكري كوكيل له.

1796– 1799 عبر وساطة مؤسسة بكري – بوشناق، قام الداي ببيع الحبوب إلى جيش بونابرت، خلال حملتي إيطاليا ومصر، وهي ديون لم يتم الوفاء بها يوماً.

1808– النقيب بوتين، الجاسوس الذي أرسله بونابرت إلى الجزائر، يضع خططاً سرية لإنزال مفترض على شبه جزيرة سيدي فرج واصفاً بالتفاصيل ضواحي مدينة الجزائر.

1826– الداي حسين الذي خلف الداي حسن، يتوجه إلى شارل العاشر ويطلب منه أن يسدد، من دون تمديد ولا تأخير، ديون فرنسا، التي وصلت مع لويس الثامن عشر إلى سبعة ملايين فرنك ذهبي.

1827– التاسع والعشرون من أبريل، وخلال محادثة غاضبة مع الداي، ادعى القنصل الفرنسي بأنه تلقى منه ثلاث ضربات بالمروحية.

هدد بترك مهامه إن لم تنتقم فرنسا له. في فرنسا، حيث بدت الحكومة مربكة، أدارت الصحافة القضية. شاعران مرسيليان، ماري وبارتيليمي، نشرا تحت عنوان «الباكرياد (من بكري) أو حرب الجزائر» قصيدة ملحمية ساخرة:

كل باريس تعلم أن الداي المتعجرف
صفع فرنسا على خدها الملوكي.
لترتفع كل الأصوات
من كل التراب الفرنسي مستنكرةً.
با ع البارونات أملاكهم القديمة،
وفي العروق عاد الدم القديم للصليبيين يغلي
وحمل كل شجاع في زنزانةٍ رايته،
الجميع غاضب والجميع يتسلح ولكن أحداً لا يذهب للحرب.

يونيو: أسطول حربي يرسو قبالة مدينة الجزائر طالباً من الداي الاعتذار والإعلان أن فرنسا سددت كامل ديونها! هذا الإنذار انتهى برفض حاسم ونهائي. فخضعت ولاية العرش في الجزائر إلى حصار بحري.

1830 - يونيو بعد فصول عديدة من سوء التفاهم والضغوط، وبعض الفرص الضائعة للتحاور، ينجح الفريق الداعي إلى الحرب في باريس.

14 يونيو: أسطول الأميرال دوبريه - برفقة وزير الحرب الكونت دو بورمون - يقوم بالإنزال في المكان نفسه الذي اقترحه الجاسوس بوتين.

4 يوليو: ترسو أخيراً قافلة الجياد والمعدات الثقيلة، ويتمكن الجيش من

مهاجمة حصن الإمبراطور ومدينة الجزائر.

23 – 25: يوليو، هزيمة المارشال دو بورمون أمام البليدة.

27 – 29: بعد «الأيام المجيدة الثلاثة»، شارل العاشر يتخلى عن السلطة لدوق أورليان لويس فيليب.

1831– يحتل الجنرال دامرومون – الذي مات في 1837 عند احتلال القسنطينة – وهران ولكن ليس من دون مقاومة.

1834– الثاني والعشرون من يوليو، أمر ملكي بإرساء نظام التملك الفرنسي في شمال أفريقيا، يدعم توسيع الاستيطان، ويأتي بعد الكثير من المواجهات العسكرية.

1840– الجمهورية الفرنسية تعلن الجزائر مقاطعة فرنسية. زيادة عديد الجيش الفرنسي، وتسمية الجنرال بوجو حاكماً عاماً.

1843– دوق أومال ولاموريسيير يلقي القبض على عائلة عبد القادر الجزائري، والذي وعلى امتداد خمسة عشر عاماً قاد كافة حركات المقاومة ضد الاحتلال.

1847– استسلام الأمير عبد القادر والذي لم يكن نهاية المقاومة: ففي شرق وجنوب القسنطينة العام 1852، وفي منطقة القبائل من العام 1854 وحتى 1859، وفي وهران بين 1858 – 1859، ثم مرة أخرى في منطقة القبائل عامي 1864 و1865، حدثت انتفاضات قمعت غالباً بعنف.

1852– إعلان الإمبراطورية الثانية.

1857– الأول من يوليو، يطلق الحاكم العام راندون حملة دموية في إيفرحونن، التي كانت عائقاً أمام «فرض السلم» في منطقة

القبائل، وبتلك المعركة يتمّ الفرنسيون سيطرتهم على بلاد الجزائر.

1858– الرابع والعشرون من يونيو، استحداث وزارة الجزائر والمستعمرات، وأول الشاغلين لها هو الأمير جيروم نابوليون. هذه الوزارة لم تدم طويلاً، وأعاد مرسوم 24 نوفمبر 1860 تعيين دوق مالاكوف المارشال إيمابل بيليسيه، حاكماً عاماً للجزائر.

1860– من السابع عشر وحتى التاسع عشر من سبتمبر، يزور الإمبراطور نابوليون الثالث والإمبراطورة أوجيني ليومين مدينة الجزائر. الإمبراطور الذي عاد بانطباع جيد جداً عن السكان الأصليين، يمكث لفترة أطول في زيارة لاحقة العام 1864 (الثالث من مايو – السابع من يونيو).

1863– للمرة الأولى، مرسوم من مجلس النواب يضمن لسكان البلاد الأصليين حق امتلاك أراضيهم، يقول «إن القبائل الجزائرية تمتلك الأراضي التي تقيم فيها وتستغلها..». ولكن من دون تجريم كل عمليات القضم التي حصلت منذ العام 1830.

1865– الرابع عشر من يوليو، مرسوم نيابي أيضاً يحدد الوضع القانوني لمسلمي فرنسا: «المسلم من سكان البلاد الأصليين هو فرنسي، غير أنه يبقى خاضعاً للقانون الإسلامي. يمكنه أن يتجند في المشاة والبحرية، ويمكنه أن يشغل وظائف مدنية في الجزائر. ويمكنه بناء لطلبه أن يطلب الانضمام لفرنسا والخضوع لقوانين المواطنين الفرنسيين، وبهذه الحالة عليه الخضوع للقوانين المدنية والسياسية الفرنسية».

1870– انطلاق الكثير من الزواويين إلى الحرب ضد بروسيا مما أضعف سلطات الاحتلال في الجزائر.

سبتمبر، هزيمة سيدان وانهيار الإمبراطورية الثانية وإعلان الجمهورية الثالثة. نهاية النظام العسكري في الجزائر.

نوفمبر، مرسوم كروميه يمنح الجنسية الفرنسية وبشكل جماعي ليهود الجزائر، وهو المرسوم الذي اعتبره المسلمون تمييزياً وغير عادل.

1871 – انتفاضة جديدة في منطقة القبائل وفي «الهضاب العليا» التي يديرها الباش آغا مقراني، أحد إقطاعيي مجانة، تضغط على السلطة، فيستغل الجيش الفرصة لإثبات قوته. مصادرات أراضٍ وغرامات عالية. المقراني يقتل في مايو.

1881– 1883– رجال «أبو عمامة» يهاجمون المراكز العسكرية غرب وهران وجنوبها قبل أن يلتجئوا إلى المغرب جارة الجزائر.

1898– الاضطرابات العرقية ضد اليهود في شهر يناير تعطي لإدوارد درومون الفرصة بالتقدم للانتخابات التشريعية. ينتخب في الثامن من مايو نائباً للدائرة الانتخابية الأولى في مقاطعة الجزائر، ويستمر حتى العام 1902 رئيساً للحزب المناهض للسامية.

1901– في مارغريت، مستوطنة صغيرة، مجموعات من الفلاحين الثائرين يثون الرعب بين المستوطنين.

1911– مئات من وجهاء المدية يرفعون عريضة إلى مجلس النواب من أجل تحسين أوضاع المسلمين، الذين أصبحوا خاضعين للخدمة العسكرية الاجبارية. ونتيجة للمطالبات يتم إدخال سبعة

وثمانون ألفاً وخمسمائة جندي إلى السلك العسكري من أصل مائة وثلاثة وسبعين ألف جندي من السكان الأصليين شاركوا في المعارك.

1914- الأول من أغسطس، الأمر بالتعبئة العامة يثير بقوة المناطق في الجزائر، ويسقط في المعارك أكثر من خمسين ألفاً من السكان الأصليين، واثنين وعشرين ألفاً من الفرنسيين الجزائريين.

1919- قانون كليمنصو (الذي أعلن من العام 1915، كان في البداية أكثر جرأة، إنما أجّل تنفيذه لغاية انتفاء معارضة تدخل المجلس الأعلى في الجزائر)، وهو منح الجنسية الفرنسية لعدد قليل من الجزائريين من المؤيدين للفرنسيين.

نوفمبر، الأمير خالد، الابن الأصغر لعبد القادر، يحقق انتصاراً في الانتخابات البلدية في الجزائر، حيث اكتسحت لائحته جماهير السكان الأصليين وبعد تدخل رئيس لائحة منافسة، الطبيب بلقاسم بن تامي، يقوم مستشار محافظ ولاية الجزائر بإلغاء نتائج الاقتراع بحجة أن المتنافسين الخالديين انتهكوا المبادئ العلمانية للجمهورية بمرافعات مرابطية! نفي الأمير العام 1923.

1929- الجمعية التأسيسية للحزب الأول المستقل بشكل كامل، «نجمة شمال افريقيا». في العام التالي أسس بمبادرة من فرحات بلعباس اتحاد المنتخَبين الجزائريين، والذي يقوم برنامجه على التساوي في الحقوق والواجبات بين سكان المستعمرات أياً تكن جذورهم وديانتهم.

1930- مئوية غزو الجزائر. في تونس والجزائر وبحضور الرئيس غاستون دوميرغ، أقيمت احتفالات باذخة تؤكد على السلطة الكولونالية المطلقة شمال أفريقيا.

1931- بما أنه كان بالنسبة لفرحات عباس «لا وجود للوطن الجزائري» أسس الشيخ بن باديس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» والتي كان شعارها «العربية لغتي، والجزائر وطني والاسلام ديني».

1934- أحداث خطيرة بين الطائفتين المسلمة واليهودية في القسنطينة: 27 قتيلاً، وتدخل الجيش وفرض حظر التجول.

1936- إنشاء الجبهة الشعبية.

يونيو، اندماج بين اتحاد المنتخَبين وجمعية العلماء لتأسيس المؤتمر الإسلامي الجزائري.

نوفمبر، «مشروع فيوليت» المدعوم من قبل ليون بلوم الذي يسعى إلى دمج أفضل للجزائريين في الجمهورية، والذي يواجه برفض كبير من قبل معظم المستوطنين.

1940- إبطال مرسوم كروميو 1870. ثم إعادة العمل به مع زيارة ديغول للجزائر.

1942- الإنزال البريطاني - الأمريكي في مدينة الجزائر.

1943- مايو، وصول الجنرال ديغول، الذي أعلن بسرعة عن إصلاحات في الجزائر: فتح الباب بشكل أوسع أمام إعطاء الجنسية الفرنسية وحقوق التصويت، وفي مرحلة ثانية لكل الجزائريين ما فوق الواحد والعشرين عاماً (خطاب القسنطينة).

1945– الثامن من يونيو في سطيف وقالمة وقسنطينة، تظاهرات تقمع بقوة وتوقع آلاف الضحايا. هذه الأحداث التي وقعت في اليوم نفسه الذي كانت تحتفل فيه أوروبا بالنصر على النازية، ولدت وعياً اكبرمن ذي قبل لدى الأجيال الجديدة.

1946– أبريل، فرحات عباس يؤسس «الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري»، ومصالي الحاج «حركة انتصار الحريات الديمقراطية».

1947– يقرّ مجلس النواب قانون إنشاء مجلس جزائري تشريعي يتكون من 120 عضواً تشكله جماعتان. وهو القانون الذي لاقى رفضاً جماعياً من قبل النواب المسلمين الجزائريين.

1954– مارس تأسيس «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» والتي كان هدفها التحضير للانتفاضة المسلحة. وبضمها في الخريف قيادات من الحركة الوطنية، أصبحت في نوفمبر ما يعرف بـ»جبهة التحرير الوطني».

ليل 31 أكتوبر، الأول من نوفمبر، سلسلة من الاعتداءات ضد المؤسسات العامة. وفي اليوم التالي اغتيال مدرس شاب وقائد في منطقة باتنة: «يوم عيد جميع القديسين الدموي» الذي أعلن انطلاق النضال المسلح من أجل الاستقلال. فرنسا تحل «حركة انتصار الحريات الديمقراطية» وتعتقل العديد من القادة الوطنيين.

1955– يناير الوضع في الجزائر يسبّب أزمة سياسية في فرنسا، إذ رفض مجلس النواب إعطاء الثقة لبيار منِدس فرانس وفضل إدغار فور. جاك سوستيل، الحاكم العام الجديد يصل إلى الجزائر مع ثلة من الإصلاحات التي عارضها معظم المستوطنين.

في الجزائر تكثفت الاعتداءات (123 قتيلاً في فيليبفيل) وعمليات القمع تحصد أكثر من ألف من الضحايا. اعلان حالة الطوارئ في أبريل وانتقال الأزمة الجزائرية إلى الأمم المتحدة.

1956 فبراير، في حين تم استدعاء سوستيل إلى باريس، تم استقبال الجنرال كاترو، المعين في وزارة الجزائر الجديدة، بالغضب وبقذف كل أنواع الخضار في وجه الزائر الجديد: إنه «يوم الطماطم».

استقالة كاترو الذي خلفه لاكوست.

زيادة عديد القوات العسكرية إلى أكثر من أربعمائة ألف عنصر في الصيف.

مفاوضات سرية مع جبهة التحرير الوطني في دول ليست أعضاء في الاتحاد الاوروبي، قطعت بعملية اختطاف طائرة قادة الثورة بن بلة، آيت أحمد، بوضياف، خيذر، لشرف في 22 أكتوبر، مما أدى إلى إضراب عام للتجار المسلمين.

1957– يناير ومرة اخرى في الربيع، سلسلة من الاعتداءات في المقاهي في مدينة الجزائر وكازينو لا كورنيش، والتي رد عليها مظليو الجنرال ماسو بعنف. بدء التوقيفات الاعتباطية، والتعذيب والإعدامات السريعة في العاصمة.

1958– الثامن من فبراير الطيران الفرنسي، ورداً على عمليات هجوم انطلاقاً من الأراضي التونسية، يقصف القرية الحدودية ساقية سيدي يوسف. ردة الفعل الكبيرة تؤدي إلى تدويل الصراع.

13 مايو، تظاهرة شعبية دعماً لفرنسا أمام مبنى الحاكم العام في الجزائر. يوم «الصداقة» يبدأ بنهب المبنى وإحراق المكتبة.

4 يونيو، الجنرال ديغول رئيساً للوزراء مدعوماً بكامل سلطات رئيس

الجمهورية، يزور الجزائر ويطلق خطابه الشهير: «لقد فهمتكم!».

19 سبتمبر، جبهة التحرير الوطني تعلن إنشاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية تحت قيادة فرحات عباس.

3 أكتوبر، من القسنطينة، يعلن ديغول، وبأمل إعادة إطلاق العملية السياسية والإدارية، خطة خمسية لإجراء تغييرات عميقة.

1959 الثامن من يناير، الرئيس رينيه كوتي يخلي كرسيه لديغول، وتعيين ميشال دوبريه رئيساً للحكومة. الجنرال ديغول وبول دلوفرييه يتكفلان كل في مجاله بإيجاد حل للأزمة الجزائرية.

في الخريف، تعلن الحكومة الجزائرية المؤقتة استعدادها للتفاوض. ديغول يعد الشعب الجزائري باستفتاء لتقرير المصير وهو ما قوبل برفض شديد من قبل مؤيدي الجزائر الفرنسية، أدى استفحاله إلى استدعاء الجنرال ماسو إلى فرنسا. دعم محدود لاقتراح باستقلال الجزائر في الأمم المتحدة.

1960– يناير، «أسبوع المتاريس». الجيش المقسوم التحق بوقت متأخر برئيس الجمهورية. ديغول يقصي شال المتهم بالخداع.

يونيو ، محادثات ميلون تتوقف بشكل مفاجئ.

1961– استفتاء يعطي ديغول الصلاحية الكاملة لحل الصراع بشكل عاجل والحكومة الجزائرية المؤقتة تعلن استعدادها للتفاوض. انقلاب الجنرالات شال وزيلر وسالان وجوهاد (21 ابريل) وضع الجمهورية في خطر ويؤدي إلى عودة الاعتداءات. محادثات في إيفيان ولوغرين، تنطلق بصعوبة في مايو، وتؤجل مراراً.

سالان على رأس «منظمة الجيش السري».

1962 – تصاعد الاعتداءات على جبهتي المتوسط. الرأي العام الفرنسي، التعب من الحرب والمصدوم بدموية منظمة الجيش السري يؤيد سلاماً فورياً.

مارس، المؤتمر الثاني في إيفيان والذي يؤدي في النهاية إلى اتفاق بين حكومة الجزائر المؤقتة والحكومة الفرنسية. توقيع اتفاق لوقف إطلاق النار ولكن منظمة الجيش السري تصعد عملياتها.

في السادس والعشرين، يطلق الجيش النار على حشود أوروبية تتظاهر في شارع إيسلي في الجزائر.

الثالث من يوليو، اليوم الأول من الاستقلال الجزائري. فرنسيو الجزائر، بأغلبيتهم العامة، يغادرون الجزائر.

نبذة عن المترجمة:

ولدت ضياء حيدر في جبيل، لبنان. درست الإعلام والتوثيق في الجامعة اللبنانية. وعملت في الصحافة اللبنانية بين عامي 1996و2005. قبل أن تنتقل للعمل والعيش في الإمارات. حيث تعمل في مجال الترجمة والصحافة الإلكترونية. لها في الترجمة: "سلاحف بوليلنغا"، "في بلاد تيتو"، "زيبولين الصغيرة جداً"، وغيرها.

امرأة على اسم نجمة

تعرف جيداً ما هي الشهب: هذه النقاط الذهبية التي تظهر في أعالي السماء ليلاً، في اللحظة غير المتوقعة، راسمةً خطوطاً سرعان ما تختفي كالبرق.

كل ما على المرء فعله حين يراها أن يتمنى أمنية وستتحقق أمنيته هذه. لا يدوم الضوء سوى البرهة اللازمة لنتذكر أمنيتنا، ثم ينتهي كل شيء. لم يكن لديها ما تتمناه. صرخت في عمق أعماق روحها: "أن يحبني!"، من دون أن تضيف: "...وأن أحبه!". لأن ذلك سيحصل تلقائياً، "أن يحبني"، من؟ كانت تجهل هذا الذي سيأتي! إنه نجمٌ مذنب في كل الحالات، حتى لو كانت قد خلطت بينه وبين لهب خاطف في البحر أو حتى التماع قذيفة مدفعية، العرب يتحدثون عنه، يقول محمد: "ستحصل أحداثٌ..."، هو بالطبع سيفكر بزوال الفرنسيين، بجبالٍ تسحقهم أو بحر يبتلعهم.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة





